

فبراير 2018

423

صوت مُنْفَرِد

مجموعة قصصية

تأليف: سوزانا تامارو
ترجمة: د. أماني فوزي حبشي
مراجعة: د. أيمن الشيوي

صوت مُنْفَرِد

مجموعة قصصية



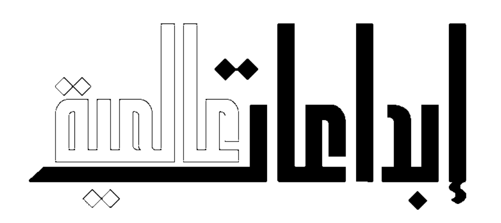
صوت مُتْفَرِد

مجموعة قصصية

تـــألـــيـــف: سوزانا تامارو

تــرجـــــــمــــة: د. أماني فوزي حبشي

مـــراجـــعـــة: د. أيمن الشيوي



تصدر كل شهرين عن

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

التنضيد والإخراج والتنفيذ: وحدة الإنتاج

في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

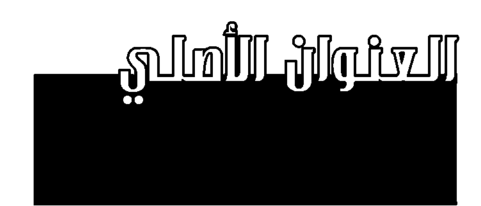
التدقيق اللغوي: وائل أحمد حمزة

www.nccal.gov.kw
ebdaat_alamia@nccal.gov.kw
ebdaat_alamia@yahoo.com

ISBN: 978-99906-0-579-2

صوت مُنْفَرِد

رواية



PER VOCE SOLA

By: Susanna Tamaro

الطبعة الأولى - الكويت

المجـلـس الوطـنـي للثقـافـة والفـنـون والآداب، 2018م

إبداعات عالمية - العدد 423

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(1990 - 1923)

إلى إيلسا جدتي

«لأعـوام طويلـة ظـل كل شيء هنـاك، في علبـة حديديـة، مدفونـة جيـدا في أعماقــي حتــى إننــي لم أعــرف قــط مــاذا تحتــوي. كنــت أعلــم أننــي نقــل بداخــلي أشــياء غــير مســتقرة وقابلــة للاشــتعال، أكــثر سرّيــة مــن لأسرار الجنســية وأكــثر خطــورة مــن الأشــباح والخيــال».

هيلين إبستن
أطفال الهولوكست، 1979

مقدمة المؤلفة

كتبت تلك القصص الخمس التي تتكون منها رواية «صوت منفرد» في شتاء عام 1990. الكتاب الذي سبقها كان، رأس بين السحب -والذي بدأت به عام 1989- كان كتابا نبرته خفيفة، أدب الصعاليك، مناسبا لأن يظهر بوضوح في العالم الأدبي.

في الحقيقة، لا يتعلق الأمر بمجموعة فعلية من القصص، ولكن بإجمالي عضوي، يشبه في الأكثر رواية. لقد ألفتها في الواقع الواحدة تلو الأخرى، بلا انقطاع، كأنها قصة واحدة متصلة.

إنها سلسلة من الألم الذي يجتاح الحياة الإنسانية؛ من حزن الطفلة المتبناة في القصة الأولى «يوم الإثنين مرة أخرى» المستوحاة من حادث حقيقي، حتى المناجاة النهائية الطويلة للعجوز العبرية، يوجد خيط أحمر من التوتر والانفعال يربط كل شخصية في نَفَس واحد.

اكتشف فيدريكو فيلليني الكتاب بمحض المصادفة، إذ قرأه في أثناء إصابته بدور إنفلونزا، وقال إنه منذ زمن قراءته لديكنز لم يشعر بانفعالات بهذا العمق. على الرغم من أن الكتاب قد حظي من قبل بنقد إيجابي متنوع، إلا أنه انطلق بفضل كلمات فيلليني. ربما يكون «صوت منفرد»، هو كتابي الأكثر تقديرا من النقاد الذين أكثر ما أعجبهم فيه القسوة الواضحة للقصص.

سوزانا تامارو، نوفمبر 2012

يوم الإثنين من جديد

مفكرتي العزيزة، ها هو ذا يوم الإثنين، مرة أخرى.

اليـوم هـو أول يـوم خريـف حقيقـي؛ توجـد ريـاح، وأوراق الأشـجار، التـي تحـوَّل لونهـا أخـيرا للأصفـر، تطـير في الهـواء. حسـب التقويـم كان لا بـد أن يبـدأ الخريـف قبـل اليـوم بكثـير، ولكـن بسـبب تلـك الثقـوب في الجـو لم يعـد المـرء واثقـا مـن أي شيء، ولا حتـى مـن انتظـام فصـول السـنة. تُـرى كيـف سـيكون الحـال في المسـتقبل؟ كل فـترة أتسـاءل. أفكـر، بالطبـع، في دوري الصغـيرة وليـس في نفـسي أو في جيـف. وبالمناسـبة، اليـوم تمـر سـتة أعـوام تمامـا عـلى وجودهـا معنـا. لم أتذكـر هـذا الأمـر بنفـسي، ولكـن تذكَّرَتْـه مسـاعدتي في دار النـشر. لقـد أرادت بـكل الطـرق أن أشرب معهـا في البـار كأسـا مـن النبيـذ البـارد الفـوار. فقـط عندمـا وقفـت وهـي تقـول: في صحـة طفلتـك الصغـيرة! فهمـت عـما كانـت تتحـدث. آه إنهـا بالفعـل ذكـرى ذلـك اليـوم! شيء كعيـد ميـلاد آخـر بالنسـبة إليهـا. اليـوم الـذي فيـه وُلـدت واليـوم الـذي تبنيناهـا فيـه. أتذكـر تمامـا انفعـالي أنـا وجيـف. لم يكُـن معروفـا أيـن وُلـدت ولا متـى؛ كان أحـد حـراس الليـل قـد وجدهـا في صنـدوق للقمامـة. كانـت بشرتهـا بيضـاء، ربمـا مـن أصـول إسـبانية. ولكـن لـو كانـت صفـراء أو سـوداء فـإن الأمـر سـيكون سـواء بالنسـبة إلينـا. منـذ اللحظـة التـي تأكدنـا فيهـا مـن اسـتحالة الإنجـاب لم نكُـن

نتمنى شيئا آخر. بمجرد أن خرجنا من المؤسسة، قال جيف وهو يحتضنها بين ذراعيه صارخا: في القمامة! تبدو كأنها قصة خيالية من تلك التي تنشرينها أنت!

إنها بالفعل قصة خيالية! تماما مثل تلك التي كنا نتحدث عنها اليوم في اجتماع النشر. علينا أن نفتح سلسلة جديدة للأطفال من أعمار بين ست سنوات وعشر. ترى لوري، شريكتي، أنها اللحظة التي لا بد فيها من أن ننتج قصصا مرعبة. إن هذا ما يريده الأطفال: الوحوش والساحرات والعمالقة ذوو اللعاب السائل، زوج الأم البشع وآكلو لحوم البشر. وأنا بطبيعة الحال أرى عكس هذا، أعتقد أننا لا بد أن نقدم الأفضل للأطفال، أن نجعلهم يحلمون؛ إنهم غاية في الرقة والضعف، وخيالهم خصب.

في المساء خرجت أنا وجيف للعشاء، أخذني إلى ذلك المطعم الإيطالي الصغير الذي ذهبنا إليه عقب زواجنا. لم يُشر إلى عيد ميلاد دوري، ولكنني شبه متأكدة أنه دعاني للخروج للاحتفال بهذه المناسبة. جيف شخص كتوم، ولكنه مرهف المشاعر جدّا. كثيرا جدّا قبل أن أخلد للنوم أتساءل كيف كانت ستكون حياتي من دونه. لا أعرف إجابة عن هذا السؤال، إلا أنني سعيدة هكذا، ماذا سيهمني من معرفة الإجابة؟

ملحوظة: في أثناء عودتنا إلى المنزل تعرقلت على السلالم. لا أعرف كيف حدث هذا، إلا أنه كان بالتأكيد شيئا غريبا وأنا أرى نفسي أتدحرج مثل جوال البطاطس. شعر جيف بالقلق، ولكنني قمت وقلت له: «لم يحدث شيء خطير». عندئذ أخذنا نضحك من قلبينا.

مذكرتي العزيزة، بالأمس كنت متفائلة جدّا برد فعلي من هذه السقطة (حادثة الوقوع). في الواقع، هذا الصباح، عندما استيقظت

أدركـت أننـي أشـعر بـألم في كل أنحـاء جسـدي. وفي الحـمام عندمـ
نظـرت إلى نفسي في المرآة، كانـت المفاجـأة، لقـد وجـدت إحـدى عينَـيّ
وقـد أحـاط بهـا اللونـان الأسـود والبنفسـجي، كأن أحدهـم قـد ضربنـي
بقبضتـه في عينـي.

لم يكُـن جيـف بجـواري، كان قـد خـرج. إن عملـه يسـتهلكه تمامـ
حتـى إننـي أتسـاءل أحيانـا مـن أيـن يجـد القـوة ليسـتمر.

عـلى كل حـال، قـررت اليـوم ألا أذهـب إلى دار النـشر، سأسـتمتع
بيـوم في المنـزل مـع الصغـيرة دوري. الأمطـار تهبـط بغـزارة في الخـارج
وعندمـا تعـود مـن المدرسـة سـنتدثر أسـفل الأغطيـة وسـأحكي لهـ
حكايـات حتـى وقـت العشـاء. هـي كالعـادة تريـد الاسـتماع إلى قصـص
عقلـة الإصبـع وذي اللحيـة الزرقـاء، وأنـا، كـما يحـدث عـادة، سـأحاول
أن أقـص عليهـا قصـة سـندريللا. توجـد في نظـرات الصغـيرة سـحابة
لا تعجبنـي، سـحابة أنجـح عـادة في القضـاء عليهـا بحكايـاتي، بعذوبـة
الإقنـاع.

السـاعة الآن العـاشرة مسـاء. قضينـا الظهـيرة كـما خططـت لهـا، في
الفـراش نشـاهد الأمطـار وهـي تسـقط ونقـص الحكايـات، واسـتيقظن
في الخامسـة تقريبـا. كان لا بـد أن تكتـب دوري واجـب التعبـير، عـن
موضـوع «أبي». عـلى الرغـم مـن أنهـا لا تجـد أي صعوبـة في الكتابـة
فإنهـا في هـذه المـرة أخـذت تنظـر إليّ بضيـاع وهـي ترفـع القلـم في
الهـواء أمـام الورقـة البيضـاء، وهكـذا سـاعدتها. قلـت لهـا: أنـا أفهـم
لمـاذا لا تعرفـين مـاذا تكتبـين، فـإن أبـاكِ شـخص رائـع جـدّا ومـن
الصعـب العثـور عـلى موضـوع لتبـدئي منـه! واقترحـت عليهـا بعـد
ذلـك أن تكتـب أنـه يعمـل محاميـا، وأنـه يدافـع دائمـا عـن الفقـراء
مثـل روبـين هـود بشـكل مـا؛ فهـو طويـل القامـة، وقـوي، قـوي جـدّ

حتى إنه يمكنه أن يخنق فيلا مستخدما فقط إصبعيه، ويرفعنا كلتينا فوق درابزين الشرفة بلا أي مجهود، كأننا ورقتان. عندئذ انتصرت على ترددها، وبدأت تكتب، وأخذت تكتب لمدة ساعة بأكملها، وهي في غاية التركيز والانتباه.

لم يأت جيف في هذا المساء إلى البيت، إن العمل يبتلعه تماما أحيانا إلىَ حد أنه لا يجد الوقت ليحدثني هاتفيا. ومن ناحية أخرى لم يكُن هناك عشاء هذا المساء. أراد جيف أن يبدأ نوعا جديدا من النظام الغذائي، بأن نتناول العشاء مرة واليوم التالي نشرب فقط الماء المغلي، وهو علاج كاليفورني. يقول جيف إنه يساعد على جعل الأفكار خفيفة. هذه حقيقة، بعد أسبوع أشعر بالفعل بأنني أفضل. فمع كل تلك القاذورات الموجودة في الهواء والتي نأكلها من الضروري جدّا القيام بنوع من التنظيف الداخلي، لننظف من الداخل في النفس وفي الجسد. هذا هو برنامجه. اعترضت الصغيرة دوري بعض الشيء، كانت تريد أكل الكورن فليكس باللبن وليس بالماء المغلي، ولكنني شرحت لها بهدوء أن أباها يعرف الأفضل لنا. اقتنعت بسرعة، وشربت المياه الساخنة وهي تنفخ لتبردها كأنها تشرب الحساء الساخن. بمجرد أن انتهت وضعتُها في الفراش، ومن بين الأغطية، ومثل كل ليلة بحثت على الفور عن دبها الصغير وضمته بقوة إلى صدرها.

وبينما أخرج من الغرفة طلبت مني إغلاق الباب بالمفتاح. قلت لها إن الباب الوحيد الذي نغلقه بالمفتاح هو باب المنزل! وكالعادة تركت باب غرفتها مفتوحا وتركت نور الردهة مفتوحا لينير لها الغرفة. كنت أتوقع هذا، في هذه السن من الوارد جدّا التعرض للخوف في الليل، فهو شيء معتاد. لهذا السبب لا بد أن

نطمئنهـم، وأن نقـدم لهـم النـور حيـث يوجـد الظـلام. وعـلى الفـور أدت الحيلـة دورهـا ونامـت دوري تقريبـا عـلى الفـور دون أن تطـرح أي أسـئلة أخـرى.

في الصالـون أخـذت أشـتغل كروشـيه إلى مـا بعـد منتصـف الليـل. فأنـا أشـغل كنـزة صوفيـة مفتوحـة ذات أزرار مـن الأمـام. اللـون هـو لونهـا المفضـل: الأخـضر. عـلى الجانـب الأيـسر سـأخيط جيبـين سـأضع فوقهـما صـورة للشـمس وأخـرى لقـوس قـزح.

يوميـاتي العزيـزة، اليـوم عـدت إلى دار النـشر. في التاسـعة كان لدينـا اجتـماع لمناقشـة تلـك السلسـلة المشـهورة. تـصر لـوري عـلى أفكارهـا، وأنـا لم أتنـازل عـن أفـكاري. مسـاء أمـس، قبـل أن أدخـل غرفتـي لأنـام، ذهبـت لأطمـئن عـلى نـوم دوري ووجدتهـا تنـام مثـل الجـرو المتعـب، سـعيدة وهـي تمسـك بدبهـا الصغـير. وهكـذا بهـذه الصـورة في ذهنـي، شرحـت للـوري أنـه، نظـرا لأنهـا ليسـت لديهـا أطفـال، فهنـاك أشـياء يصعـب عليهـا فهمهـا. لا يمكننـا أن نسـبب لهـم اضطرابـا بقصـص غريبـة عـن الوحـوش. اختبـأتْ عـلى الفـور خلـف ابتسـامة محايـدة ولم تجبنـي، فقـط في وقـت لاحـق، في نهايـة الاجتـماع، اقتربـت منـي وبصـوت منخفـض سـألتني مـاذا حـدث لعينـي.

أجبتهـا وقلـت لهـا: الحقيقـة أننـي وقعـت عـلى السـلم. عندئـذ رفعـت كتفيهـا وقالـت لي بدهشـة: ألا يحـدث هـذا لـك كثـيرا في الفـترة الأخـيرة؟ هـل تعانـين مـن مشـكلة مـا في الأذن الوسـطَى؟

أصرت لفـترة طويلـة بعـد ذلـك عـلى أن تعطينـي عنـوان أحـد المتخصصـين في مراكـز التـوازن والـذي سـاعد إحـدى صديقاتهـا.

في النهايـة أخـذت منهـا كارت الطبيـب حيـث كُتـب رقـم الهاتـف، ودون أن أنظـر إليـه وضعتـه في حقيبـة يـدي مـع الأوراق الأخـرى.

بعـد الغـداء تركـت دار النـشر في السـاعة الثالثـة. هاتفتنـي معلمـة دوري الجديـدة وطلبـت أن تقابلنـي. لا أشـعر كثـيرا بالقلـق. أعـرف بالفعـل مـاذا تريـد أن تقـول لي، فالطفلـة نحيفـة، ضعيفـة التركيـز وهزيلـة. ليسـت المـرة الأولى التـي تسـتدعيني فيهـا إحـدى المدرسـات. كـررت لتلـك المدرّسـة مـا سـبق أن شرحتـه للمدرّسـات الأخريـات: نحـن لا نعـرف كيـف جـاءت إلى العـالم، وقـد قضـت السـاعات الأولى مـن حياتهـا في وسـط القمامـة، في أصعـب ظـروف ممكنـة. ويمكـن أن نفهـم بالتـالي أنهـا ليسـت مثـل الأطفـال الآخريـن. وانتهـى اللقـاء وقـد تصادقنـا، وفي أثنـاء وداعـي سـألتني إذا كنـت قـد أصبـت في حادثـة سيارة، فأخبرتهـا أنـه بالنسـبة للشـخص الـذي يعـاني مـن ضغـط الـدم المنخفـض مـن الصعـب أن يـرى في الصبـاح أواني المطبـخ، حتـى ولـو كانـت في مكانهـا المعتـاد، وضحكنـا. هـي أيضـا تعـاني مـن حـالات دوار بسـبب الضغـط.

في الطريـق مـن المدرسـة إلى المنـزل، كانـت دوري تسـير ممسـكة بيـدي وهـي تنظـر إلى الأرض. عندئـذ قلـت لهـا: لديـكِ حـق، أنـا أيضـا في سـنك كنـت أفعـل الـشيء نفسـه، لا يوجـد شيء أجمَـل من مشـاهدة أوراق الشـجر الصفـراء الملقـاة عـلى الطريـق.

كان جيـف قـد عـاد إلى المنـزل. كان ممـدا عـلى الفـراش وهـو مـا زال ينتعـل حـذاءه ويرتـدي سـترته. كانـت السـتائر مسـدلة والأنـوار مطفـأة. أدركـت عـلى الفـور أنهـا إحـدى نوبـات الصداع التـي تهاجمـه مـن شـدة الضغـط في العمـل. وحتـى لا أزعجـه، ودون أن أضيء الأنـوار، وضعـت دوري عـلى الفـور في فراشـها ولحقـت بـه في حجرتنـا. مـن حين

إلى آخر يكون من الأفضل الذهاب إلى النوم ظهرا بدلا من النوم مساء.

في منتصف الليل فجأة، جاءت دوري إلى غرفتنا وهي ممسكة بدبها في يدها، في البداية تحدثت بصوت خفيض، ثم بصوت أعلى وقالت إنها تشعر بالجوع الشديد. في البداية تجاهلناها؛ يجب عدم الاستجابة والضعف أمام كل نزواتهم! ثم، ونظرا لإصرارها الشديد، طلب منها جيف أن تكف عن هذا وأن تعود إلى فراشها، نظرا لأن عديدا من الأطفال في العالم يتضورون جوعا أكثر منها! ولكن دوري لم تتحرك خطوة واحدة، فقد كانت عنيدة، عندما تضع شيئا في رأسها لا تتنازل. عندئذ قام جيف بإبعاد الغطاء بسرعة، ونهض وذهب إليها، أخذها من ذراعها وقادها إلى المطبخ ثم مرة أخرى إلى حجرة نومها. إن جيف لمعجزة حقيقية؛ حتى وهو في غاية التعب يجد دائما فتات القوى التي بها يمكنه أن يجيب مطالب من يحب. لا بد أنه مكث في الخارج طويلا، لأنه عندما عاد، كنت أنا قد استغرقت في النوم. التفتُّ نحوه ومنحته قبلة، ثم لم أستطع العودة إلى النوم بسهولة، في نهاية الدهليز كانت هناك قطة تبكي مثل الطفل.

اليوم الجمعة يا يومياتي العزيزة! انتهى أسبوع آخر! خلال بضعة أيام سيحل الشتاء مكان الخريف. الآن لا يمكن الخروج بلا قبعة وبلا قفازات إذ يخاطر المرء بأن يصاب بنزلة شُعَبية. هذا الصباح استيقظت دوري في حالة سيئة، لم تكُن تريد الاستيقاظ، لم تكُن تريد الإفطار ولا وضع الكوفية والقفازات، وبمجرد أن خرجنا إلى الطريق لم تكُن تريد السير، كانت تقول إنها تشعر بالألم في إحدى رجليها. بالتأكيد الأمر لا يتعدى اختلاق عذر ما حتى لا تذهب إلى

المدرسة. عندئذ، وبصبر، حكيت لها قصة «الذئب، الذئب»، وأنه لا بد ألا نتظاهر بالمرض لأننا في يوم من الأيام سنمرض بالفعل، وأنها لا بد أن تفكر في كل الأطفال الأقل حظا منها، على الأقل هي تتمتع بذراعيها ورجليها.

لا بد أن حديثي أثّر فيها بشدة: بدأت تسير بسرعة إلى المدرسة أمامي ورأسها منخفض. وفي اللحظة التي قبّلتها فيها عند مدخل المدرسة كانت عيناها لامعتين، وعندئذ أدركت أنها كانت تبكي. يا لها من طفلة حساسة! تكفي بضع كلمات بالطريقة المناسبة لتدرك كل شيء.

في دار النشر ولأنهي المجادلات، قمت بحركة مفاجئة وقلت إنني سأكتب الكتاب الأول للسلسلة الجديدة. لم تُظهر لوري مقاومة شديدة، وأيضا باقي أعضاء اللجنة. على كل الأحوال النتيجة النهائية ستخضع لحكمهم. في إجازة نهاية الأسبوع لن يكون لدي الوقت للراحة؛ بالإضافة إلى التفكير في الحدوتة (إذ أريد الانتهاء منها في أسرع وقت) لا بد أيضا أن أنتهي من الكنزة الخضراء لدوري.

مر يوما السبت والأحد بسرعة شديدة، كالمعتاد. يوم السبت كان مشمسا فقررنا أنا وجيف أن نقوم برحلة في الريف. كان الهواء باردا ولاسعا. لا تحب دوري الذهاب في السيارة، لم ترغب في الخروج. كانت تبكي. وهكذا، في منتصف الطريق، أوقف جيف السيارة، أنزلها واقترح عليها نظرا لأنها تحب الكلاب كثيرا، أن تركب في الصندوق الخلفي للسيارة. أغلق عليها، واستمرت الرحلة في هدوء، ومن حين إلى آخر ونحن نتحدث، كنا نسمع من صندوق السيارة صوتا كأنه نباح قوي مكتوم. كنا نضحك، كم كانت الصغيرة خفيفة الظل، كانت تتظاهر بأنها كلب بالفعل.

تناولنا الغداء في مطعم ريفي. قلت لجيف عن فكرتي بأن أكتب أول كتاب في السلسلة، تحمّس جدّا، وقال لي إنه بدلا من الخوض في الخيال يمكنني أن أكتب عن قصة دوري الحقيقية. إنها بالفعل فكرة رائعة؛ فقصتها بالفعل ذات نهاية سعيدة، حدوتة حقيقية.

يوم الأحد ساء الطقس مرة أخرى. خرج جيف في الصباح الباكر، لا يوجد شيء يمكنه أن يمنعه من أداء واجبه. استيقظت دوري تقريبا في وقت الغداء، وهكذا قضيت صباحي كله أعمل على مكتبي. في الظهيرة أعطيت دوري كراسا أبيض صغيرا وطلبت منها أن تساعدني على تأليف حدوتة. لم تقل أي شيء، فقط أخذت القلم وجلست في إحدى الزوايا. وبينما كانت هي تكتب كالجرو الصغير، كنت أعمل أنا على حياكة البلوفر. في خلال أسبوع سيكون جاهزا. قبل العشاء بقليل حدثت بيننا مناوشة صغيرة، فأنا أريد أن أقيس طول الذراع وهي رفضت. لم ترفض بطريقة صاخبة، فقط عندما ناديت عليها لأقيس طول الذراع كانت بدلا من إعطائي ذراعها تعطيني ذراع الدمية. عندئذ قلت لها إنه بمجرد أن أنتهي من شغل هذا البلوفر سأطرز واحدا آخر مماثلا لدميتها. عندئذ فقط مدت لي يدها الصغيرة ووافقت على ارتدائه.

لم يحضر جيف للعشاء. وهذا المساء كان موعد العشاء بلا طعام، فقط المياه المغلية. شربتها دوري وهي تقول إن لها نكهة النعناع. وعندما كانت أسفل الأغطية ذكّرتني بأن عليَّ أن أوقّع لها ورقة السماح لها بحضور دروس الرقص. طويت الورقة ووضعتها على منضدة الفراش، وقلت لها في الصباح اطلبي التوقيع من أبيكِ، ومثل كل مساء قبّلتها على جبينها.

عندما عاد جيف كنت أنا في فراشي بالفعل. سمعته يدخل بحرص في الظلام حتى لا يوقظني. ودون أن أفتح عينَيَّ قلت له إنه في إمكانه أن يوقد النور لأنني ما زلت مستيقظة. أوقده، نزع ملابسه واستلقى بجواري وربت على وجهي. ما زلت أفكر في قصتي. لا تنقصني سوى نبرة البداية.

مذكرتي العزيزة، إنه يوم الإثنين من جديد! يقول النفسيون إنه يوجد عَرَض خاص بهذا اليوم. فبعد الاسترخاء في عطلة نهاية الأسبوع، تعاني كل الحواس من نوع من الاضطراب، والرفض لبدء أسبوع العمل. وأخشى أنهم بالفعل على حق! في الواقع، هذا الصباح اصطدمت مباشرة بالخزانة المجاورة للمبرد، تماما في حافتها، بطبيعة الحال أدى ذلك إلى قطع في الجبهة للأسف غائر. حاولت أن أضمده بالثلج قبل أن تستيقظ دوري. كان جيف قد استيقظ وذهب إلى الحمام. عندما أتت دوري إلى المطبخ ذكّرتها بإذن الرقص الخاص بالمدرسة. قالت: بعد الإفطار. ولكن حتى بعد الإفطار لم ترغب في الذهاب إلى أبيها. كان يجب عليّ اصطحابها حتى باب الحمام، وأن أدق بأصابعها الصغيرة على الباب الخشبي، لم يسمعها جيف على الفور إذ كان يحلق وهو يغني بأعلى صوته.

عندما فتح الباب في النهاية، فتحه بقوة شديدة، حتى إن دوري كادت تسقط أرضا. تركتهما بمفردهما وذهبت لأرتدي ملابسي. بينما أغلق حزام تنورتي سمعت جيف وهو يقول بشدة: هل لديك صوت أم لا؟

ثَم لا بد أن دوري بعد ذلك قد عثرت على شجاعتها وطلبت منه توقيع الإذن. في الواقع، بدأ جيف يدندن بسعادة موسيقى فالس، وبينما أنا أمر أمام الحمام، ألقيت نظرة إلى الداخل

ورأيتهـما يرقصـان. كان هـو قـد رفعهـا بذراعـه القويـة، وكان يلقـي بهـا في الهـواء، وكلـما تـكاد تسـقط كان يلتقطهـا ويلقـي بهـا مـرة أخـرى، وبعـد مـرور عـشر دقائـق تقريبـا أدرك أنـه قـد تأخـر عـن ميعـاده المعتـاد. صافحنـي أنـا والطفلـة وخـرج مسرعـا. دخلـت إلى الحـمام وكانـت دوري مـا زالـت مسـتلقية في حـوض الاسـتحمام. كانـت منفعلـة جـدّا ومتقطعـة الأنفـاس، ومـن نظـرة عينيهـا اسـتطعت أن أفهـم أنـه لا قـوة لديهـا للذهـاب إلى المدرسـة، ولأول مـرة أوافـق؛ لـن تكـون هـذه نهايـة العـالم! ولا أنـا أيضـا سـأذهب اليـوم إلى المكتـب. لا أريـد أن تـرى لـوري الجـرح في جبينـي وتنصحنـي مـرة أخـرى بطبيـب الـدوار.

ستكون فرصـة مناسـبة لأنتهـي مـن بلوفـر دوري، وأن أبـدأ في واحد جديـد لدميتهـا. لقـد انتهيـت مـن الكـم الأول وأعمـل حاليـا عـلى الثـاني. لم تسـتطع دوري القيـام، ولكنهـا عـلى الرغـم مـن ذلـك أرادت ارتـداء زي الرقـص الكامـل، ولأضعـه عليهـا كان عـليّ أن أتـرك عمـل التريكـو. كانـت مرهقـة جـدّا ولم تسـتطع تحريـك يديهـا وقدميهـا. لا بـد أن أقـول لجيـف ألا يرهقهـا إلى هـذا الحـد مـرة أخـرى؛ إنهـا طفلـة حساسـة جـدّا، يكفـي أقـل شيء ليسـبب لهـا اضطرابـا. بمجـرد أن وضعـت عليهـا الجـوارب الطويلـة، في الواقـع، لم تسـتطع السـيطرة عـلى نفسـها، وأخرجـت كل شيء عـلى نفسـها كأنهـا عـادت طفلـة مـن جديـد، ثـم تقيـأت إفطارهـا فـوق الجاكـت الدانتيـل. أخـذت قطعـة قـماش مبللـة، ونظفـت بهـا كل شيء، وبمجـرد أن وضعتهـا عـلى الحـوض بـدأت الدمـاء تندفـع مـن فمهـا، ونظفـت هـذا أيضـا. عـادة مـا تكـون شرهـة جـدّا في أثنـاء الأكل وهـذه هـي النتيجـة. كنـت أريـد أن أنهرهـا، ولكـن بمجـرد أن انحنيـت عليهـا وجدتهـا قـد نامـت. الصـبر.

أحيانـا يكـون علينـا أن نغمـض أعيننـا عـن بعـض الأشـياء. سأسـتغل فـترة السـكون تلـك لأكتـب قليـلا في الحدوتـة. البدايـة مؤكـدة: العثـور عليهـا في صفيحـة القمامـة. ولكـن النهايـة؟ ربمـا تكـون هنـاك فكـرة جيـدة في كـراس دوري. لا بـد أن أبحـث عنـه.

يقولـون إن الغيـلان لا وجـود لهـا إلا في خيالنـا، ولكـن الحقيقـة أن الغيـلان موجـودون بالفعـل، فـأبي في الصبـاح محـام ولكنـه يتحـول إلى غـول في الليـل. عندمـا أنـام وأخـشى أن يدخـل أحـد غرفتـي، أتشـبث بتـدي، وتـدي هـو دبي الفـرو، فنحـن أصدقـاء منـذ الأزل. يبـدو أنـه مصنـوع مـن الفـرو ولكـن في الحقيقـة إذا قلـت الكلمـة السـحرية وقبّلتـه عـلى قلبـه تنبعـث فيـه الحيـاة ويصبـح أقـوى مـن أي شيء. في كل مسـاء يعـدني تيـدي بـأن يدافـع عنـي، وفي كل صبـاح أعـده بأننـا عندمـا نكـبر سـنهرب معـا، وسـنذهب بعيـدا نتجـول في الغابـات نبحـث فيهـا عـن التـوت الحلـو والعسـل ليضـع فيـه مخالبـه. سـنصبح عندئـذ سـعداء كـما في كل القصـص التـي تنتهـي نهايـة سـعيدة.

لاف Love

حدث كل شيء في أثناء نومها. ألقوا بجوال على رأسها كما يفعلون مع القطط عندما يذهبون إلى النهر. ثم انتهى الأمر بالجوال وهي بداخله فوق حافلة. على هذه الحافلة كانت توجد كل الأجولة. كانوا على طريق سفر، ولكن إلى أين؟

لم يعرف أحد كيف يجيب. كان أصغرهم سنا يبكون، أما الأكبر فكانوا يتعاركون بصخب. بعد بضع ساعات توقفت الحافلة. كانت الصراصير تغني حولهم، كان الوقت ما زال ليلا، وكانوا في الريف. صعد رجل وجهه مغطى في الجزء الخلفي من الحافلة. جعلهم يستلقون على الأرض، وغطاهم بقطعة من القماش. وبنبرة تهديد قال لهم: «لا تتحركوا، لا تصدروا أي صوت، لا تسعلوا أو تضحكوا. إذا صعد أحد وطرح أسئلة فاحبسوا أنفاسكم».

وفوق القماش، وزع كرات من التبن. وبعد ذلك بقليل توقفت الحافلة مرة أخرى. وضوضاء أخرى صاخبة. مواتير سيارات تشتغل ثم تُطفأ. صرير العجلات، منبهات، وأصوات تتحدث بصوت مرتفع. صعد رجل بالفعل، وبلغة لم يفهمها أحد طرح كثيرا من الأسئلة، وكرر الأسئلة نفسها مرات عديدة. أجاب السائق بهدوء وببطء، وفي النهاية ضحك بصخب، وضحك الرجل الآخر وهو يترجل من الحافلة، كأنهم أصدقاء منذ الأزل.

واستمرت الرحلة لساعات أخرى كثيرة.

عندما نزلوا كان الوقت ليلا من جديد. متكدسون أحدهم بجوار الآخر وجدوا أنفسهم محبوسين في شقة صغيرة جدّا. بمجرد أن استيقظوا، عاد الصغار منهم للبكاء من جديد.

في ذلك المكان مكثوا حوالي شهر. مكث معهم رجل طويل ذو شارب يطلق على نفسه اسم دراجومير. كان ودودا في بعض الأحيان وأحيان أخرى لا، عندها كان يصرخ وتنتفخ عروق رقبته ويبدأ في كيل اللكمات والركلات. كان هذا يحدث، بصفة خاصة في ساعات الدروس. كانوا يتعلمون فتح الحقائب، أو نزع ساعات المعصم. كان يمسك هو بالحقيبة أو يرتدي الساعة، وكان الأطفال الآخرون يلتصقون به. وعلى التلميذ المختار أن يصل إلى الوسط بهدوء، ينزع منه الشيء بلمسة خفيفة، كأن شيئا لم يكن. كان من يخطئون هم الأصغر سنا، الأكثر خوفا. إذا شعر هو بالأصابع قبل أن تختفي المحفظة يستدير صارخا، ويمسك التلميذ من رقبته ولكي يستحث الأطفال الآخرين، كان يضربه حتى ينزف. بعد خمسة اختبارات حقائب ناجحة لا بد أن يترك التلاميذ الشقة. لا يتركونها بمفردهم، سائرين على الأقدام، ولكن مع رجل أنيق، كان يقود في صمت سيارة كبيرة، سوداء وفخمة. الأكثر مهارة بدؤوا يختفون بالفعل بعد أسبوع، أما الآخرون فقد بدؤوا يذهبون بالتدريج في الأسابيع الثلاثة التالية.

وهي أيضا صعدت في تلك السيارة، ومعها ذهب كلٌّ من ألينكا، ميراندا ولوجوسلاف. قطعوا طريقا طويلا، طريقا طويلا جدّا كانت السيارة تجري فوقه بسرعة كبيرة. توقفوا في مكان يشبه المطعم. كان الهواء ساخنا أكثر مما كان في المدينة حيث

الشـقة. جعلهـم الرجـل يترجلـون، واشـترى لهـم الحلـوى والآيـس كريـم والشـطائر. اشـترى كل مـا أرادوا كأنهـم أولاده، وأمـام الجرسـون ربـت عـلى رؤوسـهم.

كانـت المدينـة الجديـدة أكـبر أيضـا، بهـا منـازل مـن كل الأشـكال، وبضعـة فنـادق. قامـوا بـدورة عـلى المخيـمات، وكانـت هـي الأخـيرة في النـزول.

والآن مـضى عـلى عملهـا ثلاثـة أشـهر فـوق هـذا الكوبـري الـذي تسـكنه التماثيـل العملاقـة ذات الأجنحـة والشـعر الطويـل والمصنوعـة كلهـا مـن الحجـر الأبيـض. كانـت تسـير ذهابـا وإيابـا، ومعهـا علبـة كرتـون في يدهـا، وأحيانـا كثـيرة، منـذ أن بـدأت هنـاك، كانـت تسـمع الأمهـات يقلـن لأطفالهـن: «هـل رأيت؟ لا بـد أن تنتبه وإلا فسـيخطفك الغجـر».

وهكـذا لم تكُـن تفهـم شـيئا، ومـاذا عنهـا وهـي غجريـة بالفعـل، مـن الـذي أخذهـا بعيـدا، بعيـدا عـن منزلهـا؟

كان عمـر فيسـنا عـشر سـنوات، وكانـت مولـودة بشـفة أرنبيـة، وُلـدت في قبيلـة شـمال يوغوسـلافيا. كان لأمهـا وأبيهـا عـشرة أطفـال آخـرون. بهـذا الفـم لـن تتـزوج قـط. وقبـل الشـتاء تنـازلا عنهـا لتاجـر في مقابـل غطاءيـن كبيريـن للحمايـة مـن الثلـج.

لم تختلـف الأسرة الجديـدة كثـيرا عـن تلـك التـي تركتهـا، كان هنـاك أم وأب وإخـوة وأخـوات كثـيرون. كان الأب، ميركـو، يعمـل بالسـيارة، والأم، التـي كانـت تُدعـى زفيفـا، تتسـول في وسـط المدينـة مـع الأطفـال الأصغـر في السـن، ولكـن في المسـاء، أمـام النـار أو شاشـة التليفزيـون، لم يكُـن في إمكانهـا الجلـوس بجـوار أحـد، وهكـذا يُفهَـم أنهـا لم تكُـن ابنتهـم الحقيقيـة، وأنهـا لم تكُـن حتـى قريبـة مـن بعيـد لهـذه القبيلـة.

الشيء الوحيد الذي كان يهمهم منها، هو أن تعود في كل مساء وجيوبها ملأى.

كان ميركو هو من يستقبلها دائما. يستقبلها على باب الخيمة ويداه ممدودتان. إذا كانت النقود كافية كان يمنحها قصعة من الشوربة، فيما عدا ذلك كان يلقي بها هنا وهناك ويصرخ فيها: «هل تظنين أنك في فندق يا قذرة؟! هل نحن بالنسبة لك فندق؟ فندق كبير؟».

في بعض الأمسيات كان ميركو يخرج مع بعض الأصدقاء ويعود ثملا، عندئذ كانت هي تضغط على رأسها بيديها وكانت أسنانها تصطك بعنف شديد ولم تكُن تستطيع إيقافها. حتى أبوها الحقيقي كان يفعل الشيء نفسه، عندئذ كانت تهرب بسرعة، بأقصى سرعة قبل أن يلمسها، كانت تهرب تجاه النهر بقفزات تشبه قفزات الأرنب البري. وهناك على شاطئ النهر، كانت تختبئ بين الأحراش، وتنتظر حتى الفجر.

النهر! إن ذلك ما تفتقده أكثر من أي شيء. كان كل شيء جميلا بجواره! في الشتاء تتكون طبقة من الثلج وتتوقف المياه عن الجري. في الربيع يتكسر الثلج ويتخبط هنا وهناك بضوضاء شديدة. وهناك الطيور المائية التي كان يمكن شرب بيضها والأزواج المشاكسة للبط البري، وكان هناك أيضا التوت الشهي، وفي الصيف المياه المنعشة حيث يمكن السباحة، وحيث كانت نساء البلدة يذهبن لغسل الملابس والثرثرة كالراديو دون أن يصمتن قط.

حتى أسفل الكوبري حيث تعيش الآن كان هناك نهر، نهر كبير، بطيء وأصفر بعض الشيء، ولكن بالنظر إليه لا يوحي

بـأي شيء. ولكنهـا عندمـا تشـعر بالحـزن كانـت تغلـق عينيهـا، عندئـذ كانـت ضوضـاؤه تصبـح ضوضـاء كل الأنهـار ويصبـح كأن دمـاء أكـثر دفئـا تعـبر حـول قلبهـا، وتلفـه لتدفئـه مـن الداخـل. كانـت تقريبـا حزينـة كل يـوم، وهكـذا كانـت تلعـب تلـك اللعبـة كل يـوم.

كانـت تلعبهـا أيضـا في ذلـك الصبـاح، قبـل الصيـف بقليـل. كان الهـواء قـد أصبـح بالفعـل سـاخنا جـدّا، ولـكي تحمـي نفسـها وقفـت عـلى قدميهـا في ظـل أحـد الأركان. في تلـك السـاعة لم يكُـن يمـر أحـد. عندئـذ، بيديهـا تغطـي وجههـا، اسـتطاعت أن تفكـر بهـدوء في نهرهـا، وفي كل الزهـور التـي تنمـو بالقـرب مـن تلـك الميـاه، والضفـادع المختبئـة بداخلهـا.

لم تسـمع الخطـوات عـلى الحـصى. فجـأة قـال لهـا ذلـك الصـوت: هـل أنـتِ بخـير أيتهـا الصغـيرة؟

لم تكشـف عـن وجههـا. لا بـد أنـه بالقـرب منهـا يوجـد أب مـع ابنتـه. ولكـن امتـدت يـد لتمـس رأسـها، وهكـذا نظـرت فيسـنا. أمامهـا كان يوجـد رجـل شـعره رمـادي بعـض الـشيء، يرتـدي قميصـا أبيـض اللـون فضفاضـا. كـرر الرجـل سـؤاله، وهـي لم تجـب إيجابـا أو نفيـا، ولم تعـد حتـى تفكـر في النهـر، ولكـن بـذراع ممـدودة قفـزت إلى الأمـام وبـدأت تقـول وهـي تنغـم كلماتهـا: «الخـير الكثـير، والصحـة الكثـيرة لـك ولعائلتـك، أتمنـى لـك الـثراء يـا سـيدي...».

ابتسـم الرجـل، نظـر إليهـا كـما ينظـر الرجـال قبـل أن يتحـدى أحدهـما الآخـر في صراع المبـارزة بالسـكين، نظـرات مبـاشرة جـدّا كأنـه يرغـب في قـراءة مـا بداخلهـا، ودون أن ينـزع نظرتـه، أدخـل يـده في جيبـه، وأخـرج منهـا قطعتـي نقـود أو ثلاثـا، وبـدلا مـن أن يسـقطها مـن أعـلى، وضعهـا لهـا في راحـة يدهـا، ولمسـها وهـو يفعـل ذلـك.

كان الكوبري ما زال مهجورا. لم يقل الرجل أي شيء واتجه نحو الاتجاه المعاكس، وهو يمشي بخطوة بطيئة جدّا.

كان الإسفلت أسفل قدميها ساخنا. هل كان يرغب في أن تناديه؟ هل كان عليها أن تتبعه، وتطلب نقودا أخرى لأمها المريضة جدّا؟ وفي تلك الأثناء نقلت حركة الشمس الظل الموجود في الركن لمكان أبعد.

في ذلك المساء عادت بقليل من النقود. ضربها ميركو وذهبت لتنام دون أن تأكل أي شيء. منكمشة حول نفسها على الأرض وضعت كف إحدى يديها على خدها. لا، لم يكُن مجرد انطباع، كانت اليد التي لمسها الرجل أكثر دفئا، حتى بعد ساعات طويلة، استمرت في أن تكون دافئة.

في الأيام التالية لم يمر الرجل مرة أخرى، إلا أنها رأته. كان يقف على لافتة ضخمة بالقرب من المعسكر، وكانت هناك أشياء كثيرة مكتوبة بجواره، وبخلاف الحقيقة، كانت لديه شوارب ضخمة غامقة اللون، ومسدس مربوط فوق القميص الأبيض. بالقرب منه لم تكُن هناك غسالة ولا ثلاجة، ولم يكُن ممسكا بشيء في يده، وبدلا من شيء يبيعه بدا لها فيلما. ممثل، بالتأكيد، كان ممثلا؛ بهذين العينين لا يمكن أن يكون شيئا آخر.

هل كانت المرة الأولى التي يعبر فيها فوق الكوبري؟ أجل، بالتأكيد، لأنها لم تدرك وجوده من قبل. ربما هو أيضا غريب مثلها. ربما يعيش في فندق كبير به أشجار نخيل، أو يجلس على شاطئ أبيض، ناصع البياض، وراقصات الباليه، شبه العاريات، يرقصن حوله.

عندما سيرى شفتيها، بدلا من أن يضحك أو يبتعد سيلمسهما.

في إحـدى الأمسـيات اصطحبتهـا زفيفـا معهـا إلى وسـط البلـد. مرتـا أمـام فندقـين أو ثلاثـة وكانـت هـي تنظـر إلى الداخـل. نظـرت أيضـا بداخــل كل ســيارات الأجــرة، وبداخــل كل الســيارات ذات الزجــاج المعتـم.

بعـد عـشرة أيـام، كان جلـد يدهـا مـا زال دافئـا حيـث لمسـها. قبـل أن تنـام كانـت تضعهـا عـلى خدهـا، وتتركهـا هكـذا متظاهـرة بأنهـا شيء صغـير يحتـاج للحمايـة، هـرة صغـيرة أو دب صغـير مـن القـماش.

عـلى الكوبـري لم تعُـد تغلـق عينيهـا، والتـزم النهـر الصمـت. حتـى عندمـا تشـعر بالتعـب كانـت تتركهـما مفتوحتـين عـلى آخرهـما كأنهـا بومـة في منتصـف الليـل.

وفي نهايــة شــهر يونيــو، اجتاحــت المدينــة سلســلة مــن الأمطــار الغزيــرة، وكان السـياح يجـرون يغطيهـم البلاسـتيك الملـون، وأكيـاس عـلى رؤوسـهم.

كانــت الشــمس تشــبه تمامـا تلـك التـي رأتهـا مرسـومة في إحـدى كنائــس البلــدة، بنفســجية ورماديــة بصواعــق صفــراء مــن كل الاتجاهـات. في تلـك العواصـف، كانـت المخلوقـات الضخمـة والقويـة لا تستطيع عمل أي شيء.

بينـما كانـت الميـاه تسـقط مـن شـعرها عـلى رقبتهـا، أدركـت أن اليـد التـي لمسـها أصبحـت رطبـة وبـاردة، مثـل الأخـرى. كان أمامهـا سـاعات كثـيرة قبـل العـودة إلى المعسـكر، وكان أمامهـا الوقـت لتحـاول أن يعيــد إليهــا دفئهــا مــرة أخــرى. وعــلى طريــق الســينما تحولــت الأمطــار إلى حبــات مــن الثلــج، انقطعــت فــردة حذائهــا فوضعــت الاثنتــين في كيــس. كانــت الســينما هــي المــكان الصحيــح، فقــد كان يقـف هنـاك أمامهـا ممسـكا بمسـدس في يـده. وأمـام شـباك الدفـع

أخرجت من جيبها قبضتين من النقود المعدنية. أحصت السيدة الجالسة النقود واحدة تلو الأخرى، وأومأت برأسها ثم أعطتها تذكرة زرقاء. تقريبا لم يكُن هناك أحد بالداخل، جلست في الصف الأول، وقدماها ممتدتان أمامها. وهكذا كان الممثلون يتحدثون معها وحدها. كان هو ضابطا، يدعى «العادل». لم يكُن هذا اسمه الحقيقي، ولكن اسما مُنح له لأنه بارع. كان يطلق النار، ويضرب ويجري وليس له مثيل. عندما كانت السيارات تجري بأقصى سرعة وتخبط هنا وهناك كانت تشعر بالغثيان. ويبدو لها أن الرجل ذ القميص الأبيض سيُهزم ولكن في النهاية، انتصر على الجميع.

انتهى الفيلم وبدأ ثلاث مرات. عندما وصلت فيسنا إلى تقاطع الكوبري كانت السيارة التي تعيد الأطفال إلى المعسكر قد رحلت. لم تكُن تمطر ولكن الرياح شديدة. ماذا يجب أن تفعل؟ لم تكُن تعرف. وهكذا بدأت في السير ذهابا وإيابا في الشوارع المحيطة.

وبينما تنظر إلى واجهة أحد محالّ أحذية السيدات، سمعت خلفها ذلك الصرير المفاجئ، صوت سيارة. فُتح الباب، وقبل أن تفهم أي شيء، جذبتها يد إلى الداخل. كيف استطاع العثور عليها؟ كان ميركو. قال شيئا ما وهو يضغط على أسنانه، ولطمها على وجهها، على شفتي الأرنب. عندئذ تذكرت أن لديها أسنانا، وأنفا، ولثة، كانوا كلهم هناك، ثابتين كالخشب. شعرت بحرارة في فمها، ثم لم تتذكر أي شيء.

استيقظت على ضوضاء سلسلة، كانت لها، تربط كاحلها في عمود من الحديد، ومن الخيمة القريبة تصل أصوات زفيف ميركو وأطفالهما، كانوا يأكلون. استلقت بطريقة لا تؤلمها كثيرا. ماذا يهمها؟ لا شيء، ما أرادته قد تم، بعد الفيلم أصبحت يدها

مـن جديـد أكـثر دفئـا مـن الأخـرى. في تلـك الأيـام نامـت كثـيرا وحلمـت أيضـا. بأمـر مـن رئيـس البوليـس وصـل هـو إلى المخيـم ومـع بندقيـة آليـة في يـد وخنجـر في اليـد الأخـرى. لم ينجـح أحـد في أن يهـرب، حتـى ميركـو كان يبـكي ويتوسـل، ولكـن كانـت هنـاك طلقـة ثـم أعقبهـا الصمـت. فجـأة هاجمهـا ضـوء في وجههـا: كان هـو وأخذهـا في أحضانــه.

كان الضـوء قـد ظهـر بالفعـل، ولكنهـا كانـت زفيفـا، تنـزع عنهـا السلسـلة.

عـادت إلى العمـل في اليـوم نفسـه عـلى الكوبري نفسـه. كان الصيف قـد بـدأ، ويمـر عديـد مـن السـياح، يسـير بعضهـم بالقـرب مـن الآخـر كالماعـز في المراعـي، أو مثـل الوعـول التـي تتقـدم في تضامـن، وكانـت تقـترب منهـم جميعـا ممسـكة باللوحـات في يدهـا، وإذا لم يعطوهـا نقـودا كانـت تحـاول أن تسرقهـا.

في صبـاح أحـد الأيـام اسـتقر أحـد الزنـوج أمـام مكانهـا، يبيـع العقـود، وأفيـالا مـن البلاسـتيك. عندمـا كان يـأتي إليـه زبائـن، يطردهـا بعيـدا بنظرتـه، وعندمـا يكونـان بمفردهـما يقـترب ليتحـدث، كان يتحـدث بسرعـة جـدّا فلـم تكُـن تفهـم منـه شـيئا. في أحـد الأيـام احتضنهـا بقـوة ولكمتـه هـي في بطنـه، لكمـة صغـيرة. كانـت اللكـمات الموجـودة في رأسـها بعيـدة عـن تلـك التـي تعطيهـا بيدهـا. كان للكمـة صـوت «فلـوب»، وأخـذ يربـت عـلى بطنـه وهـو يضحـك. كانـت هـي تتمنـى لـو كانـت لكمـة أكـبر مـن هـذه بكثـير جـدّا.

مـن يـدري لمـاذا يتجـول السـياح في الليـل. لم يكُـن في الإمـكان رؤيـة أي شيء في الليـل، فقـط حيوانـات الغابـة يمكنهـا الرؤيـة في الظـلام، إلا أنهـم مـا زالـوا يتجولـون. كانـوا تقريبـا دائمـا مـن الشـباب. يمكثـون

معـا، وأحيانـا كثـيرة متعانقـين. ويغنـون الأغـاني بطريقـة سـيئة بأعـلى صـوت لديهـم. كانـوا يبـدون كالسـكارى، وأحيانـا كانـوا كذلـك بالفعـل. يتركـون خطوطـا طويلـة مـن روائـح الخمـر عـلى الجـسر. كانـت هـي تتبعهـم، وتسـألهم بعـض النقـود، فيتظاهـرون بأنهـم لا يرونهـا، أو كانوا يلتفتـون جميعـا تجاههـا، ويلقـون لهـا النقـود في الهـواء كأنهـم يلقـون قرعـة، ويضحكـون عندمـا تـسرع هـي وتنحنـي لتجمعهـا. كان النـاس يتمشـون معـا أمـام ميـاه النهـر، حتـى حلـول الظـلام، ثـم يسـيرون في مجموعـات أصغـر، وبـين مجموعـة وأخـرى كانـت هنـاك فسـحة مـن الوقـت. في إحـدى تلـك الوقفـات اقـترب منهـا الزنجـي مـرة أخـرى، وقـدم لهـا خاتمـا وقـال لهـا: أنـا وأنـت خطيبـان، وعـلى الفـور وضـع لسـانه في فمهـا. ضغطـت هـي بأسـنانَها وبقـي لسـانه في المنتصـف. وصلتهـا صفعـة قويـة حتـى إن رأسـها دار إلى الناحيـة الأخـرى، إلا أنـه لم ينجـح في أن يعطيهـا الآخـر. في صمـت، كأنـه لم يلمـس الأرض وصـل شـخص مـا أوقـف الزنجـي بـأن أمسـك ذراعـه بقـوة. كان قميصـه أبيـض واسـعا. عندمـا رفعـت بيدهـا شـعرها مـن فـوق وجههـا تحـرك قلبهـا كأنـه يقفـز، أخـذ يـضرب بسرعـة شـديدة، شـعرت بذلـك في حنجرتهـا قليـلا، وقليـلا أسـفل بعـض الـشيء في ركبتيهـا. كان هـو، هـو بنفسـه: العـادل!

بمجـرد أن ابتعـد الزنجـي، أصر هـو عـلى ألا تمكـث وحدهـا فـوق الجـسر، عندئـذ نظـرت هـي إلى السـماء، مـا زال هنـاك ضـوء، ومـا زال هنـاك وقـت طويـل قبـل أن تمـر السـيارة. في وداعـة وفي هـدوء تبعتـه حتـى وصلـت إلى بـار هنـاك بالقـرب مـن الجـسر. كان هنـاك عديـد مـن السـياح يجلسـون حـول موائـد صغـيرة خـارج البـار، جلسـت في وسـطهم، سـألها الرجـل إذا كانـت ترغـب في أن تـأكل أو تـشرب،

كانـت هـي ترغـب فقـط في أن تقـول لـه إنهـا تعـرف مـن يكـون حتـى دون الشـوارب، فلقـد رأتـه في فيلـم يقتـل الجميـع، كان هـو العـادل. طلـب لهـا آيـس كريـم كبـيرا بالقشـطة والبسـكويت، ثـم طلـب لنفسـه مشروبـا أصفـر. طـرح عليهـا كثـيرا مـن الأسـئلة، هـل لهـا أمّ؟ ومـاذا عن أبيهـا؟ أيـن وُلـدت، بعيـدا؟ هـل ذهبـت إلى المدرسـة مـن قبـل؟ تبـدو كالآنسـة، آنسـة جميلـة، ولكـن تُـرى كـم عمرهـا؟ هـل تفهـم الإيطاليـة أم تتحـدث فقـط لغـة الغجـر؟ أم هـل كانـت بـلا لسـان؟

وعندمـا قـال تلـك العبـارة دغدغهـا الرجـل في ذقنهـا. في تلـك اللحظـة كان الآيـس كريـم قـد وصـل. ظـل أمامهـا، كان يسـيح كالثلـج دون أن تكـون لديهـا الشـجاعة لأن تأكلـه.

عندئـذ قـال لهـا الرجـل ممسـكا بالملعقـة الممتلئـة بالقشـطة وهـو يلمـس شـفتيها: لـنرَ إذا كان لديـك بالفعـل لسـان. وهكـذا، بتلـك الطريقـة التـي كانـت تفعلهـا فقـط َأمّ طائـر الشـحرور بفرخهـا هنـاك في الأحـراش القريبـة مـن النهـر. هـل كانـت هـي فرخـا صغـيرا؟ فتحـت فمهـا. كان ذلـك الـشيء لزجـا وحلـوا، انزلـق بـلا أي مجهـود. قامـا عندمـا فرغـت الـكأس كلهـا. ودون أن تتفـوه بكلمـة أمسـكت بإصبعـه، وقادهـا مـن جديـد إلى الجـسر. انتظـرا قليـلا. كان القمـر مـن جديـد منخفضـا في الأفـق. لم تكُـن لديهـا الشـجاعة لأن تقـول لـه إن السـيارة قـد مـرت بالفعـل. لحسـن الحـظ، تكلـم هـو، قـال إنـه لا فائـدة مـن الانتظـار هنـا حتـى الفجـر. عـبرا الجـسر مـرة أخـرى.

في منزلـه كان يوجـد أثـاث ثقيـل وتليفزيـون كبـير جـدّا. أجلسـها عـلى الأريكـة، وأدار التليفزيـون، واختفـى في غرفـة أخـرى. بينـما كان هنـاك قـط عـلى الشاشـة، يطـارد فئرانـا، ويقـع مـن فـوق مبنـى مرتفـع دون أن يحـدث لـه أي شيء، عـاد هـو، كان يرتـدي شـيئا مثـل المعطـف

الخفيـف، ولا شيء أسـفله. قـال: «قبـل النـوم لا بـد مـن حـمام منعش»،
ورفعهـا مـن فـوق الأريكـة. كانـت رائحتـه مختلفـة عـن رائحـة ميركـو،
بـدلا مـن أن تخيفهـا كانـت تشـعر برغبـة في أن تلعقهـا.

بينـما كانـت تنـزع ملابسـها أراد أن يمكـث لينظـر إليهـا. كان جالسـ
عـلى مقعـدة المرحـاض ويـداه في جيبـي معطفه.

لم تكُـن فيسـنا قـد اغتسـلت في بانيـو مـن قبـل... مـاذا سـيحدث
لهـا إذا انفتـح غطـاؤه وهـي هنـاك بالداخـل؟ سـاعدها هـو، وبليفـة
طريـة أخـذ يدعـك لهـا ظهرهـا، وبطنهـا، ومـا بـين قدميهـا. غسـل لهـ
أيضـا شـعرها، حلّـه في المـاء مثـل الأعشـاب البحريـة، ثـم خرجـت مـن
البانيـو بـكل الميـاه التـي تجـري فـوق جسـمها فلفّهـا هـو بمنشـفة.
نشّـفها ببـطء، وهـو يضغـط عليهـا بيديـه.

في المنـزل كانـت هنـاك حجـرة لم ترهـا. كانـت فاتحـة اللـون بهـ
سريـر صغـير في وسـطها ولعـب كثـيرة حولـه. قادهـا العـادل إلى هنـاك،
بـلا ملابـس، وجعلهـا تسـتلقي أسـفل الأغطيـة، ثـم أخـذ كتابـا وبـدأ
يقـرأ لهـا قصـة، كانـت تتحـدث عـن جنـدي، غـير حقيقـي، بقـدم
واحـدة وقـع في حـب راقصـة باليـه، غـير حقيقيـة هـي أيضـا، مصنوعـة
مـن الـورق.

عندمـا وضـع الرجـل شـفتيه فـوق شـفتيها انتفضـت لأنهـا كانـت
تقريبـا قـد راحـت في النـوم. أحنـت جسـدها. هـل هكـذا انتهـت
القصـة؟

في أثنـاء الليـل ظهـر لهـا حلـم خلـف عينيهـا. كان فيـه هـرٌّ تلعقـه
أمـه وتنظفـه مـن أمـام ومـن خلـف وهـي ترتعـش كلهـا. كانـت
ترتعـش ليـس مثلـما كانـت ترتعـش مـن الـبرد فـوق الجـسر، ولكـن
كأن النهـر بدفئـه يمـر بداخلهـا.

في صباح اليوم التالي تركها العادل بعيدا قليلا عن الجسر. قبل أن تذهب دس لها ورقتين بألف ليرة في جيبها. لا بد أنها وصلت في الميعاد لأنه لم يكُن هناك سياح بعد، ولكن فقط الناس التي تسير بسرعة في طريقها للعمل. مر اليوم مثل كل الأيام الأخرى، ولكنه لم يكُن مثلها. عندما كان يبرز قميص أبيض بين القمصان الأخرى، كان قلبها يصل لحنجرتها أو إلى أسفل بين ركبتيها.

لم تسأله أي أسئلة، ولا هو قال لها سأعود أو انتظريني. إذا حدث هذا مرة يمكن أن يحدث أيضا مرة أخرى. كانت رائحته تشبه قليلا الرائحة التي استنشقتها هذا الصباح أمام المخبز.

في المساء عادت في الميعاد نفسه الذي تأتي فيه السيارة. على المقاعد الخلفية كان الأطفال الذين جُمعوا قبلها ينامون. عندما رآها السائق من جديد هناك لم يتلفظ بأي ملحوظة، قاد بسرعة في شوارع المدينة مثل كل ليلة. هل يمكن ألا يكون قد شعر أحدهم بغيابها في المعسكر؟

لا بد أن الأمر كذلك. بمجرد أن دخلت الخيمة لم يضربها ميركو. هجم الإخوة الصغار على قدميها وهم يصرخون.

إلا أن الأمر لم يكُن كذلك. عندما كان الجميع بالفعل مستلقين على فرشهم، اقترب ميركو من فرشتها، كان يتحدث بصوت منخفض، لم يفعل ذلك قط من قبل. كان سرواله مفتوحا وإحدى يديه بداخله. استلقى بجوارها، عض إحدى أذنيها ليؤلمها.

قال لها: أيتها العاهرة، أيتها العاهرة الصغيرة، إذا أخذت ما لدى الآخرين، فلتأخذي ما لي أيضا. وحاول اغتصابها مرارا، وفي كل مرة تتمنى أن يتركها ولكنها كانت مخطئة، لم يتركها قط.

ثم، عندما يئست من أمنيتها، انتهى كل شيء واستلقى هو

فوقهـا كالميـت. ثـم ومـا زال سرواله مفتوحـا بعـض الـشيء عـاد إلى فـراش زوجتـه.

في صبـاح اليـوم التـالي، عـادت فيسـنا مـن جديـد إلى الجـسر. كان ذلـك الألم يجعلهـا تسـير وهـي تضـم قدميهـا. في كل مـرة كانـت تجـري نحـو زبـون، كانـت تشـعر بـألم في داخلهـا، وربمـا لهـذا السـبب، أو بسـبب شرودهـا، كانـت تربـح أقـل مـن المعتـاد.

لكـن ميركـو الآن بـدلا مـن أن يضربهـا، كان يفضـل أن يفعـل ذلـك الـشيء الآخـر. تعلمـت هـي أن تتمنـى أن العـادل في مكانـه، كانـت تحـاول اسـتعادة رائحتـه، وتتخيـل بطنـه المسـطح المُشـعر. أحيانـا كانـت مـن تعبهـا الشـديد لا تقـوى عـلى التمنـي فكانـت تميـل برأسـها، وتبـدأ في عـد الأشـياء المتفرقـة عـلى الأرض.

عـبر كثـير مـن القمصـان البيضـاء ولكـن لم يعـبر ذلـك الـذي يخصها. مـن يـدري أيـن كان؟ ربمـا كان يحـارب في مهمـة خطيرة.

في ذلـك الوقـت عـثرت هـي لـه عـلى اسـم جديـد. قبـل ذلـك ببضعـة أيـام بالقـرب مـن الجـسر رفعـوا لافتـة جديـدة، عليهـا كانـت توجـد آنسـة ترتـدي سروالا وغطـاء لصدرهـا، كانـت تقـف عـلى طـرف قدميهـا وترفـع بالونـا عـلى شـكل قلـب. بالقـرب منهـا، بحـروف حمـراء مثـل الفـم كان مكتوبـا شيء مـا. طلبـت مـن طفـل أن يقـرأ لهـا هـذا الـشيء، قـال لهـا Love. لاف كان القلـب، إنـه ذلـك الـشيء الذي تشـعر بـه تجاهـه. لاف، لاف، أخـذت تـردد بينهـا وبـين نفسـها لأيـام، كأنهـا أغنيـة مكونـة مـن كلمـة واحـدة.

في إحـدى الليـالي حـدث مـا يـلي: أدرك ميركـو أنـه لا يحصـل منهـا سـوى عـلى جسـدها، واستشـاط غضبـا، أخـذ يلطمهـا هنـا وهنـاك، في ركـن المائـدة، عنـد أنبوبـة الغـاز، ثـم وضـع شـيئا في فمهـا فتقيـأت

أمامه، وعندما مكثت بمفردها تقيأت مرة أخرى. كانت ترغب في البكاء، أخذت تضغط على عينيها، كانت تضغط عليهما ولكن لم يُجد هذا في شيء.

فَي صباح اليوم التالي، على الجسر، قررت أن تقوم بسحر كانت تعرفه وهي طفلة: قالت لاف، أخذت تتفل في دائرة عدة مرات. السحر ينجح عندما نفعله قليلا وعندما يحركه القلب.

هل ينجح، بالطبع ينجح. قبل ساعة الغداء بقليل، ها هو ذو القميص الأبيض، كان يسير كأنه ليست له وجهة محددة. تجاوزها بهذه الطريقة، دون أن ينظر إليها. ربما تكون قد نسيت شيئا في وصفتها السحرية؟ عندئذ صرخت لاف. كانت تلك الكلمة كالسهم، كالسكين، أصابته في منتصف ظهره، التفت هو، وعاد إلى الخلف ويداه في جيبه.

في مطبخ منزله كان قد أعد وجبة صغيرة لهما سويا. لم تفتح هي فمها، كان هو من يتحدث معها. قال لها إنه أستاذ، وإنه يدرس تقنيات تطبيقية في مدرسة بعيدة.

من المؤكد أنه فيلم جديد، في فيلم هو ضابط، وفي فيلم آخر أستاذ. كان قد قرأ كتبا كثيرة، ويعرف أشياء لا حصر لها، إلا أنه كان قويا أيضا، أسفل القميص كانت ترى تلك العضلات المشدودة، مستعدة للهجوم.

لتأكل أراد أن يأخذها على ركبتيه، وأخذ يطعمها على مهل مثلما العصافير في العش، قال لها إنها رائعة الجمال، شعرت هي بالخوف، ماذا إذا عرف ما فعله بها ميركو؟ لا لن تتركه يفعل هذا.

عندما خرجت من البانيو، جعلها ترتدي قميص نوم. وعلى الرغم من أن الشمس كانت في منتصف السماء أخذها إلى الفراش.

كانت الغرفة هي تلك التي رأتها في المرة السابقة، حيث الفراش الفاتح، وكل اللعب المحيطة به. كانت ترغب في أن تسأله أن يكمل لها قصة العسكري الصغير ذي القدم الواحدة. كانت دائما تتساءل في ذلك الأسبوع كيف انتهت بالفعل، ولكنه قال لها: «احضني هذا ونامي»، وأعطاها بين يديها دبا من الفراء، ثم أغلق النور وخرج بلا ضوضاء.

حاولت فيسنا أن تطيعه ولم تنجح، أغمضت عينيها كأنها نائمة، ولكنها لم تكُن نائمة، استيقظت أيضا عندما عاد هو، عندما نزع عنها ببطء شديد قميص النوم، وكانت تتحدث مع نفسها، تقول: «لاف، لاف، حبيبي».

مكثت في منزله أربعة أيام. كانا يذهبان دائما للاستحمام سويا، يأكلان ويشاهدان التليفزيون. في اليوم التالي طرق أحدهم الباب. كانت خائفة أن يكون ميركو. ربما كان لاف يعرف ذلك لأنه لم يفتح، بل إنه أيضا لم يسأل: من الطارق؟ أحيانا كان يدق جرس التليفون ولكنه قبل أن يرد كان يدفع بها لغرفة أخرى، وفي أثناء دفعه لها كان يقول لها إن عليها أن تمكث في مكانها بلا صوت.

ثم، في صباح أحد الأيام، استيقظ مبكرا أكثر. جعلها ترتدي ملابسها القديمة، ومشيا بعض الشيء واصطحبها بالقرب من الجسر، ولم يلتفت حتى ليصافحها، ولم يعدها بأنه سيعود. ولكنها في تلك المرة كانت تعرف أنه سيعود. كانت واثقة. في الليلة الأخيرة، أخذ يهمس لها: «أريدك كلك يا صغيرتي، كلك، أريد ابنا لنا، سويا».

لاف.. هي أيضا تريده، كانت تريد هرا تمنحه اللبن إلى الأبد.

قضت اليوم كله على الجسر، كأنها لم تبتعد قط. عندما صعد القمر في السماء، ذهبت إلى حيث ميعاد السيارة. كانت تشعر

بالخـوف بعـض الـشيء ولا تشـعر بـه في الوقـت نفسـه. هـل سـيضربها لأنهـا مكثـت وقتـا طويـلا بعيـدة؟ بالتأكيـد سـينالها بعـض الضربـات، ولكنهـا كانـت سـتقول مـا حـدث لهـا. سرعـان مـا سـتتزوج وسـيكون لديهـا طفـل ثـم أطفـال كثـيرة، وكل شيء سـيكون عـلى مـا يـرام. ربمـا أيضـا سـيقيمون لهـا حفـلا كبـيرا.

تجـاوز القمـر منتصـف السـماء. لم تكُـن السـيارة هنـاك، ولم يكُـن هنـاك أيضـا أي طفـل آخـر ينتظـر معهـا. نـزل القمـر أكـثر إلى أسـفل، وكانـت هـي مـا زالـت هنـاك واقفـة. مـرت فقـط سيارة بوليـس، ثـم أبطـأت. اختبـأت هـي خلـف شـجرة كبـيرة، ثـم قضـت بعـض الوقـت تحـدق إلى جذعهـا. كانـت هنـاك نملتـان تـدوران في دوائـر، تحـركان قـرون استشـعارهما كأنهـما تتناجيـان بـلا صـوت.

هـل يمكـن أن يكونـوا قـد نسـوها؟ هـل تركـوا المدينـة؟ مـرات عديـدة سـمعت ميركـو يقـول إنهـم سـينتقلون إلى الشـمال حيـث النـاس أكـثر ثـراء. وربمـا يكـون مـا حـدث شيء آخـر: لاف، بعـد أن تركهـا ذهـب إلى المعسـكر ليطلبهـا للـزواج، وميركـو لم يوافـق وقـام هـو بخزانـة مسـدس واحـدة بقتلهـم جميعـا. والآن لا بـد أن يكـون قـد عـاد إلى المنـزل ليسـتريح، وعليهـا هـي أن تلحـق بـه.

مـن الجانـب المقابـل للقمـر عندمـا ظهـرت الشـمس، سـارت فيسـنا تجـاه شـقته. وصلـت إلى البوابـة حـين بـدأت الحافـلات الأولى لليـوم تمـر. رفعـت رأسـها، كانـت السـتائر مفتوحـة، وإحـدى النوافـذ مفتوحـة. ضربـت الجـرس كأن ذراعهـا معلقـة، لمسـة خفيفـة. انتظـرت عـلى بُعـد خطـوة مـن البـاب، لم يحـدث شيء. ضغطـت عليـه مـرة أخـرى بقـوة أكـبر. تركـت إصبعهـا فوقـه وعـدّت حتـى ثلاثـة. في ذلـك الوقـت بـدأ قلبهـا يجـري في كل مـكان، حتـى بـدأت تلهـث، وصـل إلى

حنجرتها ثم إلى لسانها، كان يجري كأنها هي تجري، إلا أنها كانت تقف في مكانها.

لم تكُن لديها الشجاعة لتضرب الجرس للمرة الثالثة.

فكرت، ربما يكون نوم لاف ثقيلا، ثقيلا إلى حد أن الأصوات لا تلمس أذنيه. وفي أثناء الانتظار أدركت أنها جائعة. ذهبت إلى فرن، وأنفقت كل ما لديها من نقود على فطائر حلوى وشطائر، وبمجرد أن انتهت من تناول الطعام قررت أن تنتظر بعض الشيء قبل أن تعود إلى البوابة. في ذلك الوقت كانت حرة، كان يمكنها أن تتجول مثل كل الآخرين، وأن تتوقف كما يحلو لها أمام نوافذ المحالّ.

في أثناء النظر إلى كل تلك الأشياء المعروضة راودتها تلك الفكرة، فكرة أن تعود للاف بهدية. قررت ماذا تكون بمجرد أن رأت صابونة صغيرة وردية اللون على شكل قلب، مرتبكة بين الأخريات، وكانت المشكلة هي أن تستطيع الحصول عليها. إذا كانت في أحد تلك المحالّ الكبيرة جدّا، فسيكون من السهل عليها أن تأخذها، إلا أنه كان محلا صغيرا جدّا، وكانت صاحبته تقف خلف المنضدة، ولذلك قبل أن تستطيع الحصول عليها، لا بد أن تكون معها النقود.

كان هناك كثير من الناس في الطرقات، الآن. كانت الحافلات تسير وهي محملة فوق ما تستطيع، وعجلاتها منخفضة. اختارت إحداها. كانت مكتظة حتى إنها استطاعت بالكاد أن تصعد.

أكواع، جيوب، أرداف وحقائب، بطون مرنة وممتلئة. كم من الوقت ستستمر الرحلة؟ لا بد أن تقرر بسرعة، وأن تنزل مختلطة بالجموع بينما ما زالت في وسط المدينة. كان هناك صبية مدارس، وسادة بسترات، وصينيون بأكياس من البلاستيك، وأخيرا حقيبة منتفخة، من الجلد الطري بالقرب من سيدة أنيقة.

عندما لمست أصابعها المحفظة رأت لاف أمامها وهي تقدم له لقلب.

كانت هناك صرخة. أحدهم أمسكها من شعرها، وآخر لطمها صفعتين، وشخص من نهاية الحافلة صرخ في السائق: «قف!». كان صوت السيدة يرتعش، قالت: «لو لم تكُن رأيتها سيادتك لما شعرت بأي شيء». قال الرجل: «عندما يلمح المرء أحد هؤلاء في الجوار عليه أن يفتح عينيه جيدا». في ذلك الوقت كان يمسك بعنق فيسنا كأنه يمسك بيد شمسية. وصلت الشرطة بكل الأضواء المضيئة، لم يكُن على رجال الشرطة الصعود لأنها هي من نزلت مدفوعة إلى أسفل بركلة.

أخذت السيارة البيضاء في زرقاء تجري بسرعة وتصدر ضوضاء كأنها أهم شخصية في العالم. أنزلوها إلى مبنى كبير، بداخل حجرة حيث كان يوجد عديد من الناس. كانوا جميعهم يجلسون على دكتين موضوعتين مقابل الحائط، وكانوا ينظرون إلى الأرض، أو لكيلا ينظروا كانوا يضعون أيديهم على وجوههم. نادوا عليها بعد وقت طويل. كانت قدماها باردتين وبطنها فارغا من جديد. ماذا إذا كان لاف، عندما يرى أنها لم تصل إلى المنزل ولا يجدها فوق الجسر، يفكر في أنها ذهبت إلى الأبد وأنه لا يعني لها أي شيء؟

عندما سألتها المرأة التي ترتدي الزي من خلف المكتب عن اسمها، فجأة ودون أن تعرف لماذا انفجرت في البكاء. خلفها صاح رجل: «إنهم ينتجونهم بالجملة متشابهين، بالدموع في جيوبهم!».

انحنت المرأة نحوها، مرة أخرى وبصوت رقيق سألتها: ما اسمك؟ كان الرجل في الشقة الأولى، ذلك الذي علمها الكثير من الأشياء قد قال لهم: «لا تقولوا قط لأحد اسمكم الحقيقي».

وأمام السؤال الثالث للمرأة رفعت فيسنا رأسها وبعينين مرطبتين همست: «لاف».

كم عمرها؟ كان عمرها مثل يدين بأصابع كلها مرفوعة.

بعد ذلك بقليل صعدت إلى حافلة مع فتيات أخريات. كانت هناك نافذتان صغيرتان جدّا بالشباك فوقهما، وهكذا كانت تُسمع الضوضاء في الخارج ولكن لا يمكن رؤية أي شيء. هبطوا في ساحة من الإسمنت كبيرة جدّا وبها شجرتان في الوسط. كان لا بد أن تنتظر في غرفة أخرى، ثم نادتها امرأة، صوروها، وأعطوها رقما ثم وزنوها وقاسوا طولها.

في إحدى المرات مع أبيها الحقيقي، كانوا قد أخذوا حصانه الوحيد إلى مكان مشابه لهذا، وزنوه وقاسوه، ثم جروه إلى مكان آخر خرج منه ممدا، وكانت النجمة البيضاء في منتصف جبهته قد أصبحت حمراء وتندفع منها الدماء بلا توقف كأنها منبع مياه وسط الصخور. هل سيحدث لها الشيء نفسه؟

تعبت السيدة التي أتت لتأخذها في أن تجعلها تتبعها. ذهبت إلى حجرة أخرى، كان هناك مقعدان ومائدة. أخذت السيدة تطلعها على صورة بقع واحدة تلو الأخرى، وكانت تسألها ما هذا الشيء، وما هذا الشيء الآخر؟ وإذا لم تكُن بقعة ماذا يمكن أن تكون؟ كانت بقعا. عندئذ، بالتحدث بصوت هادئ سألتها أسئلة عديدة. كم عمرها؟ أين أمها، وأين أبوها، وإخوتها؟ هل ذهبت إلى المدرسة؟ هل تعرف القراءة والكتابة؟ وهل تعرف لماذا هي هنا؟ ثم نهضت وقالت لها: «حسنا، عندما تقررين التحدث يكفي أن تطلبيني».

أعطتها ورقة وقلما، وبإصبع أشارت لها أين تضع التوقيع،

والتوقيع، كررت، هو اسمك. إذا كان الاسم هو لاف فماذا يمكن أن يكون التوقيع؟ قلب، بالتأكيد. أمسكت بالقلم مثل الملعقة، وببطء شديد، وبحرص على الأطراف، رسمت الشكل.

في الأيام التالية لم يحدث شيء.

كانت في غرفة مع فتيات أخريات. عندما كانت ساعة الأكل كانت تأكل، وعندما كانت ساعة الخروج كانت تذهب إلى الساحة. لو لم يكُن لاف موجودا، لما شعرت بأنها بخير بالفعل في ذلك المكان. لم يكُن أحد يضايقها، وكانت تأكل مرات عديدة في اليوم، وتنام كما تشاء، وعندما كانت تقبع في فراشها ولكي تشعر به بالقرب منها كانت تحكي لنفسها قصة العسكري الصغير ذي القدم الواحدة.

والقصة هي: كان قد وصل إلى ذلك المنزل الجميل بداخل صندوق مع عساكر كثيرة أخرى جميعهم بقدمين. هناك كانت تسكن أيضا راقصة باليه. كانت لراقصة الباليه أيضا قدمان ولكن نظرا لأن إحداهما كانت مرفوعة دائما إلى أعلى، كانت تبدو كأن لها قدما واحدة. وهكذا وقع في حبها، ولكنهما كانا بعيدين أحدهما عن الآخر ولم يكُن هو يستطيع التحدث. في يوم كان العسكري يقف على المائدة، هبت الرياح وطرحته أرضا. وضعه طفل على مركب ورقي، وجرى المركب مع المياه، وصل أمام سمكة، فأكلته. عندئذ انتهى أمر العسكري ذي القدم الواحدة في بطن السمكة كأنه ابنها.

القصة التي تعرفها تنتهي هنا، ولكن لا بد أن النهاية ليست هكذا تماما لأنها كانت قد رأت أن هناك عدة صفحات أخرى لم تُقرأ وبالتالي لا بد أن القصة تستمر ثم تنتهي بعد ذلك.

في أحـد تلـك الأيـام، عندمـا كانـت تجلـس هنـاك وتحـكي لنفسـها القصـة، أتـت امـرأة عـلى البـاب ونـادت بقـوة: «لاف». إذا دخلـت شـوكة في قـدم أحدنـا فسـنقفز هكـذا مثلـما قفـزت هـي عندمـا سـمعت ذلـك الاسـم. تبعـت المـرأة في الممـرات وهـي تسـير بجوارهـا أحيانـا عـلى قـدم وأحيانـا عـلى القـدم الأخـرى.

لا بـد أن لاف هنـاك، خلـف تلـك الأبـواب. هـل سـتقفز إلى عنقـه بمجـرد أن تـراه؟ أجـل، وهـو سيمسـكها بذراعيـه القويتـين ويرفعهـا إلى فـوق لفـترة، ثـم سـيخرجان مـن هنـا، وسـتكون هنـاك سـيارة في انتظارهـما في الخـارج. سـترحل بسرعـة وهـما بداخلهـا.

عندمـا وضعـت المـرأة أصابعهـا عـلى مقبـض البـاب، ثنـت هـي قليـلا ركبتيهـا متأهبـة للقفـز... فُتـح البـاب، ولكـن لم يكُـن لاف، كان هنـاك رجـل بقميـص أبيـض.

قال الرجل: ها هو ذا الحب!

رفعها ووضعها على فراش صغير وقال لها: انزعي عنك سروالك.

لم يكُـن مثـل ميركـو، ولكـن لم يكُـن حتـى مثـل العـاَدل. وبـدلا مـن أن يفعـل مـا كانـا يفعلانـه، وضـع شـيئا مـن الحديـد. وبـدلا مـن أن يقـول لهـا كلـمات ودودة أو سـيئة التـزم الصمـت. في النهايـة، حتـى وإن لم تتسـخ يـداه، أخـذ يغسـلهما أسـفل الميـاه، وفي أثنـاء غسـيله ليديـه أخـذ يقـول «ممـم، مـم» وعندمـا نزلـت مـن فـوق الفـراش بعـد أن وضعـت سروالهـا مـن جديـد قـال لهـا: «هـل تعرفـين؟ يوجـد طفـل بداخلـك».

هـل وضعـه هـو بالدخـل، هـل دفعـه بذلـك الحديـد اللامـع والبـارد؟ ولكـن لا يمكـن هـذا، لقـد نظـرت إليـه جيـدا قبـل أن يضعـه بداخلهـا، كان شـيئا يشـبه الملعقـة، شـيئا كالأنبـوب والملعقـة، وعـلى

القمـة وفي الوسـط لم يكُـن هنـاك أي شيء. إذن هـو لاف، لاف هـو مـن وضعـه دون أن تـدرك في تلـك الليلـة الأخـيرة، فقـد كان يقـول: أحبـك، وأريـد طفـلا يكـون لنـا، وهـا هـو الطفـل قـد أتى. لقـد اسـتقر هنـاك بالداخـل كأنـه في منـزل صغـير.

لهـذا في الأيـام الأخـيرة لم تكُـن تشـعر قـط بالجـوع. كانت تـأكل كل مـا ترغـب فيـه دون أن تكـون لديهـا الرغبـة في شيء، ربمـا في أن تتقيـأ فقـط. أجـل، كانـت ترغـب في أن تتقيـأ مثـل ذلـك اليـوم الـذي دفعهـا فيـه ميركـو لذلـك. في ذلـك الوقـت كان هـو ينمـو بالداخـل، كان ينمـو بالفعـل منـذ أيـام عديـدة. أحيانـا كانـوا يكـسرون البيـض ليأكلـوه، ولكـن لم يكُـن في الإمـكان أكلـه لأن الصفـار لم يكُـن فيـه ولكـن نـوع مـن الرغـوة، كان بعضهـا أحيانـا أقـوى مـن الأخـرى.

في أحـد الأيـام نظـرت جيـدا، كان يوجـد شيء كأنـه عينـان، وجـزء طـري ومُغلـق ويبـدو كأنـه المنقـار. أي إذا كان قـد ظـل في الداخـل مـن المؤكـد أنـه كان سـيصير كتكوتـا.

بـدلا مـن بطنهـا أصبحـت لديهـا الآن بيضـة، وتلـك البيضـة سـتكبر، وسـتكبر حتـى سـيدرك الجميـع أن هنـاك شـيئا مـا بالداخـل. كان ينمـو وينمـو. إذا كانـوا في فبرايـر يرفعـون أجمـة الأرض الضخمـة وأسـفلها العشـب، فـلا بـد أنـه كالعشـب الضخـم ولكنـه مـا زال هنـاك أسـفلها.

كان يكـبر، أخـذت تفكـر، اسـتلقت عـلى الفـراش ويداهـا عـلى بطنهـا.

في صبـاح اليـوم التـالي، لم تكُـن هنـاك ولكنهـا كانـت تجلـس في قطار مـع سـيدة تمسـكها في يدهـا. قالـوا لهـا إنهـا صغـيرة جـدّا لتمكـث في هـذا المـكان وأخذوهـا إلى المحطـة. لم تكُـن قـد صعـدت قـط مـن قبـل فـوق قطـار. كان جميـلا، يجلـس فيـه المـرء في جـزء يتقـدم فيـه العـالم

إلى الأمـام، ويمكـن الجلـوس مـن جهـة أخـرى ليعـود إلى الخلـف. كان أيضـا أكـثر جـمالا لأنهـا تعـرف أن كل تلـك الحركـة كانـت لتذهـب إلى لاف. لم يقـل لهـا أحـد هـذا ولكنهـا كانـت تعرفـه.

هنـاك أشـياء تُعـرف هكـذا، مثلـما تعـرف العصافـير متـى يحـين موعـد الشـتاء. كانـت السـيدة لطيفـة وكانـت مـن حـين إلى آخـر تسـألها: «هـل ترغبـين في تنـاول أي شيء؟ هـل ترغبـين في الذهـاب إلى المرحـاض؟».

ولكنهـا لم تكُـن ترغـب في شيء، كانـت فقـط تريـد الوصـول بسرعـة، بسرعة شـديدة.

ثـم نامـت. وبينـما كان رأسـها يرتطـم هنـا وهنـاك حلمـت، وبـدلا مـن وجههـا كانـت تحمـل وجـه أحـد طيـوف الجـسر. كان الوجـه حجريـا، وكان يتسـاقط مـن كل الجهـات ولم تسـتطع فعـل أي شيء. عندمـا حاولـت أن تثبتـه، سـمعت صـوت أمهـا الحقيقيـة. كانـت تـصرخ اسـمها بقـوة في المراعـي المحيطـة، غاضبـة، ولكنهـا لم تُجـب عليهـا بـأي شيء. كانـت تجلـس في وسـط الأعشـاب وتوجـد بيضـة بـين قدميهـا. انفتحـت البيضـة وبـدلا مـن أن يخـرج منهـا كتكـوت خـرج طيـفٌ؛ طيـفٌ مثـل ذلـك الموجـود عـلى الجـسر، ولكـن خفيـف جـدًا، خفيـف إلى حـد أنـه أخذهـا مـن يدهـا وصحبهـا معـه إلى السـماء. كيـف كانـت السـماء؟ لم تسـتطع أن تعـرف لأنهـا فجـأة وجـدت نفسـها في منـزل لاف. كانـت وحدهـا في الشـقة وكانـت تعـرف أنـه عـلى وشـك الوصـول. كانـت سـعيدة جـدًا إلى حـد أنهـا كانـت تتحـرك إلى الأمـام وإلى الخلـف مثلـما يتحـرك الـكلاب عندمـا يشـعرون بالسـعادة. كانـت تسـمع خطواتـه هنـاك عـلى السـلم. كانـت تقـف هنـاك عندمـا فُتـح البـاب وبـدلا مـن لاف وجـدت أباهـا. أمسـكها مـن ذراعهـا، وأخـذ

يلويهـا إلى الخلـف حتـى سـقطت، وعندمـا سـقطت ارتطـم رأسـها بقـوة عـلى الأرض.

فجأة استيقظت. أين كانت؟ تذكرت، كانت في القطار.

في الخـارج لم يعـد العـالم يذهـب إلى أي مـكان. كان ظلامـا ولم يكُـن في الإمـكان رؤيـة أي شيء. إلا أنهـا الآن، فجـأة، أدركـت إلى أيـن هـي ذاهبـة. لا بـد أنهـا ذاهبـة لوالديهـا الحقيقيـين، لـدى إخوتهـا الصغـار هنـاك، بالقـرب مـن النهـر.

أمسـكت السـيدة مـن ذراعهـا وصرخـت «أريـد التبـول». مكثـت في المرحـاض فـترة. كانـت السـيدة تقـف في الخـارج وتقـرع البـاب كل حين وآخـر. عندمـا أبطـأ القطـار مـن حركتـه شـفطت بطنهـا بداخلهـا عـلى قـدر اسـتطاعتها، وحاولـت أن تكـون مثـل تلـك الحيوانـات المسـطحة واللزجـة التـي تعيـش في الميـاه وتمتـص الدمـاء، وهكـذا انزلقـت بـين النوافـذ وبمجـرد أن أبطـأ القطـار حركتـه تركـت نفسـها لتسـقط. كان هنـاك عشـب، ونظـرا لأنـه الخريـف، كان العشـب قـد كـف عـن النمو.

اسـتغرقها الأمـر أربعـة أيـام كاملـة لتعـود إلى مدينـة لاف. كانـت تصعـد وتهبـط في سـيارات وشـاحنات. بعـض السـائقين، ليوصلهـا، كان يطلـب منهـا شـيئا في المقابـل، وكانـت تمنحـه مـا كانـت تمنحـه لميركـو دون أن تفكـر في شيء. عندمـا وصلـت إلى الضاحيـة كان ذلـك في منتصـف الليـل، وبـدلا مـن أن تذهـب إليـه مبـاشرة، اندسـت في إحـدى البوابـات المفتوحـة. اختبـأت بـين القبـو وانحـدار السـلم. لم تنـم عـلى الإطـلاق. كانـت الليلـة الأخـيرة، الليلـة الأخـيرة التـي لـن تنـام فيهـا عـلى الفـراش. هـل يمكـن لأجنحـة الغيـوم أن تنـزل وتصبـح في الأقـدام، وتبقـى هنـاك خفيـة في مـكان الحـذاء؟ في صبـاح اليـوم التـالي، لا بـد أن هـذا مـا سـيحدث، سـتطير إليـه، وبـدلا مـن أن تصعـد السـلالم سـتصل

مباشرة إلى شقة لاف. في تلك الساعة لا بد أنه سيكون في فراشه، ينام كالطفل. ستراقبه قليلا ثم ستبدأ بالطرق في هدوء بأصابعها على النافذة، عندئذ سيستيقظ هو، ويفتح النافذة. بقفزة صغيرة منها ستدخل وستريه بطنها، البيضة التي تنمو بداخلها. منذ تلك اللحظة سيعيشان معا في سعادة وهناء.

في الفجر بالحافلة وصلت إلى النهر، ومن هناك أكملت سيرا على الأقدام. كان حذاؤها هو نفسه ولم يبرز منه جناحان، وهكذا بدلا من أن تطير، كانت مجبرة على أن تنظر من أسفل إلى أعلى. كانت هناك نافذتان مُضاءتان، وإحداهما كانت مفتوحة. عندما دقت الجرس، صعد الصوت، عن طريق سري، إلى الشقة، وعاد إلى أسفل إلى أذنيها من النافذة المفتوحة. في تلك اللحظة، سقط قلبها في ركبتيها ولم تكُن تعلم كيف تناديه من أسفل. دقت الجرس مرة أخرى، تذبذب قلبها في حنجرتها ولم يحدث شيء. أو الأفضل أن نقول، شيء ما حدث ولكن لم تكُن تعرف إذا كان حقيقيا أم لا. خلف الستارة، بسرعة شديدة، لمحت جسما ما. جسما كان يبدو أنه لامرأة.

هل ذهب لاف في الوقت الذي ابتعدت هي فيه ليسكن في مكان آخر، في منزل أكبر؟ لتعرف ذلك، لا يمكنها سوى أن تفعل شيئا واحدا، أن تسأل ذلك لمن يسكن مكانه الآن. ومن البوابة خرج شخصان. عندما خرج الثالث، طفل سمين بعض الشيء، تسللت هي إلى الدخل. صعدت السلالم درجتين درجتين وهي تجري، وتوقفت بالقرب من الباب لتلتقط أنفاسها. وعلى بسطة الدرج أدركت شيئا لم تدركه قط من قبل، حتى وإن كانت لا تتحرك، لم تكُن ثابتة، شيء ما يتحرك في بطنها. هل كان هو بالفعل؟ هل

يرغب في أن يخرج بهذه السرعة؟ ولكن إذا رآه بالفعل في الخارج سيعتقد لاف أنه لآخر. لا بد أن ينتظر قليلا. وضعت إحدى يديها فوق بطنها وبصوت منخفض قالت هذا له. قالت له: «لا تتعجل، فما زال أمامنا وقت طويل لنقضيه معا، أنا وأنت وأيضا أبوك».

ثم رفعت نفسها على طرفي قدميها ودقت الجرس. وهنا كان صوت الجرس أقوى بكثير، كان يمكن سماع كل شيء خلف الباب. وفي الواقع سمعت، سمعت صوت طفل يقول: «من يا ترى سيأتي في هذه الساعة؟» وصوت امرأة تجيب: «ربما بريد عاجل»، وأقدامها تتجه نحو الباب. أعادت شعرها الذي كان يتدلى إلى الأمام خلف كتفيها ووقفت مستقيمة. ولكن لم تصل المرأة أمامها قط. من آخر الشقة، سمعت صوت رجل: «لا تفتحي!» صرخ ذلك الصوت، «في هذه الساعة لن يكن هناك سوى الغجر!».

لاف.

للحظة فكرت: ليس حقيقيا. يبدو هو ولكنه ليس هو. حتى إذا أرادت أن تذهب بعيدا لم تكُن تستطيع؛ كانت قدماها قد أصبحتا من الخشب، الخشب ذي الجذور الذي تتمدد إليه من رجليها، لجسدها كله. كان قلبها ما زال هناك، الآن كان قد أصبح هو أيضا من الخشب، حجرة توقفت عن النبض. هكذا سمعته يتحدث مرة أخرى.

«لننته من هذه الحكاية» قال صوت طفل، وصوت الرجل: «لقد تأخَرت الآن، سأنهيها لك هذا المساء قبل أن تنام». إنه ذلك الصوت في الفيلم، تماما الصوت نفسه. صوت لاف.

الأحجار أيضا حتى إن صعدت إلى الهواء فإنها بعد قليل تسقط أرضا. نزلت من السلالم دون أن تدري. ذهبت أبعد من

الـدور الأرضي، وصلـت إلى القبـو. ولـو لم يكُـن هنـاك حائـط لكانـت اسـتمرت في النـزول. أمـام الحائـط ثنـت وسـطها وركبتيهـا وتركـت نفسـها لتسـقط جالسـة.

لم تكُـن تشـعر لا بالجـوع ولا بالنعـاس، لم تكُـن لديهـا رغبـة في أي شيء. لم تكُـن تـدري تقريبـا أيـن هـي. في بطنهـا أخـذ شيء مـا يتحـرك. هـل كانـت تلـك الرغـوة؟ بالتأكيـد هـو، لا بـد أنـه يريـد أن يخـرج إلى الخـارج، أن يـرى النـور. ولكـن هنـا كان ظـلام، ولا يمكـن رؤيـة أي شيء، وكانـت هنـاك رائحـة سيئة نفـاذة. ربمـا إذا حكـت لـه حكايـة يعدهـا بـأن يهـدأ، وألا يضايقهـا؟ كانـت تعـرف قصـة واحـدة، القصـة نفسـها: عـن اثنـين وقعـا في الحـب، لأن كلا منهـما لـه قـدم واحـدة. كان هـو واقعـا في حبهـا أكـثر، بـل لم تكُـن هـي تحبـه عـلى الإطـلاق حيـث إنهـا كانـت بعيـدة ولم تكُـن تسـتطيع رؤيتـه، ثـم، يومـا مـا حدثـت مأسـاة، سـقط مـن النافـذة وابتلعتـه سـمكة. في الداخـل كل شيء مظلـم ولا أحـد يفهـم شـيئا. عندئـذ فكّـر هـو، بالفعـل في مـرة مـن المـرات عندمـا كنـت مجـرد بصقـة كنـت في بطـن مـا. في أحـد الأيـام اصطـاد صيـاد السـمكة، وأكلهـا شـخص مـا كاملـة. لا أحـد يعـرف أيـن انتهـى الأمـر بالعسـكري، ولكـن لم يكُـن أحـد يحبـه، ولذلـك لم يهتـم أحـد كثـيرا بالأمـر. في الوقـت نفسـه، وقعـت راقصـة الباليـه في حب عسـكري آخـر. كان لـه ثـلاث أرجـل، وتزوجـا وعاشـا في سـعادة إلى الأبـد لأنـه أهداهـا قدمـا.

مـن يـدري مـا القصـص التـي تعجـب الأطفـال قبـل أن يولـدوا؟ لم تعجـب هـذه القصـة طفلهـا بالتأكيـد. لم تعجبـه ولا حتـى قليـلا لأنـه خـرج في الظـلام، شـعرت بـه يتمـرغ بـين قدميهـا في داخـل شيء سـاخن، لا بـد أن يكـون دمـاء.

طفولة

التحقيق الأول

تخيل هذا، على سبيل المثال؛ هناك سيارتان تتحركان في الساعة نفسها من جهتين متقابلتين. إحدى تلك السيارتين كان عليها أن تنطلق قبل ذلك الميعاد، ولكن صاحبها في اللحظة الأخيرة تأخر نصف ساعة بسبب مكالمة تليفونية. لو لم يكُن قد ذهب ليجيب عنها، فهل كان سيرحل في الوقت المضبوط؟ لكن لا، ذهب ليرد وتأخر، عندئذ خرج الاثنان في الساعة نفسها. بينما هما في طريق السفر، وبينما يسيران انقلبت شاحنة ضخمة على الطريق. رُفعت من الطريق على الفور ولكن تركوا مكانها بقعة زيت. تماما في هذه اللحظة إحدى تلك السيارتين تسير بأقصى سرعة لديها. هل على هذا الطريق يوجد الزيت؟ أجل على طريق تلك السيارة. السيارة الأخرى تسير ببطء، يفكر في زوجته التي لم تكُن بصحة جيدة منذ فترة، يرغب في أن يأخذها لطبيب عندما - فجأة - يدرك أن هناك سيارة من الطريق المعاكس تسير نحوه. تصدمه تلك السيارة. لا يفكر في شيء آخر لأنه يموت في الحال. لو كان قد ترك التليفون ليرن بدلا من أن يرد عليه لما حدث له شيء. ربما يموت شخص آخر في مكانه، وربما لا يموت أحد، ربما ذلك الذي

كان لا بـد أن يمـوت لا يـزال جالسـا في منزلـه يرتـدي نعلـه ويجلـس أمـام التلفـاز، يجلـس هنـاك ويـرى ذلـك الحـادث المرعـب. هـل هـو الطريـق الـذي كان سـيعبره هـو؟ أجـل إنـه الطريـق نفسـه. السـاعة أيضـا هـي نفسـها. يـا للحـظ السـعيد، تقـول زوجتـه وهـي تمـرر يدهـا بـين شـعره. حـظ. هـل تفهـم. حـظ. عـلى كل حـال، لنسـتكمل. هنـاك أطفـال يقولـون بالفعـل في سـن سـت سـنوات: أرغـب في أن أصبـح طبيبـا، ويصبحـون بالفعـل أطبـاء. آخـرون يريـدون أن يصبحـوا مهندسـين، حرفيـين، ميكانيكيـي سـيارات، ثـم يصبحـون ذلـك بالفعـل. في المدرسـة كان لي صديـق، منـذ أن كان عمـره خمـس سـنوات يفـك كل الأدوات الكهربائيـة في المنـزل ويعيـد تركيبهـا بشـكل هائـل. كان يرغـب في أن يكـون فيزيائيـا، كان ذلـك يجـري في دمـه، هـل تفهـم؟ في الدمـاء، أو في مـكان آخـر، إلا أنـه في مـكان مـا مكتـوب: جوفـاني سـيفعل ذلـك، وجوفـاني يفعلـه لأنـه لا يمكنـه فعـل شيء آخـر. وهكـذا أنـا. طفـل محظـوظ. في اليـوم نفسـه الـذي تعلمـت فيـه أن أطـرح أسـئلة عرفـت أيضـا مـا هـو واجبـي. لم أولـد لأعالـج النـاس أو لأبنـي الماكينـات، وُلـدت لـكي أضـع النظـام لمـا حـولي. جئـت إلى العـالم في فصـل الخريـف، تعـرف اليـوم والشـهر، قرأتـه في الأوراق. أقـول هـذا أيضـا لأنـه مهـم. إن علامـة خريطـة الـبروج تشـير إلى الصـبر الدقيـق والإصرار، ذلـك الميـل الشـديد للنظـام. إن روح الفصـول تحـوي الآتي: كل شيء يمـوت، يتجمـع في أسـفل، يختلـط متحلـلا، ليولـد مـن جديـد في وقـت لاحـق. إن فحـص الـذات، والتحليـل، الدقـة والذاكـرة الاسـتثنائية، صفـات جميعهـا تنتمـي لمـن وُلـد في تلـك الفـترة، وهكـذا أنـا. لا أتذكـر متـى، ولكننـي أعتقـد أن ذلـك قـد حـدث عـلى الفـور، مـن اللحظـة التـي فيهـا تعلمـت اسـتخدام لسـاني، بـدأت في طـرح الأسـئلة. كنـت

أخـرج مـع أمـي وأسـألها مـا هـذا ومـا ذلـك؟ وكانـت هـي تجيبنـي هـذا حجـر وذلـك طائـر.

كان حقيقيا وغير حقيقـي، لأن حجـرا كان في كل مـرة مختلفـا عـن الآخـر، ولأن طائـرا كان صغـيرا وبنيّـا أو كبـيرا وأسـود بمنقـار أصفـر. لا بـد إذن مـن وضـع بعـض النظـام، ولعمـل ذلـك لا بـد مـن معرفـة الأسـماء. عندئـذ كنـت أسـأل مـرة أخـرى: مـا هـذا، ومـا ذلـك؟ وكانـت هـي تجيبنـي: لا تكـن مملا، لقـد قلـتُ لـك للتـو، ثـم تسـحبني إلى الأمـام مـن ذراعـي. في تلـك الفـترة كانـت أمـي تعمـل ممرضـة. عندمـا أذهـب إليهـا في المستشـفى كانـت زميلاتهـا تقرصننـي في وجنتـي. كـن يقلـن: «هـل أنـت سـعيد؟ لـك أطيـب أم في العـالم!». كانـت طيبـة بالفعـل، ولكنهـا فقـط لم تكُـن صبـورة. عـلى مائـدة الطعـام، لم أكُـن أفكـر سـوى في ذلـك، الأسـماء، وكنـت آكل ببـطء، بينـما هـي كانـت تتعجـل، وهكـذا لتطعمنـي كانـت تسـد لي أنفـي، عندمـا لم أكُـن أقـوى عـلى التنفـس كنـت أفتـح فمـي، وتقـوم هـي عـلى الفـور بوضـع الشـوكة في حنجـرتي. تشـاجرنا كثـيرا حـول اللحـم؛ لا أحبـه، ولا أحـب تناولـه حتـى الآن.. كان الـدم دائمـا مصـدر رعـب لي.

التحقيق الثاني

هـي في هـذا العمـل مـن بعـد ولادتي بقليـل. كان عملهـا ولكنـه كان شـغفها أيضـا. في أعيـاد الميـلاد كانـت تتلقـى عـشرات وعـشرات مـن كـروت التهنئـة. كانـت تضـع كل قلبهـا مـع مرضاهـا، ولكـن في المنـزل كانـت دائمـا متعَبـة، وهكـذا سرعـان مـا أدركـت أنـه مـن الأفضـل ألا أزعجهـا بأسـئلتي، كنـت أسـألها لنفـسي وأجيـب عـلى نفـسي، ثـم، لحسـن الحـظ، بـدأت أذهـب إلى المدرسـة. في المدرسـة تعلمـت القراءة،

فقط عندئذ اتخذ نظامي شكلا حقيقيا. كنت أجلس والكتب على ركبتي، أقرأ بصوت مرتفع لساعات. كنت أقرأ ببطء، وأنا أربط كل كلمة واحدة وراء الأخرى. كانت توجد صورة وبجوارها اسم، وهكذا تعلمت أن ذلك العصفور ذو البطن الأحمر هو الروبن، وذلك الحجر اللامع هو الكوارتز. في كل مرة كنت أشعر بالسعادة. في كل الفوضى المحيطة بنا شيء ما يتخذ مكانه الصحيح. إذا لم أفعل أنا هذا فلن يفعله شخص آخر. كان لا بد لي أن أفعله.

كانت هوايتي الأولى الصخور. هي أسهل الأشياء التي يمكن تصنيفها. كانت تقبع هناك في ثبات، يكفي أن تنحني لتجمعها. في سن سبعة أعوام كان لدي بالفعل أكثر من مئة. لم أقل هذا لأمي؛ كنت خائفا بعض الشيء، وكنت أرغب من ناحية أخرى في مفاجأتها. في أحد الأيام سأصبح عالما كبيرا، عالما عظيما جدّا، وستعرف هي هذا من الصحف، في صباح أحد الأيام ستفتح الجريدة وسترى صورة ابنها. في البداية، ربما، تفكر في أنه خطأ ما، ثم بعد ذلك، بعد أن تقرأ النص، ستفهم أن الأمر حقيقي، وأن ابنها بالفعل قد أصبح أحد أعظم العلماء في العالم، عندئذ ستغفر لي كل شيء. ستأخذني بين أحضانها مثلما كانت تفعل مع مرضاها عندما يتماثلون للشفاء.

في تلك الفترة كنا كثيرا ما ننام سويا. لم تكُن هي من يدعوني، كنت أنا أذهب لفراشها عندما تنام. كانت الملاءات عادة باردة وكانت هي تنكمش بكل جسدها في أحد الجوانب. وتبدو كأحد متسلقي الألب على حافة أحد الأودية. وأنا أيضا كنت أحب أن أتظاهر بأنني سأسقط، وهكذا كنت أتعلق خلفها، على ظهرها، وهكذا نسقط معا حتى الصباح. كنت أعود إلى فراشي قبل أن تظهر الشمس بقليل.

تغضب من شيء واحد بشدة: هو أنني لا أنظر إليها أبدا في عينيها. في الواقع كانت عيناي دائما مثبتتين في الأرض. ربما السبب هواية الصخور. لا أعرف، ولكنني لم أكُن أنظر قط في عينَي المدرّسة، لا هي ولا المدرّسة ولا أي شخص آخر. كانت هي تقول: «انظر إليّ!» ويصبح لوني أحمر. كانت تقول «انظر إليّ!» مرة ثانية، فتنثني رقبتي في زاوية حادة على جسمي. عندئذ كانت تمسك بذقني وتجذبها للخلف. وكنت أنا أغمض عيني. أغمضهما وهي تفتحهما بإصبعيها، كانت ترفع جفنَيّ كأنهما ستارتان. تنظر إليّ مباشرة وتصرخ: «انظر إليّ! انظر إليّ!». كانت تقول إن من لا ينظر في العينين شخص جبان، أو يخفي شيئا سيئا. لم أكُن أستطيع أن أقول لها عن الصخور، لا بد أن تصبح مفاجأة عندما أكبر. وهكذا كنت أتحمل دائما كثيرا من الضرب.

في الفترة نفسها التي بدأ يصل إلى منزلنا كثير من الأعمام، بدأت عادة، قبل النوم، بأن أردد أسماء كل أحجاري. لم أكُن أرددها وأنا أنظر إليها، ولكن وبينما عيناي مغمضتان أسفل الغطاء كنت أثق إذا استطعت أن أرددها كلها بطريقة صحيحة، فلن يحدث شيء. كان الأعمام هم أصدقاء لأمي. يأتون بعد العشاء. كانوا كثيرين، مختلفين، وكانوا يتحدثون قليلا معي. لا بد أنهم كانوا يؤلمونها، كنت متأكدا. مرات عديدة، حتى مع غلق كل الأبواب، كنت أسمع أنينها. لهذا لم يكُن في الإمكان أن أخطئ في ترديد أسماء الصخور، لأنها ستموت إذا أخطأت. لا، ليس لديّ أدنى شك أنها ما زالت على قيد الحياة بفضلي. النظام، والتحليل الشخصي والذاكرة الاستثنائية، أرأيت؟ بالفعل، في تلك المرة كنت أمتلك إلى أقصى درجة كل مواهب العالم العظيم.

التحقيق الثالث

في المدرسـة لم أكُـن عـلى مـا يـرام عـلى الإطـلاق. لم يكُـن يعجبنـي الأطفـال الآخـرون. كانـوا يصنعـون ضوضـاء، يصرخـون بقـوة بـلا أي سـبب. الآن أعتقــد أنــه كان سـيعجبني أن أكـون مثلهـم: أن أصرخ وأن أتسـخ، أن أكـون غـير مطيـع وأعاقَـب عـلى هـذا. ولكـن في تلـك المـرة كنـت مندمجـا في أشـياء مختلفـة. بينـما كانـت المدرّسـة تـشرح عمليـات القسـمة كنـت أنـا أفكـر كيـف يمكـن أن تكـون في العـالم كل تلـك الأشـكال؟ لمـاذا ليـس هنـاك طائـر واحـد بـل عديـد منهـا؟ لمـاذا لا يوجـد الفـأر فقـط ولكـن السـنجاب أيضـا، السـنجاب والقنـدس؟ بطبيعـة الحـال، لم أكُـن أعـرف شـيئا عـن نظريـة التطـور بعـد، وكل تاريـخ الطفـرات الانتقائيـة، عـن أن تـأكل وتـؤكل، وأن يعـثروا عـلى مخبـأ مناسـب والاختبـاء هنـاك في ثبـات حتـى حلـول النظـام الجديـد. منـذ خمسـة عـشر عامـا لم يكُـن مـن المعتـاد أن تُقـال تلـك الأشـياء للأطفـال.

الآن في سـن سـت سـنوات يعرفـون كل شيء. يعرفـون الديناصـورات وسـبب اختفائهـا. يعرفـون كيـف يـأتي الأطفـال إلى العـالم، وبـأي طريقة سـينتهي الكوكـب. ولكـن في زمنـي لم يكُـن الحـال هكـذا، لم يكُـن أحـد يعـرف أي شيء.

هكـذا أخـذت أفكـر في الأشـياء، في الأسـماء، ولم تـسر الأمـور عـلى مـا يـرام في المدرسـة. مـرة في العـام كانـت المعلمـة تسـتدعي أمـي وتقـول لهـا: هـذا الطفـل متبلـد، عديـم الحـس ولا يهتـم بـشيء. في البيـت لم تكُـن تـصرخ فيّ، لا، ولكنهـا كانـت تقـول لي: لمـاذا لا تذهـب إلى السـاحة لتلعـب مـع الأطفـال الآخريـن؟ وتدفعنـي للخـارج. بعـض المـرات كانـت تنظـر إليّ ودون أن تقـول شـيئا تتنهـد بقـوة. ثـم بعـد

ذلك كان يكون لديها عمل في المستشفى، وكان الأعمام يذهبون لزيارتها وعادة ما كانت تنسى أمري. كانت تقول: هذا يعني أنه عندما ستكبر ستعمل بائعا، وكنت أنا أومئ موافقا. كنت أقول، أجل، حسنا سأبيع أقمشة أو لحوما مُصنعة حتى وإن كنت واثقا من أنني سأكون عالما عظيما.

في حقيقة الأمر كنت أعرف حق المعرفة كيف أجيب عن أسئلة المعلمة، كانت هي تسأل مَن منكم يعرف لماذا هذا الشيء أو ذلك الآخر؟ وكنت أنا قبل أن تنتهي من السؤال أعرف الإجابة. كنت أعرفها بداخلي ولكنني ألتزم الصمت. كنت أفكر أنه من المستحيل أن تكون هذه هي الإجابة، لا بد أنه فخ ما، فهي سهلة جدّا، في العالم لا يوجد شيء بهذه البساطة، وهكذا كنت ألتزم الصمت. ثم كان يقولها شخص آخر، ويكون هو بالفعل ما فكرت فيه، عندئذ أجلس مستقيما على الأريكة، وأنظر حولي في دهشة، هل بالفعل كانت الإجابة بهذه البساطة؟ وفي الواقع بعد أقل من دقيقة، كنت أعرف أن تلك كانت فقط واحدة من الإجابات الممكنة، وكان هناك ألف إجابة أخرى حقيقية. كان كل شيء على هذا المنوال، حقيقيا بعض الشيء، وبعض الشيء لا. المهم هو معرفته، ومن خلال معرفته، يوضع النظام.

بطبيعة الحال كانت مادتي الدراسية المفضلة هي الحساب. لم يكُن هذا يعني أنني متفوق فيها، ولكنها كانت تعجبني فحسب. إذا كانت حنفية حوض تنتج أربعة لترات في الدقيقة، والحوض يمكن أن يحتوي ستين لترا، فكم من الوقت نحتاج لنملأه حتى الحافة؟ كانت كل الأحواض تُملأ في الوقت الصحيح إلا حوضي. في حوضي كان يقع جزء من السقف ومع السقف كانت تسقط

السيدة التي تسكن في الدور العلوي، عندئذ بدلا من أن تخرج كانت المياه تفيض، وبالإضافة للفيضان كان هناك أيضا ميت، السيدة التي تسكن في الدور العلوي.

هل ترى؟ كنت موهوبا بالفعل. لو كان أحدهم قد أدرك ذلك لكانت الأمور قد سارت بطريقة مختلفة. هل تتذكر السيارة التي حدثتك عنها في اليوم السابق؟ هكذا تسير الأمور. إنها مسألة انتقالات تحدث في توقيت معين أو لا تحدث.

التحقيق الرابع

أريد التحدث مرة أخرى عن المدرسة. في المنزل كنت أمكث بمفردي تقريبا كل الوقت. كنت أفكر، وفي أثناء تفكيري كنت أراني على حق بينما هناك، في الفصل، كنت أرى ما يخص الآخرين ومن الآخرين تظهر التناقضات.

من المؤكد أنه كان عليهم تعليم المعلمات بطريقة أفضل. بالإضافة إلى التاريخ والجغرافيا، كان عليهم أيضا تعليمهم الرقة. لا أعرف إذا كان يمكن تعليم شيء كهذا أم أن هذا شيء ينبع من الداخل، على كل حال لم تكُن معلمتي تعرف شيئا عن هذا. كانت تصرخ دائما، وعندما لم تكُن تصرخ كانت تشعر بالتعب.

في أحد الأيام، وفي الساعة المخصصة للغة الإيطالية أعطتنا واجبا. موضوع إنشاء بعنوان: أبي. كم كنت أبلغ من العمر وقتها؟ حوالي ثمانية أعوام، ليس أكثر من ثمانية أعوام.

على كل حال أنا لم أعرف أبي قط شخصيا، وهكذا بمجرد أن سمعت العنوان، اقتربت من مكتبها، وقلت بصوت منخفض: سيدتي المعلمة، لن أستطيع أن أعمل هذا الواجب. عندئذ قامت

فجـأة وأخـذت تصيـح: سـتعمله! سـتعمله! كـما سـيعمله الآخـرون!

الآن كانـت المشـكلة هـي هـذه، أنـا لم أره قـط شـخصيا، ولكننـي كنـت أعـرف مـاذا كان يفعـل وكنـت أعـرف أيضـا أننـي لا يمكننـي أن أتحـدث عـن عملـه حيـث كان سريـا. تمامـا، سريـا؛ فقـد كان عميـلا سريـا. في الحقيقـة، لم يقـل لي هـذا أحـد، كنـت أنـا مـن اسـتنتج ذلـك. كنـت قـد اسـتنتجت ذلـك وسـألت أمـي وهـي لم تجبنـي بنعـم أو لا. هكـذا عرفـت أن هـذه هـي الحقيقـة، وأنـه كان بالفعـل عميـلا سريـا ولهـذا لا يـأتي قـط إلى المنـزل.

عندئـذ أخـذت الورقـة وكتبـت: أنـا لا أعـرف أبي، لأنـه يقـوم بمهنـة تسـتلزم ألا يـراه أحـد، إلا أننـي أعـرف أنـه طويـل وقـوي ويجيـد اسـتخدام السـلاح. يـداه ضخمتـان وقويتـان، وأظفـاره قصـيرة جـدّا. هـو بطـل مـن أبطـال الكاراتيـه ويمكنـه بلكمـة واحـدة أن يقتـل ثـورا. لا أعـرف قـط أيـن هـو ومـاذا يفعـل، ولكـن أسـتطيع فقـط أن أقـول إن عملـه يتطلـب أن يدافـع عـن البـلاد الجيـدة ضـد تلـك الشريـرة. يومـا مـا عندمـا ينتهـي مـن مهمتـه سـيأتي ليأخـذني مـن المدرسـة، ربمـا سـيأتي ببدلتـه الفخمـة، بشرائطـه الحمـراء وكل شيء آخـر، عندئـذ سـيرى الجميـع مـن هـو أبي، ولكـن في ذلـك الوقـت لا بـد ألا يعـرف أحـد هـذا لأنـه عميـل سري، ويخاطـر بحياتـه في كل يـوم. ثـم كتبـت: مـن الأفضـل حـرق هـذا الواجـب بعـد قراءتـه.

وضعـت هـذا السـطر لأننـي كنـت أثـق في المعلمـة، وإلا لمـا كنـت كتبـت أيـا مـن هـذه الأشـياء. ولكـن مـا الـذي فعلتـه هـي في اليـوم التـالي؟ تدخـل إلى الفصـل وكل الواجبـات في يدهـا، تجلـس وتقـول: الكـذب لا أقـدام لـه. وتبـدأ في قـراءة موضوعـي بصـوت مرتفـع. لم أكُن أدري أيـن أنظـر والآخـرون جميعهـم يضحكـون. ثـم تعطيـه لي مـرة

أخرى وتقول بصوت مرتفع: سيكون من الأفضل لك أن تستذكر دروسك بدلا من أن تخترع كذبات. وهكذا منذ ذلك اليوم، بدأ الجميع يسخرون مني. عندما نخرج يتدافعون بقوة ويصرخون: هل هذا أبوك؟ أم ذلك الآخر، آه لا، ها هو ذا، انظر، إنه هناك بالقرب من الشجرة! إنه عميل سري إلى درجة أن لا أحد يراه!

كانوا جميعهم يذهبون إلى المنزل مع أمهاتهم أو آبائهم. لم أفهم قط لماذا. من السخف أن يأتي أحد من أجل تلك المسافة القصيرة بين المنزل والمدرسة. ألا ترى أن كثيرا من الوالدين قلقون جدّا؟ على كل حال لم يكُن أحد يأتي ليأخذني من المدرسة. أمي لم يكُن في استطاعتها هذا لأنها كانت تعمل، وانتظرت أبي دائما، ولكنه لم يأت قط.

في العام التَالي استمر رفاقي في السخرية مني. إن الأطفال أغبياء بعض الشيء، أليس كذلك؟ عندما يسليهم شيء ما، يكررونه حتى الملل. ولكن في ذلك الوقت، في فترة الصيف، حدث شيء ما. لقد كبرت كثيرا، وتطورت كصبي. لقد أصبحت أكثر قوة، أكثر قوة من كل رفاقي الآخرين، لهذا كنت أصبر قليلا لفترة، ثم في يوم ما حدث هذا الشيء. لم يأت أحد ليأخذ الولد المتفوق في الفصل. كان طفلا هزيلا، ذا شعر أشَقر وخفيف مثل ذلك الذي للفتيات. عادة تأتي أمه، تنتظره في الخارج بجوار الباب، وهي ترتدي الفراء وتبتسم. لم يكُن يعرف ماذا يفعل، عندئذ قلت له لا تقلق سأصحبك أنا. أخذته تحت ذراعي كأنني أكبر منه. اجتهدت بعض الشيء لأقنعه بالدخول في الحدائق. كان تقريبا وقت الغروب، ولم يكُن يرغب في ذلك. قبل أن أتأكد أنه لا يوجد أي شخص في الجوار، أمسكت رقبته بيدي كأنها كماشة، حتى لم يعد يقوى على التنفس بسبب

دموعه. وفي ذلك الوقت أخذت أصيح فيه: ماذا يفعل أبوك؟ ماذا يفعل هه؟ ثم هرب جريا، وأنا أصرخ خلفه: إذا قلت لأحد ما حدث فسأدمرك.

إلا أنه فعل ذلك، وقال لهم كل شيء بمجرد أن وصل إلى المنزل. تصل والداه بأمي. ردت هي، ثم وضعت سماعة التليفون في غضب، وأخذت تضربني بحذاءيها، ثم بعصا المقشة. كانت تبدو وقد جُنت، وكانت تصرخ: إنك مثل أبيك، ابن عاهرة، نعم أنت كذلك، ابن عاهرة.

عرفت قصتهما بعد ذلك. أجل، قالتها لي، كالعادة، في لحظة غضب وهي تصرخ. في ذلك اليوم كان أبي مخمورا، وكانت هي متألقة بعض الشيء. كانت هناك حفلة نهاية الدورة الدراسية للممرضات. كان هو رئيس أطباء متزوجا بالفعل، له زوجة وطفلان صغيران. كانت أمي مترددة في رغبتها. تعرف بالطبع كيف تسير الأمور عندما يثقل المرء في الشرب؟ يرتكبون أشياء دون أن يفكروا كثيرا. لم يكُن الأمر بهذه السهولة وقتها. كانت أمي شابة جدّا، لم تكُن لديها نقود، ولم تكُن تعرف لمن تلجأ. في يوم كانت تقول نعم، وفي يوم تقول لا، كانت تتمنى أن يعترف بي، أو أن يعطيها دخلا ما.

عندما أجابها هو أنها كانت سهلة جدّا معه، ومن المؤكد أنها سهلة جدّا مع كل الآخرين، وأن هذا الطفل بالتأكيد ليس طفله، كان الوقت متأخرا جدّا. كنت بالفعل قد كبرت هناك بداخلها، ولم يكُن في الإمكان التخلص مني.

التحقيق الخامس

بعد حادثة الحديقة تلك أصبحت علاقتنا باردة بعض الشيء. عندما تكون في المنزل كانت تتحرك في الحجرات كأنني لست موجودا. كنت موجودا، ولكنها كانت تتظاهر بعدم وجودي. إذا أعدت الغداء أو العشاء، كانت تتركه هناك على المائدة. كنت آكل تقريبا كل الوقت بمفردي. من حين إلى آخر كانت تغضب ثانية. كانت تغضب، ليس بالضرورة مني، ولكن لأشياء تخصها. عندئذ كانت تصرخ: «ولكنني سأخفيك! أجل، سأرسلك إلى مدرسة داخلية! هناك سيعرفون كيف يقوّمونك»، وكانت تستمر في الصراخ لفترة، ولكنني لم أكُن حتى ألتفت لما تقوله. كنت أعرف أن لا صبر لديها، وأنها تنفس عن غضبها بهذه الطريقة ثم تهدأ بعد ذلك.

كنت أمتلك الآن أكثر من ثلاثمئة من الأحجار؛ مجموعة حقيقية. في تلك الفترة بالذات كنت قد أخذت من مكتبة المدرسة كتاب جيولوجيا. كان مكتوبا به كل شيء: متى نشأت الأرض، متى تجمعت الصخور معا، وكان مكتوبا أيضا لماذا تظل ملتصقة ببعضها. وبمساعدة ذلك الكتاب بدأت أكتب عن كل حجر بطاقة طويلة تفصيلية. كان لدي عديد من الأوراق من كل الألوان، على الواحدة كتبت، هذا معدن البيريت، يوجد هنا وهناك، وفي الداخل حتى وإن لم يكُن ظاهرا هو مصنوع بهذه الطريقة، ويُستخدم في هذا وذاك، وقد ضممته إلى مجموعتي في اليوم الفلاني والشهر الفلاني، وهكذا.

بتلك الطريقة كان الوقت يمر بسرعة ولم أكُن حتى أشعر بما كان يحدث حولي. لم أنتبه إلى أحد الأعمام الذي كان يأتي إلى المنزل أكثر كثيرا من الآخرين، ولم أدرك أيضا أن أمي أصبحت تصرخ أقل كثيرا من المعتاد.

ثـم في صبـاح أحـد أيـام الآحـاد، حـدث مـا يـلي: أتى العـم إلى المنـزل بسـيارته الرياضيـة أخـذني وخرجـت معـه. في الطريق قال لي إنـه طبيب، وإنـه تعـرف عـلى أمـي في أثنـاء مـروره عـلى عنابـر المـرضى. فكـرت، لا بـأس. لا، تلـك المـرة لم أكُـن أعـرف بعـد أن أبي كان طبيبـا. وهكـذا، وفي أثنـاء حديثنـا في مختلـف الأشـياء، وصلنـا إلى أحـد الشـواطئ. كان شـتاء، أتذكـر ذلـك جيـدا. لم يكُـن أحـد هنـاك، وبـين الصخـور كانـت توجـد معلبـات وعبـوات بلاسـتيكية فارغـة. شـعرت ببعـض القلـق، أجـل. وصلنـا حتـى نزلنـا بأقدامنـا في الميـاه، وانحنـى هـو، أخـذ حجـرا مـن الأرض وطوحـه إلى الأمـام. كأن الحجـر حـيّ، عـاد ليقفـز ثـلاث مـرات عـلى السـطح وفي الرابعـة اختفـى بالداخـل. نظـرت إليـه ولم أقـل شـيئا. أمـا هـو فقـد أخـذ حجـرا ووضعـه في يـدي وقـال لي جـرب أنـت أيضـا. لم أكُـن أرغـب في أن أجـرب. أمسـكت بـه في يـدي، أخـذت ألفـه وألفـه دون أن أفعـل بـه شـيئا. عندئـذ بـدأ هـو في مضايقتـي. وقـال: «لا تريـد أن تلقـي بـه لأنـك لسـت قـادرا عـلى ذلـك، تخـاف مـن أن تخـسر، تخـاف مـن أن تـسيء لمنظـرك». أخـذت أسـتمع إليـه بعـض الوقـت وأنـا أتظاهـر باللا مبـالاة، ولكـن بعـد قليـل اكتفيـت. فلنتخيـل إذا كنـت لا أسـتطيع أن ألقـي بحجـر، ورفعـت ذراعـي.. وتمامـا وأنـا في قمـة تركيـزي ومشـدود، ومسـتعد لإلقـاء الحجـر، مـاذ يحـدث؟ يمـد يـده ويربـت عـلى رأسي ويقـول: «أنـا أحـب أمـك، وهـي تحبنـي. قريبـا سـنتزوج، وسـنذهب لنعيـش نحـن الثلاثـة معـا».

قـال هـذا وألقيـت أنـا بالحجـر، ولكـن نظـرا لأننـي شردت فمـع أول صدمـة لـه غـرق، نـزل مبـاشرة إلى أسـفل كالرصـاص.

ثـم ذهبنـا سـويا لتنـاول الغـداء في المنـزل. كانـت أمـي قـد أعـدت الدجـاج بالبطاطـس، وأحـضر هـو الحلـوى. صـار كل شيء عـلى

ما يرام حتى التورتة، كانا يضحكان ويمزحان وكنت أنا صامتا. ثم عندما وضعت لي قطعة تورتة في صحني، لا أعرف لماذا صرخت: «لن آكلها!» أصرت هي: «لطالما أحببت الحلويات»، وبينما هي تقول هذا أنا أصرخ وأردد: «لن آكلها، تقرفني»! في النهاية وصلتني صفعة، ثم جرتني إلى حجرتي، وهناك بصوت منخفض، دون أن يسمع هو، همست لي في إحدى أذني: «لن أسمح لك أن تدمر لي هذا أيضا، هل فهمت؟ لن أسمح لك، بل سأقتلك بيديّ هاتين».

في تلك الليلة نفسها استيقظت فجأة. قفزت وأنا أجلس على الفراش، وفجأة فعلت شيئا لم أفعله قط من قبل؛ شيئا لا يصدق، أليس كذلك؟ أخذت أبكي.

لم آكل شيئا لمدة يومين كاملين. كنت ما زلت أجلس هناك أبكي. عندئذ اقتربت مني أمي وبرقّة، وضعت يدها بين شعري، وفي أثناء ذلك سألتني: «لماذا تبكي كثيرا؟ هل بسبب ما قلته لك ذلك اليوم؟ أنت كبير ما يكفي الآن لتعرف أنني كنت فقط عصبية، لماذا تستمر في البكاء؟».

قلت: «لا أعرف، ليس هذا السبب، لا أعرف لماذا أبكي». ثم دفنت وجهي في الوسادة. عندئذ قالت لي: «حسنا، عندما تقرر أن تتوقف، الغداء جاهز».

في الواقع كنت أعرف جيدا لماذا أبكي، ولكنني لم أستطع أن أقوله.

أسفل القشرة القاسية للأرض يوجد قلب من النار والماء. كل شيء يكمن هناك محبوسا، مضغوطا، ولكن إذا انكسر شيء ما، بسبب زلزال مثلا، فسيصعد ذلك القلب المائي، سيصعد وسيصعد حتى يصل إلى داخل الصنابير، وفي أحد الأيام سيخرج بدلا من

المياه ويقتل الجميع. سيقتل أمي أيضا، إنها دائما تفتح الغسالة دون أن تنظر ماذا يوجد في الداخل.

كنت لهذا أبكي، فقط لهذا السبب.

التحقيق السادس

عن ذلك الشيء، عن الزواج، لم أسمع أي شيء لفترة طويلة. كان العم يمكث أحيانا ليلة لدينا، أو كان يأتي ليصحب أمي ويذهبا إلى السينما أو للعشاء لدى أحد معارفه. بالنسبة إليّ لا يهمني إن كان لطيفا أم لا. لا شيء. كان فقط يبدو لي كقطعة أثاث، كان هناك، وأنا أحاول أن أتجنبه. أعتقد أنه هو أيضا كان يعتبرني طاولة، أو خزانة، أو شيئا آخر من هذا القبيل. كانت أمي هي الفراش وأنا الطاولة. كان لا بد أن يأخذني معه مُجبرا.

على كل حال، بعد بضعة شهور حل الصيف. انتهت الدراسة وقالت أمي إنها تراني متعبا، فأرسلتني لفترة إلى الريف لدى أختها. كان جميلا هناك. كنت أذهب كل يوم بين الحقول ولم يكُن أحد يضايقني. كنت أجمع الصخور طوال الوقت. وبالمكوث منذ الصباح إلى المساء تحت السماء، بالتدريج بدأت أهتم أيضا بالطيور.

كان لديّ كشكول أبيض، آخذه دائما معي في كل مكان، وفي كل مرة كنت أرى حيوانا لا أعرف اسمه كنت أكتب أين وجدته وكيف هو. عندما عدت إلى المدينة كنت سعيدا. بالإضافة إلى معرفة أكثر من ثلاثمئة حجر، أعرف الآن حوالي عشرين من الطيور. فُتح أمامي مجال دراسي آخر يمكنني فيه أن أتفوق.

جاءت أمي لتأخذني من المحطة. كانت هناك سيارة جديدة

تنتظرنـا عـلى الرصيـف المقابـل. صعدنـا سـويا، وبينـما هـي تقـود السـيارة في الطـرق الضيقـة، كنـت أنـا أُخـرج كشـكولي الصغـير الأبيـض. أمسـكت بـه في يـدي عندمـا أدركـت أننـا نسـير في الطريـق الخطـأ. عندئـذ قلـت لهـا. قلـت: «ولكـن إلى أيـن أنـت ذاهبـة؟» وهـي دون أن تنظـر في عينـي غـيرت سرعـة السـيارة وقالـت: «لقـد تزوجنـا أنـا والعـم، وسـنعيش كلنـا معـا في منزلـه الجديـد».

هكـذا انزلـق كشـكولي إلى جيبـي، وأخـذت أنظـر إلى خـارج النافـذة وأنـا أفكـر، ومـا الـذي سـيحدث عنـد عـودة أبي؟

أفكـر هكـذا، لأننـي حتـى في المحـالّ الضخمـة جـدّا، لم أرَ قـط أسرة ذات ثلاثـة أماكـن. في ذلـك الوقـت وصلنـا إلى المنـزل الجديـد. كان المنـزل عبـارة عـن فيلـلا بحديقـة وبوابـة كبـيرة. فُتحـت البوابـة دون أن نلمسـها، ودخلنـا.

المنـزل مكـون مـن طابقـين، وبـين طابـق وآخـر يوجـد سـلم أبيـض كبـير. كان هـو يقـف هنـاك في أعـلى، وذراعـاه معقودتـان عـلى صـدره، وهـو ينظـر إلينـا ونحـن نصعـد. أتذكـر جيـدا كيـف كنـت أرى ابتسـامته، كنـت أراهـا مـن أسـفل مـن درجـة إلى أخـرى، وكلـما اقتربـت لأراهـا أكـثر أعجبنـي أقـل. عـلى كل حـال، وصلنـا في النهايـة إلى الارتفـاع نفسـه، وهـو دون أن أتوقـع، أخـذني بالأحضـان. وبينـما أنـا هنـاك، لا أعـرف أيـن أضـع عينَـيّ، ولا حتـى يـدَيّ، قـال هـو: «هـل يعجبـك المنـزل الجديـد؟» ثـم: «الآن إذا أردت يمكنـك أن تقـول لي يـا بابـا». أجبـت أنـا «لا» بصـوت منخفـض، منخفـض إلى حـد أن أحـدا لم يسـمعني، أو ربمـا تظاهـرا بأنهـما لم يسـمعا.

كانـت تقريبـا سـاعة الغـداء. أخذتنـي أمـي إلى الحجـرة الجديـدة. كانـت كبـيرة جـدّا حتـى إنننـي فكـرت لمـاذا لم أحـضر عجـل التزحلـق؟

أمكث هناك، على كل حال، وأبدأ في تنظيم ملابسي في الخزانة. على المائدة يبتسمان هما كما في الأفلام، ثم بعد قليل يقولان: «بمناسبة زواجنا قررنا أن نهديك شيئا. ماذا تتمنى أكثر من أي شيء؟ دراجة؟ كرة من الجلد؟» أخذت أفكر وأفكر ثم قلت: «أريد قفصا كبيرا وزوجا من العصافير».

قالت أمي: «آه، لا! سيتسخ كل شيء، وسيتسببان في الضوضاء! لست في حاجة إلى هذا». أما هو فقال: «لا يا ريتا. الوعد وعد! يريد عصافير؟ ونحن سنبتاعها له».

وهكذا في تلك الظهيرة خرجنا كلنا معا، ووصلنا إلى المحل المتخصص. كنت أنا سعيدا جدّا. دخلت وأنا أفكر في غرابين، ولكن في النهاية اتفقنا على عصفورين كناريا لونهما أخضر زيتوني. من باعهما لنا قال إنهما زوج وزوجة، وهكذا مكثت أنا طوال الوقت أمام القفص. كنت أقف هكذا وأنتظر، كنت أريد أن أراهما يتحابان.

لقد قلت لسيادتك، أليس كذلك؟ حتى تلك اللحظة لم أكُن أهتم سوى بالصخور. إذ لم أكُن أعلم سوى القليل عن تلك الأشياء، ولو لم أكُن قد اشتريت هذين الطائرين لربما لم يكُن قد حدث شيء. من يدري؟ إنه دائما السؤال نفسه، ذلك الخاص بالسيارتين.

على كل حال، هما أهدياهما لي، وأنا بدأت أراقبهما. بدأت أقضي الساعات أمامهما وأنا أكتب. في الساعة الحادية عشرة والنصف يقفز هو على القصبة اليمنى، تنظر إليه هي من أسفل وتظل ساكنة. في الساعة الحادية عشرة وثلاث وثلاثين تطير هي إلى اليسار وتنظر إلى أسفل، وهكذا يستمر الوضع بهذه الطريقة.

كنت قد شاهدت الأفلام في التليفزيون، إن من يتحابان يقبّل

أحدهـما الآخـر، بالتأكيـد، ولكـن هـما لا، كانـا يذهبـان إلى أعـلى ثـم إلى أسـفل، يـأكلان ويشربـان، ويسـببان الاتسـاخ ببرازهـما الأصفـر، يغـردان ولا يحـدث شيء سـوى هـذا.

ثـم في أحـد الأيـام، وبينـما نجلـس حـول مائـدة الطعـام، حـدث أن سـمعت ضوضـاء غريبـة مـن القفـص الـذي كان في المطبـخ، عندئـذ حركـت المقعـد ونهضـت. ذهبـت لأرى تلـك الضوضـاء وإذا مـا كانـا يتحابـان أم لا. في الواقـع كان الأمـر كذلـك، كانـا يقفـان أحدهـما بالقـرب مـن الآخـر ويتبـارزان بمنقاريهـما كالسـيوف. عندئـذ عـدت إلى المائـدة بهـدوء، جلسـت وعـدت لأمسـك بالشـوكة في يـدي، ولكـن قبـل أن تصـل اللازانيـا إلى فمـي، قالـت أمـي: «مـن أعطـاك الإذن لتنهـض؟» أخـذت أنظـر إليهـا، ثـم أنظـر إليهـا وأنـا لا أفهـم. ربمـا للنـزول مـن المقعـد لا بـد مـن إذن مثلـما يحـدث عنـد قيـادة السـيارة؟

وهكذا لم أقل أي شيء، وأكلت.

ولكنها أصرت: «اعتذر لأبيك».

أجبت: «معذرة؟ لمن؟».

قالـت لي وعيناهـا اكتـسى أسـفلهما باللـون الأصفـر: «أنـت تعلـم جيـدا جـدّا مـن هـو أبـوك».

أجبت: أعرف ولا أعرف.

قالت، وهي تشير بذقنها إلى زوجها: «تعرفه حق المعرفة».

وهكـذا قلـت بصـوت منخفـض: «هـذا ليـس حقيقيـا». ثـم عـدت لأتنـاول طعامـي.

في تلـك اللحظـة جـاء صوتـه: «تعيـش معـي، وأنـا مـن يعطيـك لتـأكل. الآن أنـا أبـوك، اعتـذر لي».

كان مـن الصعـب أن يفهـم المـرء أي شيء، أليـس كذلـك؟ عـلى كل

حـال، لأختـصر، اسـتمرت القصـة بعـض الـشيء وكلـما تطـورت شـعرت بالتوتـر. يقـولان هـما الاثنـان شـيئا وأنـا لا أعـرف بمـاذا أجيـب. ثـم، فجـأة يقـوم هـو ويقـول: «هـذا الطفـل تنقصـه السـلطة»، وقبـل أن أدرك نزلـت أنـا أيضـا مـن فـوق مقعـدي. أخـذ هـو ذراعـي في يـده ولفهـا حتـى سـقطت عـلى ركبتـي مـن الألم عـلى الأرض. عندئـذ نظـر إليّ مـن فـوق وردد: «هـل سـتعتذر؟» أنظـر إلى حذاءيـه، بـدأت أشـعر أننـي لا أقـوى عـلى التنفـس مـن الألم، وهكـذا فتحـت فمـي وخرجـت منـه كلمـة، تمامـا هـي: آسـف.

عندمـا عـدت مـرة أخـرى فـوق مقعـدي، كان هـو أيضـا قـد عـاد إلى مقعـده، ابتسـم بـرضى. قـال: «مـن الآن فصاعـدا سـتتغير الحيـاة!». قـال هـذا، وبينـما كان يقولـه، أنـا متأكـد أن شـخصا آخـر، وليـس أنـا، قـال تلـك الكلمـة.

حتـى تلـك اللحظـة لم أكُـن مـدركا أننـي بـدلا مـن كـوني واحـدا كنـا اثنـين.

التحقيق السابع

كانـت الأيـام تمـر هكـذا: كنـت أذهـب إلى المدرسـة، وهـما يذهبـان سـويا إلى العمـل. أعـود إلى المنـزل بينـما هـما مـا زالا في المستشـفى، وحتـى وقـت العشـاء أمكـث بمفـردي. في الظهـيرة، حسـب الاتفاقيـات، لا بـد أن أسـتذكر دروسي. الآن كنـت أذهـب إلى المدرسـة الإعداديـة وكان لـديَّ كـمّ كبـير مـن الواجبـات، ولكـن لم أكُـن أحـب المذاكـرة عـلى الإطـلاق. كانـت لـديّ أفـكار أخـرى في رأسي، وهكـذا كنـت أخـرج، وأتجـول حتـى المسـاء. كانـت لـديّ أهـداف بالتأكيـد، مسـارات أتـردد عليهـا أكـثر مـن أخـرى. وكان طريقـي المفضـل هـو طريـق البحـر.

كثيرا ما كانت تصل من مستنقع هناك بالقرب من البحر طيور الغواص والسماك، وأحيانا أيضا الغطاس، وكنت أمكث بالساعات لأشاهدها. كنت أراقبها بينما تغطس برشاقة بين الأكياس البلاستيكية، وكنت أكتب كل شيء في كشكولي الأبيض. في المساء، عندما كانا يعودان إلى المنزل، كنت أجعلهما يجدانني هناك بالفعل. كنت أضيء مصباح المكتب، وأغرس مرفقي فوق الكتاب، وأتظاهر بأنني أقرأ. كانت أمي سعيدة جدّا، كانت ترى الضوء أسفل الباب وتقول بصوت منخفض لزوجها: «ما زال هناك منكبا على الكتب». كان هو أيضا سعيدا حتى إنه في مساء أحد الأيام لمس رأسي، وقال: «ها هو ذا الرجل الصغير الذي يتصرف بحكمة!» كنت أنا التعيس، بسبب طائري الكناريا بالتأكيد. كانا متحابين، وكان لديّ دليل على ذلك: إلا أنهما لم يكونا قد قررا بعد أن يكون لديهما أطفال. في صباح كل يوم، وأنا ما زلت مرتديا ملابس النوم كنت أذهب لأرى، وفي صباح كل يوم لم يكُن هناك أطفال. بدأت أشعر بالقلق؛ فطيور الكناريا ليست لها ذقن ولا أثداء، هل تفهمني؟ كان يمكن أن يكونا أنثيين أو الأسوأ كان يمكن أن يكونا ذكرين شابين. لذلك كلما مرت الأيام شعرت أكثر بالتوتر.

عندما يقع اثنان في الحب يولد الأطفال. قالت لي أمي هذ قبل ذلك بأسبوع. أمي وهو، بالتأكيد.

حدث هذا في أثناء العشاء. كان في تلك الساعة التي عادة نكون فيها ثلاثتنا سويا. بينما نأكل، لمست أمي بطنها، لمسته خلف المائدة وقالت: «سرعان ما سيكون لديك أخ صغير». هكذ قالت.

عندئـذ نظـرت، ولم أفهـم شـيئا، فتحـت فمـي وسـألت: «لمـاذا؟» أجابنـي هـو بصـوت منخفـض وقـال: «لأنـه عندمـا يقـع اثنـان في الحـب يولـد الأطفـال».

هـل تفهـم؟ إذن كان مـن الصـواب أيضـا أن ينجـب طائـرا الكناريـا الأطفـال. إلا أن هـذا لم يحـدث، ذلـك الأخ الصغـير لم يولـد قـط. في أحـد الأيـام انحنـت أمـي فجـأة وقالـت: آه! وعـلى الفـور ظهـرت أسـفل منهـا بحـيرة مـن الدمـاء، كان يبـدو كأن الصنبـور قـد كُـسر.

هـل كانـا متفقـين، بالتأكيـد. وإلا لمَ سـيكونان قـد تزوجـا؟ إلا أنـه كان غيـورا. كان يفكـر في أنـه إذا كانـت أمـي قـد خرجـت منـذ أعـوام كثـيرة ماضيـة مـع آخـر، يمكـن أن تـشرد وتذهـب مـع آخريـن. هكـذا في بعـض المـرات لم يكُـن يعـود إلى المنـزل. أي كان يعـود، ولكـن كان يعـود في وقـت متأخـر جـدّا. كان يصنـع كثـيرا مـن الضوضـاء، يـضرب البـاب ثـم يقـذف بـأي شيء يقابلـه أمامـه. كان يذهـب إلى الأمـام وإلى الخلـف بغضـب كأنـه ذئـب جائـع. يحـاول أن يـأكل، يبحـث هنـا، يرغـب في التهامنـا. كنـت أتظاهـر بـلا شيء، وأمـي لم أكُـن أعلـم.

كنـت أردد أسـماء الصخـور. هـل تعـرف؟ حتـى وإذا كنـت أهتـم الآن بالطيـور، إلا أننـي مـا زلـت أتذكرهـا كلهـا: بيريـل، أرجونيـت، بيريـت، كبريـت، كوارتـز، كوارتـز وردي، فلوريـت، أوبـال... وكنـت أسـتمر هكـذا طـوال الليـل.

هـل كان يفيـد؟ لا يفيـد؟ في صبـاح اليـوم التـالي فقـدت أمـي الطفـل.

التحقيق الثامن

في النهايـة وُلـد الأطفـال. في البدايـة البيـض، طبيعـي، ثـم بعـد أسـبوع الفـراخ الصغـيرة، وحـوش صغـيرة بلحـم فـوق أعينهـا ومناقـير ضخمـة. عـلى كل حـال سـواء كان شـيئا مقرفـا أم لا، أخـيرا كنـت متأكدا أنهـما متحابـان، وأخـيرا عرفـت أنهـما ذكـر وأنثـى. في الأيـام الأولى كنـت أوجـد دائمـا هنـاك، أكتـب في كشـكولي كل مـا يحـدث. أحدهـما كان يجلـس طـوال الوقـت عـلى العـش، بينـما الآخـر كان يحـضر الطعـام فـإن الآخـر يدفـئ الصغـار. كانـا أبويـن حانيـين بالفعـل. في نهايـة الأسـبوع الأول بـدأ يظهـر الريـش. بالنظـر إلى الصغـار أصبحـت أجمـل، بـدأت تفتـح عيونهـا، كـرات سـوداء كبـيرة.

لم أقـل لهـما. ولم يـدركا هـما مـا حـدث، عـلى مـا أعتقـد. كنـا نتقابـل فقـط عـلى مائـدة الطعـام في المسـاء وكانـا يتحدثـان فقـط عـن أمورهـما الخاصـة. كنـت أسـتمع إلى كلماتهـما، أسـتمع إليهـما رغـما عنـي، ولكننـي كنـت أحـاول ألا أسـتمع لهـما، كنـت أفكـر دائمـا في أشـياء أخـرى. هكـذا كانـت أمـي تقـول: «هـل رأيـت؟ أصيـب ثلاثمئـة وواحـد وعـشرون بنزيـف مـرة أخـرى..». ويقـول هـو: «قمـت بخياطـة جرحـه ثـلاث مـرات بالفعـل. الآن لا يوجـد مـا يمكـن عملـه، فـإن عروقـه قـد تلفـت». أو توجـد تلـك الأخـرى التـي أكل مـرض الذئبـة وجههـا، فأصبحـت تبـدو كأنهـا هيـكل عظمـي يكسـوه بعـض اللحـم. كانـت أمـي تقـول: في يـوم مـا كانـت جميلـة، رأيـت صورتهـا، كانـت فتـاة رائعـة الجـمال.. وأيضـا يوجـد مريـض وصـل إليهـم هنـاك بعـد أن دهسـت شـاحنة قدمـه، وعندمـا عرفـت الأم أن ابنهـا قـد مـات حاولـت الانتحـار هنـاك أمـام الجميـع. أي أنهـما كانـا يتكلـمان دائمـا عـن هـذه الأشـياء، عـن عملهـما، وأنـا كنـت أحـاول دائمـا عـدم الإنصـات إليهـما.

كنت أفكر في: هل يا ترى نجح الشحرور في الحديقة أن يصنع لنفسه عشا؟ هذا الطائر الصغير الذي رأيته، كان من نوع الصعو أم لا؟

إلا أنني في أحد الأيام لم أعد أتحمل، وهكذا وضعت أدوات الطعام وصرخت: «ألا تستطيعان التحدث عن شيء آخر؟ ألم أقل لكما هذا من قبل؟ إنني أخاف دائما من الدماء».

عندئذ صمتا هما الاثنان وأخذا ينظران إليّ. قال هو: «ما هذا، ألا يعجبك عملنا؟»، ثم أكمل: «أو ربما يخاف عالم الطيور الصغير من الدماء، أليس كذلك؟». كنت أجري بالشوكة وراء بازلاء في الصحن، وهكذا لم أنظر لأحد ولم أجب. ولكن هل يمكنه هو أن يتوقف؟ قال: «حان الوقت لك لتقرر أن تكبر. الرجال الحقيقيون لا شيء يخيفهم. يتغلبون على الخوف. إذا لم يتغلبوا عليه يصبحون جبناء. هل تريد أن تصبح جبانا؟».

إذن، لقد كان هذا الشيء يسيطر على تفكيره. كان يقول دائما إنني يجب ألا أصبح رجلا ضعيفا، وإنني يجب ألا أشبه أبي الحقيقي في أي شيء، حتى وإذا كنت قد وُلدت معوجا، أي بلا نسب، فسيعمل هو على أن أعود مستقيما. وهو لا يفعل هذا لي أنا شخصيا، بل يفعله حبا في أمي التي تجرّ وراءها هذا الثقل الذي لا ذنب لها على الإطلاق فيه.

ولكن كيف سيجعلني مستقيما؟ مثل قطع الحديد، الأشجار. عندما كنت أسير بالقرب منه، كان يقول: «لقد قطعت عليّ الطريق، كيف تسمح لنفسك بهذا؟!»، وكان يصفعني. إذا ابتعدت وسرت بهدوء في الردهة، كان يصرخ: «هل تريد أن تتجنبني؟! لتتحلَّ بالشجاعة!» ثم يصفعني مرة أخرى. أي كان يبذل كل ما في

وسعه لكي أصبح مستقيما.

كانت أمي سعيدة. على الأقل هذا ما أعتقده، لأنها كانت تنظر ولا تقول شيئا. كانت تبتسم قليلا كما تبتسم التماثيل الفرعونية.

كنت أبكي من حين إلى آخر. لم أكُن أفهم شيئا، ماذا يمكنني أن أفعل؟ عندئذ كانت أمي تقترب مني، تمرر يدها على شعري وتقول: «أنت تعرف أنه يفعل ذلك لخيرك، إنه يحبك أكثر مـ كان يمكن لأبيك أن يحبك. عندما تكبر سترى، وستصبح ممتنا له». وهكذا كنت أشعر بالارتباك أكثر من ذي قبل. كيف يمكنني أن أصبح سيئا إذا كان هو طيبا بهذا الشكل؟

لم يسمح طائرا الكناريا بأن يصاب فراخهما قط بالبرد، كانا دائمـ فوقها، وكانا يعطيانها لتأكل كلما فتحت مناقيرها. أجل، كتبت كل شيء في كشكولي، ولأوضح أفضل رسمت أيضا بعض الاسكتشات.

التحقيق التاسع

ذلك الشيء الخاص بالدماء. الغريب، أن على المائدة في ذلك اليوم، تركاني وأنا معوج كما أنا، واستأنفا الحديث عن المستشفى. لم يحدث شيء في ذلك اليوم، ولا حتى في اليوم التالي ولا اليوم الذي تلاه أيضا. وهكذا كنت قد تأكدت بالفعل أن الموقف مر بسلاسة.

ثم في صباح يوم الأحد، وكانت أمي في مناوبة عمل، أتى ليوقظني وهو يصفر وقال: «استيقظ، سنذهب لنصطاد!».

كان الصيد هوايته المفضلة، لم يكُن يعجبه الصيد في البحر الكبير والمخيف، ولكن في جداول المياه الصغيرة في الجبل. كان يقول: «لا شيء أفضل من ذلك ليهدئ الأعصاب».

هكـذا ارتديـت ملابـسي، وأخـذت كشـكولي الأبيـض، وتبعتـه. بعـد ساعتين في السيارة وصلنا إلى واد منعزل. لم يكُن هناك أحد حولنا، وكان جـدول الميـاه الـذي يجـري بـين الحـصى يتسـبب في ضوضـاء شـديدة. كان هـو صامتـا تقريبـا طـوال الوقـت، وعندمـا كان يتحـدث كان لطيفـا. عـثر عـلى المـكان المناسـب، ثـم أخـرج بوصـة الصيـد الخاصـة بـه، ثـم أخـرج واحـدة أصغـر وأعطاهـا لي. عندئـذ قلـت أنـا عـلى الفـور: لا شـكرا، أفضّـل ألا أصطـاد، لأنـه لا بـد أن هنـاك كثـيرا مـن الطيـور بالقـرب، صيـاد السـمك الأخـضر، راقصـات الباليـه، الشـحرور المـائي. وبالتـالي سـأكون أكـثر سـعادة إذا جلسـت عـلى صخرة دون أن أفعـل شـيئا. ولكنـه أصر، قـال: هيـا، لـن يمنعـك شيء مـن فعـل الآخـر، يمكنـك أن تصطـاد وأنـت تراقـب الطيـور بـلا أي إزعـاج، بـل عـلى العكـس، سـيكون هـذا أفضـل، حيـث عليـك أن تمكـث أكـثر ثباتـا. اسـتمرت القصـة لفـترة، هـو يقـول لي اصطَـد معـي، وأنـا أقـول لـه، أفضّـل ألا أفعـل هـذا، ثـم أرى ضـوءا في عينيـه لا يعجبنـي، عندئـذ أوافـق.

أعـد هـو كلا مـن البوصتـين، ووضـع فيهـما الذبابتـين الصناعيتـين، ثـم أشـار لي عـلى مـكان وقـال: «أنـت امكـث هنـاك»، ثـم جلـس هـو في مـكان أعـلى بقليـل. ومـن هنـاك صرخ فيّ: «إذا شـعرت بـأي شـد، اجـذب البكـرة نحـوك بقـوة!». ثـم التـزم الصمـت، وأنـا أيضـا.

كنـت أفكـر بالفعـل في أنـه عـلى حـق، وأنـه شيء بالفعـل مهـدئ للأعصـاب، عندمـا فجـأة قفـزت بوصتـي تقريبـا. أمسـكت بهـا بالـكاد، وبمجـرد أن ثبـت بـدأت في لـف البكـرة. جـاء هـو لمسـاعدتي، وقـف خلفـي، وجـذب معـي، وبعـد صراع بسـيط خرجـت مـن الميـاه سـمكة سـلمون ضخمـة. قـال هـو: «رائـع، لقـد نجحـت!» وأنـا أيضـا فرحـت.

كنـت فرحـا أبتسـم، حتـى وصلـت السـمكة التـي كانـت تتطـوح في الهـواء بيننـا، بـين أقدامنـا. كانـت مـا زالـت حيـة، لامعـة، ولكـن سرعان مـا غطـت التربـة قشرهـا. أخـذت تـدور بسرعـة شـديدة مـن جانـب إلى آخـر كأن شـيئا مـا يهزهـا مـن الداخـل. كانـت تنظـر إليّ بإحـدى عينيهـا، ثـم تقفـز لتنظـر بالأخـرى. كانـت الحدقـة سـوداء وصغـيرة وفوقهـا كانـت تلتصـق قشـة. هكـذا فكـرت، تـراني ولكـن بجـذع في الوسـط.. مـن خلـف العـين كانـت تـبرز الصنـارة المعدنيـة، والدمـاء تحيـط بهـا، عندئـذ أديـر رأسي وأقـول: «يمكننـا الآن أن نعيدهـا إلى المـاء، أليـس كذلـك؟» بمجـرد أن قلـت هـذا، أمسـك هـو بذقنـي ولفهـا. وأجـاب: «أنـت تعـرف أننـا نصطـاد السـمك لنأكلـه». عندئـذ سـاد الصمـت، وأدركـت مـن غنـاء ليـس بعيـدا أن هنـاك طائـر راقصـة الباليـه. بمجـرد أن اختفـى، أعطـاني حجـرا وقـال لي: «اقتلـه أنـت!». التزمـت الصمـت، وتركـت الحجـر يسـقط في الأرض. أمسـك هـو بـه مـن جديـد، وأعطـاني إيـاه مـرة أخـرى. ولأختـصر، تكـرر هـذا المشـهد أكـثر مـن مـرة. ثـم قـال هـو ببـطء: «كـم مـن الصـبر عـليّ أن أتحـلى بـه»، وشـعرت بـأن صـبره بـدأ ينفـد، في الواقـع بعـد بضـع دقائـق يصفعنـي صفعـة تقلبنـي مـن قوتهـا، ومـن الأرض أراه وهـو يهشـم رأس السـمكة بالحجـر، تحـول الـرأس إلى عجينـة والصنـارة بداخلـه، عندئـذ فكـرت: انتهـى كل شيء. عندمـا كـدت أهـم بـأن أقـف، أخـرج هـو مـن جيبـه سـكينا، أخـذه، وقطـع الـرأس. اقـترب منـي والـرأس في يـده، كانـت الدمـاء والمـادة الصفـراء تجـري بـين أصابعـه، لم أفهـم مـاذا يريـد أن يفعـل. عندئـذ نهضـت، ولكـن كان الوقـت متأخـرا، فلقـد أمسـكني مـن رقبتـي، وبيـده المفتوحـة ألصـق رأس السـمكة عـلى وجهـي.

لا بـد أننـا كنـا في منتصـف النهـار. عندمـا صعدنـا إلى السـيارة وضـع يـده حـول كتفـي، وقـال: «هـل لا يـزال الـدم يخيفـك كثـيرا؟» ثـم ضمنـي إليـه كأننـا صديقـان في المدرسـة.

لم أكُـن أسـتطع غسـيل وجهـي حتـى اقتربنـا تقريبـا مـن المدينـة. أوقـف السـيارة فقـط في إحـدى الضواحـي أمـام نافـورة ميـاه وقـال لي: «هيـا انـزل واغسـل وجهـك بسرعـة».

تعبـت كثـيرا حتـى غسـلته لأن الجلـد كان بالفعـل قـد تشربـه، كان قـد دخـل إلى العمـق، حتـى المخ.

لم أقـص شـيئا عـلى أمـي، وهـو أيضـا التـزم الصمـت. قـال فقـط: «هـل رأيـت السـمكة؟! يصعـب تصديـق ذلـك، ولكـن لقـد اصطادهـا ابنـك!» ثـمَ أخـذ يضحـك.

أكلناها في الليلة نفسها، مسلوقة بالبطاطس والمايونيز.

أجـل، أكلتهـا أنـا أيضـا معهـما دون أن أتفـوه بكلمـة، إلا أننـي بعـد ذلـك بقليـل، أغلقـت بـاب الحـمام عـلى نفـسي، ووضعـت إصبعـي في جـوفي، أعمـق مـا اسـتطعت.

التحقيق العاشر

عندمـا أفكـر مـرة أخـرى بمـا حـدث الآن أسـتطيع أن أقـول إن ذلـك الأحـد كان بطريقـة مـا عـمادا جديـدا، مرحلـة جديـدة. لا أعـرف كيـف أفـسر مـا حـدث بالتحديـد، ولكننـي أعتقـد أن شـيئا مـا تغـير في الزمـن. بـدأ كل شيء يسـير بخطـى أسرع. بطريقـة مـا غـير واضحـة، بـدأ شيء مـا يفلـت مـن يـدي.

رائحـة الدمـاء، قبـل كل شيء، عـلى الرغـم مـن أننـي اغتسـلت، ظلـت عالقـة بي. في تلـك الليلـة لم أسـتطع النـوم، كنـت أشـعر بهـا

هناك حول فمي، وحول عينَيّ. أخذت أدفن وجهي في الوسادة، وكان لديّ الانطباع أنها متشبعة به. كنت أحوّل وجهي إلى أعلى، وبلساني، كنت أشعر به، رطبا وعذبا، على طرف شفتَيّ. شعرت بالرعب، والقرف، ولكن أيضا بشيء آخر، شيء من قبيل أن تبدأ الرياح، ويُقال عندئذ: هذه الرياح تنبئ بشيء ما، أو عندما يستمع المرء إلى مقطوعة موسيقية، ويعرف من البداية إذا كان سيشعر بالتعاسة أم بالسعادة.

بالتأكيد يمكن أن يحدث هذا في الحياة. لقد حدث لي، ولكنه يمكن أن يحدث لأي شخص. فجأة، بسبب أمر ضئيل، ينغمس المرء في شيء آخر، ينحرف، يدخل في طريق لم يكُن قد رآه من قبل.

لا أعرف إذا كنت واضحا بالدرجة الكافية، وإذا كنت تفهمني. ولا حتى أنا تلك الفترة كنت أعرف هذا. أعرفه الآن وأنا أفكر مرة أخرى في كل ما حدث، وأستعيد كل الأحداث من الوراء إلى الأمام. معمودية؟ لا، بل عملية رشم بالزيت، شيء من هذا القبيل ولكن كأنه رائحة الأجياف للضباع.

لنلتزم بالوقائع، في صباح اليوم التالي ليوم الأحد هذا، حتى وإن لم أكُن قد نمت، استيقظت لأذهب إلى المدرسة، وقبل أن أرتدي ملابسي ذهبت لأرى كيف حال عائلتي من الكناريا. في البداية لم أستطع أن أصدق ما حدث. أنظر، وأدقق النظر، وفي أثناء ذلك أقول لنفسي إنني ما زلت أحلم. ثم خلفي تعبر أمي، وتلمسني، وهنا أدرك أنني مستيقظ وأن تلك الأجساد الممزقة قاع القفص، هي أجساد أفراخي. واحد على اليمين والاثنان الآخران بالقرب من مسقى المياه. كانوا كلهم مصابين بتمزق على الرقبة وعلى البطن، بين ريشهم الصغير كان يمكن رؤية أعضائهم الداخلية بوضوح.

لم يموتـوا في العـش، ولكـن بعيـدا، ولأنهـم لم يعرفـوا كيـف يطـيرون بعـد. كان الوالـدان يتظاهـران بـلا شيء، يقفـزان مـن منـط إلى الآخـر وهـما يزقزقـان. كيـف يمكـن أن يحـدث هـذا، كيـف حـدث؟ ومكثـت هنـاك أمامهـم دون أن أقـوى عـلى تحريـك قدمـي، ولا حتـى إصبـع في يـدي. وبينـما أنـا مسـمر أمـام القفـص أرتـدي بيجامتـي وحـافي القدمـين، توقـف هـو، مرتديا بالفعـل المعطـف، توقـف بجـواري، وهـو ينظـر بـين القضبـان ويقـول: «ثـؤ! لقـد ماتـوا!».

ذلـك اليـوم لم أذهـب إلى المدرسـة. قلـت إننـي سـأذهب ولكننـي لم أذهـب. وصلـت بالحافلـة إلى البحـر، وأخـذت أسـير ذهابـا وإيابـا عـلى الشـاطئ حتـى موعـد الغـداء. كنـت هنـاك، ولكننـي لم أكُـن في أي مـكان. لأول مـرة، بوضـوح شـديد، كان لـديّ انطبـاع بأنني مصنـوع مـن خشـب. مـن خشـب أو مـن حجـارة، لا يوجـد فـارق كبـير: أي مـن شيء إذا لمسـته لا يشـعر بـشيء. أجـل، كان يمكـن أن أضرم النـار في ذراعـي، وبينـما تشـتعل النـيران لم أكُـن لأبـالي. فقـط في العمـق، كان لا يـزال جـزء صغـير يعيـش بداخـلي. شيء كشـعلة لم تنطفـئ قـط، شيء مـا كان هنـاك وكان يفكـر. يفكـر دون أن أدرك أنـا أنـه يفكـر.

مثلـما يحـدث كل يـوم، تناولـت الغـداء بمفـردي، وعندمـا انتهيـت مـن تنـاول الطعـام، لم أعـرف مـاذا أفعـل فذهبـت لأنـام. اسـتيقظت فجـأة، وأنـا أصرخ، بالقـرب مـن سـاعة الغـروب. كنـت أحلـم بالتـالي: كنـت أسـير مثلـما كنـت أسـير في ذلـك اليـوم، وفجـأة وبـلا أي مقدمات، اشـتعلت فيّ النـيران. كانـت النـيران مندلعـة مـن الداخـل. قفـزت في الميـاه ولكننـي لم أسـتطع أن أطفئهـا، وهكـذا أخـذت أصرخ بـكل مـا تبقـى لي مـن نَفَـس في جسـمي. كنـت أصرخ ليـس فقـط في الحلـم، ولكـن أيضـا في الحقيقـة، وهكـذا اسـتيقظت عـلى صـوت صراخـي.

ظللـت أجلـس أمـام مكتبـي حتـى سـاعة العشـاء، ومـن هنـاك قمـت مـرة واحـدة فقـط لأذهـب إلى المطبـخ. مـررت أمـام القفـص، وتظاهـرت بأننـي لا أراه. كنـت أشـتم رائحـة الدمـاء، وكنـت خائفـا مـن أن أحـرك الجثـث مـن مكانهـا. ثـم، مثـل كل مسـاء عـادا بالسـيارة. ركناهـا في الحديقـة، وصعـدا.

عـلى المائـدة، وفي أثنـاء شرب النبيـذ، قـال هـو: «أتمنـى أن تكـون قـد تخلصـت مـن تلـك الجثـث الصغـيرة». لم أقـل أجـل أم لا، التزمـت الصمـت. عندئـذ نهـض هـو وذهـب ليتفقـد الأمـر. عـاد إلى المطبـخ وهـو يقـول: «مـاذا تنتظـر، هـه؟ أن يأكلهـا الـدود؟». ثبـت في مـكاني، وأمسـك هـو ذراعـي وحـاول إيقـافي، ولكننـي تشـبثت بالمفـرش بأصابعـي، وعقـدت قدمَـي في أقـدام المائـدة. كان هـو يجذبنـي وأنـا لا أستسـلم. أخـذت عـروق رقبتـه تنتفـخ. كانـت أمـي في ذلـك الوقـت قـد وضعـت الشـوربة عـلى المائـدة، كانـت تتمايـل بمـا فيهـا مـن قطـع خـضراء في الطبـق أمامـي.

ثـم وصلنـا إلى أن بـدأ هـو في الـصراخ: «ألـق بهـا!» وأنـا أصرخ «لا!». استـمر الأمـر برمتـه دقيقتـين عـلى مـا أعتقـد، ثـم نهضـت مـن مـكاني وفاجأتـه، وصرخـت: «لترفعهـا أنـت أيهـا القاتـل!» وألقيـت بصحـن الشـوربة عـلى وجهـه.

بعـد ذلـك؟ لا أتذكـر مـا حـدث بعـد ذلـك جيـدا. أخـذت أمـي تـصرخ: «أنـت مجنـون!» وهـو يدفـع بـرأسي بداخـل وخـارج حـوض مـليء بالميـاه. في حجـرتي أغلـق البـاب. أتذكـر فقـط هـذا، صـوت المفتـاح. أنـا في الأرض وتأتينـي الـركلات واللكـمات مـن كل الأنحـاء. دافعـت عـن نفـسي بعـض الوقـت، ثـم شـعرت بالتعـب، لا فائـدة، لـن أفعـل أي شيء.

بعـد ذلـك وجـدت نفـسي في فـراشي، بـل أسـفل الفـراش. لا بـد أن الأمـر انتهـى بي هنـاك كأننـي في كهـف. أشـعر برائحـة الدمـاء، أُخـرج لسـاني، إنـه أنفـي الـذي ينـزف. دمـاء في كل مـكان. كـما قلـت لـك: هـل كانـت معموديـة أم عمليـة دهـن بالزيـت.

في اليوم التالي أخذوني إلى مدرسة داخلية.

التحقيق الحادي عشر

بطبيعـة الحـال كان لا بـد أن أتحـدث مـع أخصـائي أمـراض نفسـية. أتعلـم، أيضـا في مجالـه كان لـديّ أيضـا بعـض الخـبرة. في الحقيقـة لم أكُـن أنـا أتحـدث، كان هـو مـن يحـاول أن يدفعنـي للتحـدث. ثـم، ونظـرا لأننـي كنـت أمتنـع وألتـزم الصمـت، كان يطلـب منـي أن أرسـم. لا بـد أننـي زدت الأمـر سـوءا، ثـم ذهبـت بعدهـا للمدرسـة الداخليـة. ربمـا لـو كنـت قـد تكلمـت، أو عـلى الأقـل رسـمت باهتـمام أكـبر لمـا كان انتهـى أمـري هنـاك، ولكـن عـلى كل حـال هذا مـا حـدث وفي اليوم نفسـه رحلـت. هـل كنـت سـعيدا؟ لا أعـرف، لم أكُـن أفكـر كثـيرا في هذا الأمـر. ربمـا كنـت سـعيدا لأننـي تخلصـت منهـما. الـشيء الوحيـد الـذي كان يقلقنـي هـو أننـي أوقفـت دراسـتي؛ فمنـذ يـوم أحـد السـمكة، لم أكتـب أي شيء في كشـكولي، ولم أهتـم بجمـع الصخـور، ولا بتتبـع حـركات الطيـور. وبسـبب العجلـة في الرحيـل، بعـد ذلـك، نسـيت كل ملحوظـاتي في المنـزل.

كانـت المدرسـة الداخليـة عبـارة عـن مبنـى أصفـر اللـون بزجـاج قاتـم. كان مُقامـا في وسـط الريـف. عندمـا وصلـت كان العـام الـدراسي قـد بـدأ بالفعـل منـذ فـترة وكان الصبيـة جميعـا يعـرف بعضهـم بعضـا. في اليـوم الأول اسـتقبلني الأب المـشرف، قـس ذو شـعر كلـه أبيـض،

ويده يغطيها العرق، حيث بدت لي كأنه نزعها للتو من المياه. وهناك في مكتبه أخذ يقص عليّ قصة الخرفان التي كانت تذهب هنا وهناك بلا أي سيطرة، وكيف أنه كان من الأجمل إذا بقيت متحدة مع القطيع، وكيف أن استخدام العصا من الحكمة. فهمت القليل، وربما لا شيء، ولكن فقط بعد ذلك أدركت أن درجة حرارتي مرتفعة. وهكذا دون أن أرى باقي الصبية ذهبت إلى المستوصف ومكثت هناك بضعة أيام.

وهناك لم يكُن أحد سواي. قضيت الأيام متدثرا أسفل الأغطية وأنا أنظر إلى الحائط المقابل لي. كنت أحيانا أحاول أن أركز في تصنيفاتي، وأردد ما كنت أتذكره كي لا أفقد تلك العادة، ولكن كنت أشعر بالبرد الشديد ولم أكُن أنجح في هذا. بدأت أخلط بين أسمائها وأشكالها.

بمجرد أن تماثلت للشفاء وصلت إلى حجرتي وإلى فصلي. كان هناك كثير من قواعد النظام. لم أكُن أعرفها، ولذلك كنت أخطئ دائما وأعاقَب أيضا دائما. لو كان بإمكاني التحدث مع بعض الزملاء لربما كانت الأمور سارت بشكل أفضل، ولكن كان غير مسموح أن نتحدث في ما بيننا. كان يمكن التحدث فقط في ساعة محددة مسبقا وتحت إشراف رئيس المعلمين.

السبب واضح أليس كذلك؟ كانوا يخشون أن يولد نوع من الاستلطاف، وهذا الاستلطاف يؤدي مباشرة إلى ذلك الشيء. لم أكُن أعرف أن تلك الأشياء كان لها وجود، وأن الأمر يمكن أن يسير بهذه الطريقة، واحد مع الآخر، حتى إن كان الاثنان من الذكور. ولكن بطبيعة الحال كانت هذه الأشياء تحدث على الرغم من ذلك. كانت هناك دائما لحظة يمكن عمل فيها هذا سواء في الليل أم في

الحمامـات. هـل كان هـذا يعجبنـي؟ لا يعجبنـي؟ لا أعـرف، ولم أسـأل نفـسي قـط.

إذا فكـرت في كلـمات مناسـبة لأعـبّر بهـا عـن تلـك الفـترة، يمكننـي أن أصفهـا في كلمتـين: بـرد وشـبه ظـلام. بـرد لأن الحجـرات والممـرات كانـت كبـيرة وبـلا أي أثـاث، وشـبه ظـلام حيـث لم تكُـن هنـاك شـمس، ولم يكُـن الضـوء قويـا. في نهايـة الأمـر كان ذلـك الـشيء بريئـا. كنـا نفعـل ذلـك لنشـعر بالـدفء، لنشـعر ببعـض مـن الـدفء الداخـلي.

فقـط في الربيـع التـالي أدركـت أن الصقيـع لم يكُـن مرتبطـا بدرجـة الحـرارة الخارجيـة. لقـد تحـول جلـدي ليصبـح بـاردا بـل ولحمـي أيضـا أسـفله. مـن حـين إلى آخـر كنـت أتوقـف وأسـتمع، أحيانـا كنـت أشـعر بـأن قلبـي أيضـا قـد تحـول إلى قطعـة مـن الثلـج، وأنـه موجـود هنـاك معلـق في القفـص الصـدري مثـل ربـع كيلـو ضـأن في قفـص ثلجـي.

لا، لم يحـضرا قـط لزيـارتي، ولم يرسـلا حتـى الملابـس في الفصـل التالي. فقـط مـرة واحـدة، بعـد شـهرين وصلنـي كارت بوسـتال، وخلفـه كان مكتوبـا: «أتمنـى أن تسـلك بشـكل جيـد». وأسـفله: «ريتـا».

عـلى كل حـال، في أحـد الأيـام، وقبـل نهايـة العـام الـدراسي بقليـل، حـدث ذلـك الـشيء، واكتشـفونا. كنـت مـع صبـي أصغـر، في الحقيقـة لم نكُـن نفعـل أي شيء سـيئ، كان كل منـا يمسـك يـد الآخـر فقـط. عـلى كل حـال، بمجـرد أن فتـح القـس البـاب، داهمنـا الضـوء، وعـلى الفـور بـدأ الصغـير في البـكاء والـصراخ بأنـه بـريء، وبأننـي أجبرتـه عـلى ذلـك. جرّانـا سـويا إلى حجـرة ممسـكين برقبتينـا، وهنـاك وبعـد فـترة وصـل رئيـس الديـر، وكانـت معـه مسـطرة في يـده، وعـلى الفـور وضـع يـدَي الولـد الآخـر عـلى المائـدة وأخـذ يضربهـما ويضربهـما حتـى لم تتبـقَ عليهـما سـوى خطـوط مـن الدمـاء. مـن حـين إلى آخـر

كان يتوقف ليرى إذا كنت أنظر. ثم اصطحبه إلى الباب وقبل أن يخرجه قال له: «لا بد أن تشكر صديقك على كل ما حدث لك». مكثنا بمفردنا. وفكرت الآن جاء دوري، وكنت أستعد، إلا أن شيئا لم يحدث. اقترب مني، ووضع ذراعه على كتفي، وقال: «مع الأسف لا بد أن أحبسك». وهكذا فكرت: لا بأس. عندما وضعني في الحجرة المظلمة وأغلق الباب بالمفتاح كنت تقريبا سعيدا وتنهدت.

شيء غريب، للمرة الأولى التي أتيت فيها إلى هنا، لا أشعر بالبرد. حضرت إلى ذهني يدا الطفل، والدماء التي كانت تسيل منهما، وُولد شيء كالدفء في داخلي. إذن فلسنا جميعا مصنوعين من الحديد والخشب، فهناك في الأسفل، هناك في الداخل، لا يزال يوجد شيء دافئ وحيّ.

بعد قليل، ونظرا لأنني لم أكُن أعرف ماذا أفعل، نمت. استيقظت، لا أعرف بعد كم من الوقت، على صوت المفتاح في الباب. لم أكد أحاول النهوض حتى قفز أحدهم على كتفي وتمدد فوقي.

رأيت قناعا ما على وجهه، قناعا مخيفا، وفي الواقع قال هو على الفور: «اثبت في مكانك، لا تتحرك، فأنا الشيطان». ولكن بمجرد أن لمستني يداه أدركت أنه ليس الشيطان، فلقد كانت يداه رطبتين ولزجتين مثل يدَي رئيس الدير.

لا فائدة من أن أقص ما حدث، أليس كذلك؟ فهمت كل شيء؟ أستطيع أن أقول، منذ تلك اللحظة عاد الصقيع بداخلي من جديد ومكث هناك إلى الأبد.

بعد بضعة أيام أخرجوني من الحجرة، وفي أثناء إحدى النزهات هربت.

استغرق الأمر يومين لأصل إلى مدينتي. كنت أسير أحيانا، وأوقف السيارات أحيانا أخرى. على الطريق، رويدا رويدا، اقتنعت بشيء واحد؛ هو أن أمي عندما تعرف كل شيء، ستسعد بعودتي، وأن كل شيء سيعود كما كان؛ كان لا بد أن أذهب حتى يحباني، وهذا يكفي، وسنعيش هكذا.

عندما ضربت جرس الباب، ودون أن أدرك ابتسمت. لم تكُن سيارته موجودة، وكنت أشعر بأنني أكثر ارتياحا لهذا. استمرت ابتسامتي أيضا على السلالم وعندما دخلت إلى المطبخ. كانت هي أمام الفرن، التفتت إلى صوت خطواتي. كنت أعتقد أنها ستفتح لي ذراعيها. قلت: «ماما، أنا هنا!».

قالت هي: «أرى هذا»، ثم عادت لتطهو.

التحقيق الثاني عشر

هل تريد أن تعرف ماذا حدث بعد ذلك؟ ما حدث هو أنني عدت إلى المدرسة الداخلية. أجل، لم تكُن عودتي سهلة. لم يرغبوا، قالوا عندما يهرب أحد لا يعود مرة أخرى. أصرت أمي وألحت حتى خضعوا في النهاية. ورحلت بعد ذلك بيومين.

تلك الأيام التي قضيتها مع العائلة كانت غريبة بعض الشيء. لم يصرخا فيّ ولم يقولا لي أي شيء، كنت هناك، ولم يكُن لي أي وجود. لم يكونا سعيدين ولا غاضبين، بالنسبة إليهما لم يكُن لي وجود وحسب. في صباح أحد الأيام، وبينما أنا في حجرتي دون أن أعرف ماذا أفعل، دخلت أمي وقالت لي: «اجلس، لا بد أن أتحدث معك». جلست على الفراش، ولكن شعرت ببرد شديد حتى إنني أخذت أرتجف. كنت أرتجف، وأسناني ترتعش. كنت أريد أن أقول

لها ما حدث لي، ولكن لم تواتني الشجاعة. كنت أفكر في أنها لن تصدقني، كانت أمي ستقول لي: «كاذب كعادتك، أنت اخترعت كل هذا».

على كل حال، كنت أجلس هناك أرتجف، وقالت أمي: «أنت تفعل ذلك متعمدا، في هذا الحر لا يمكن أن يشعر أحد بالبرد». عندئذ حاولت أن أتوقف، حاولت ولكنني لم أستطع. هكذا لأثبت لها حسن نواياي، ذهبت إلى الدولاب لآخذ جاكيتين وأرتديهما. عندئذ تنهدت هي، تنهدت وقال: «أنت لا تعرف كم هو صعب أن يكون لديك أبناء»، ثم أمسكت ببطنها، نظرت إليّ وأضافت: «هناك خبر جديد، خبر كبير. قريبا سيكون لديك أخ صغير».

أخذت أنظر إليها ببطء. في الحقيقة، لم يكُن أي شيء واضحا. عندما استأنفت الحوار، كنت بالفعل بعيدا -ليس أنا ولكن ذلك المصنوع من الخشب، كان هناك أمامها، يستمع إليها - كنت أشعر كأن صوتها صدى في واد جبلي... إنها متعبة، لديها كثير من الالتزامات، والأب أيضا متعب، يقتل نفسه في العمل كل اليوم، وها هو ذا هذا الطفل الجديد على وشك الحضور وهكذا من الأفضل أن أكون طيبا وأن أعود إلى المدرسة الداخلية.

عندئذ لم أقل شيئا. أفكر، لا بد أن هذه قصة دخلتها أنا من باب الخطأ، وعدت إلى الارتجاف، مثل ورقة انفصلت عن الشجرة.

بالتأكيد رأيته هو أيضا في تلك الأيام، أكلنا سويا مرتين. المرة الأولى تظاهر بعدم وجود أي شيء، استدار ناحيتي ولكن كانت نظراته في مكان آخر. المرة الثانية، بمجرد أن جلست أصبت بفُواق شديد. حتى وإن كنت قد أغلقت فمي، كان يمكن سماعها. هكذا بعد قليل التفت هو وقال: «الآن يمكنك أن تتوقف»، وبمجرد أن

قـال ذلـك زاد الفُـواق. كان كل شيء حولنـا صامتـا، ولم يكُـن يُسـمع سـوى ذلـك الصـوت في الحجـرة. عندئـذ ألقـى هـو بـأدوات المائـدة بغضـب في الصحـن، وتقـدم نحـوي، أخـذت أنـا في الانكـماش، كنـت أرغـب في أن أختفـي، ولكـن قبـل أن يصـل إليّ، نهضـت أمـي، ولمسـته وقالـت: «لا أرجـوك». توقـف لوهلـة، ثـم اسـتدار وخـرج مـن المنـزل وصفـع البـاب خلفـه.

لم أرَ أمـي بعـد ذلـك. لم تـأت لي ذلـك المسـاء لتصافحنـي في حجـرتي، وفي صبـاح اليـوم التـالي خرجـتَ لأرحـل، والتفـت لأنظـر إلى النافـذة، ولكنهـا لم تكُـن خلفهـا. نظـرا لأننـي كنـت سأسـافر بمفـردي، كان بإمـكاني أيضـا الهـروب. في الحقيقـة، فكـرت في ذلـك بمجـرد أن وصلـت أمـام القطـار، لكـن لم تكُـن لـديّ ولا لـيرة واحـدة في جيبـي. ثـم مـاذا كان سـيحدث لي؟ عـلى الأقـل حاولـت أن أثبـت ولـو لمـرة أننـي شـخص جيـد.

إذا كان هنـاك أخ سـيولد فهـما متحابـان، هـذا واضـح. أجـل، أتمنـى أن يكـون ذلـك الحـب مثـل بقعـة الزيـت التـي تتمـدد. ربمـا كـبرت وكـبرت، ربمـا كـبرت إلى حـد يمنحنـي أنـا أيضـا، إن آجـلا أم عاجـلا، فرصـة أن أتزحلـق بداخلهـا.

أي أنني حتى لا أدمر كل شيء، يجب عليّ أن أنتظر.

بمجـرد أن وصلـت إلى هنـاك عاقبـوني. لم أسـتطع الخـروج لمـدة ثلاثـة أشـهر. جـاء الصيـف ومكـث منـا فقـط عـشرة. في ذلـك الوقـت عـدت إلى المدرسـة، كان لـدي الكثـير لأدرسـه ولم يكُـن لـدي متسـع مـن الوقـت لأفكـر في أي شيء آخـر. كنـت دائمـا منحنيـا عـلى الكتـب، وكنـت أكـرس السـاعات الباقيـة للتصنيـف. أجـل، في تلـك الفـترة جاءتنـي الفكـرة بأننـي لم أفقـد كل شيء، وأننـي إذا اجتهـدت واسـتذكرت،

ما زال في إمكاني أن أنجح في أن أكون عالما كبيرا.

وماذا عن رئيس الدير؟ قابلته وجها لوجه فقط مرتين في الردهة. كنت أرغب في أن ألكمه، أن أصرخ في وجهه بأنني أعرف من هو في الحقيقة، إلا أنني بمجرد أن أمسكني من ذقني، احمر وجهي، وأبعدت نظري.

عاد الخريف، ونجحت في امتحاناتي بتفوق. لم يتذكر أحد أن يرسل لي طردا فيه ملابسي الثقيلة. كان العقاب يتضمن أيضا أنه لا يمكنني أن أتصل بالمنزل قبل عيد الميلاد.

في تلك الأشهر بدأ البرد يزيد أكثر فأكثر حتى بدأ في التهام عظمي. عندما كنت أسير بين الحجرات في أثناء اليوم، كان لديّ انطباع بأنني أسمع ضوضاء عظام فخذي، وعظام الترقوة. أعرف أن هذا يبدو مستحيلا، ولكن كان كذلك. كانت من الثلج وكانت ترتطم باللحم المثلج. هل سبق أن أخرجت سمكة مجمدة من المجمد؟ إذا ألقيت بها فوق المائدة تتسبب في ضوضاء مثل الحجر. هكذا كنت أنا في تلك الأشهر. كنت أنتظر بشغف الليل، ودفء الأغطية، ولكن كان انتظارا بلا طائل؛ إذ إنني بمجرد أن أنزل أسفلها أشعر بمزيد من البرد. بالقرب مني كان هناك صغير يبكي طول الوقت. حتى لا أفكر فيه كنت أفكر في شيء آخر، في القلب المرن والدافئ للأرض. كنت أنزل هناك بمخيلتي، طبقة تلو الطبقة حتى أصل إلى هناك، إلى تلك الحرارة الشبيهة بالجحيم. كانت كتلة من النيران المستعرة، عندما كانت الأرض تدور كانت تتموج هنا وهناك في دوامات مخيفة.

تلك الصورة، في بعض الأحيان، كانت تستمر في الأحلام. عندئذ كانت الكتلة، بدلا من أن تتحرك في مساحتها بحركة منتظمة،

وبـدلا مـن أن تظـل هنـاك مثـل بـذرة في وسـط الثمـرة، تبـدأ في الارتطـام بغضـب في كل الأنحـاء، ترتطـم وتـضرب، حتـى تعـثر عـلى شيء مـا، حفـرة، انشـقاق، وتبـدأ في الصعـود إلى أعـلى وهـي تغـلي. تصعـد وتصعـد، فتتحـول البحـار والأنهـار إلى نـيران سـائلة، ومـن كل صنابـير الأرض تخـرج بقـوة الحمـم والفلـزات الحجريـة. ثـم، لا أدري لمـاذا، يحـدث هـذا أيضـا للأشـخاص. لم يكُـن قلـب الأرض الـذي ينفجـر، ولكـن قلبهـم هـم، ذلـك الموجـود في منتصـف القفـص الصـدري، ويبـدأ الـدم في الاندفـاع مـن عيونهـم، ومـن فيهـم، كان يخـرج في خطـوط طويلـة مـن أطـراف أصابعهـم.

كنـت أسـتيقظ دائمـا عنـد هـذه اللحظـة، وبمجـرد أن أسـتيقظ كنـت أشـعر مـرة أخـرى بالـبرد، ولكـن يكـون الصغـير بالقـرب منـي قـد نجـح في أن ينـام، ولا أسـمع بـكاءه، والصمـت الرهيـب فقـط مـن حـولي.

قبـل عيـد الميـلاد بقليـل، وفي أثنـاء تنـاول الطعـام، وصلتنـي برقيـة. فتحتهـا بمفـردي في الحـمام. كان مكتوبـا فيهـا: «وُلـد أخـوك واسـمه بينفينوتـو».

التحقيق الثالث عشر

أيـن توقفنـا؟ عندمـا وُلـد هـو؟ أجـل، لم أشـعر بـأي شيء عندمـا قـرأت تلـك الرسـالة. كيـف يمكننـي؟ لم أرَ قـط بطنهـا ولم يكونـا هـما متحابـين. فكـرت فقـط في هـذا، أتمنـى أن يكـون يشـبهني ولا يشـبه أبـاه، وأن يكـون لطيفـا.

في مـا عـدا ذلـك كل شيء مـر بهـدوء. ليـس لـديّ كثـير لأقولـه عـن تلـك الفـترة. في الصبـاح كنـت أذهـب إلى دروسي وفي الظهـر كنـت أدرس. مـرة في الأسـبوع كنـا نخـرج في نزهـة في الحقـول القريبـة مـن

المبنى. نُظّم فريق لكرة القدم، ولكن رفضت الانضمام إليه. لم أكُن أحب أن أتحرك على الإطلاق، كنت أفضل أن أمكث في الفصل أو في المكتبة لأدرس. كنت أعرف أنه ما زال أمامي خمس سنوات لأكبر، وهكذا حاولت مجتهدا أن أصل إلى هذا. لم أعد أتحدث مع أحد. كنت أجيب فقط في المدرسة على الأسئلة. لماذا؟ لا أعرف، لم أكُن أريد هذا، لم يكُن لديّ ما أقوله.

بمرور الأشهر بدا لديّ الانطباع، أنني لم أعد كالخشب، ولكن كثمرة بدأت تجف. أعتقد أن السبب هو أنه خلف نافذة الفصل كانت توجد شجرة كاكي. كنت أراها كلها في الأيام المشمسة، وأرى ثمرها فقط في أيام الضباب. في البداية كان هناك الجذع والأفرع والأوراق والثمار المستديرة الناعمة ذات اللون البرتقالي الفاتح، ثم، تدريجيا، ذهبت الأوراق، وتحولت من الأخضر إلى لون الصدأ، ثم سقطت على الأرض، وظلت الفاكهة بلون حالك أكثر.

كل صباح كنت أنظر للخارج، وأقول لنفسي، لا بد أنها قد سقطت اليوم، لا بد أنها هناك على الأرض مسحوقة بين الأوراق. ولكن كل صباح كنت أراها هناك في مكانها، كانت دائما هناك، أصغر حجما، وأكثر احمرارا. كانت تفسد من الداخل، وهكذا كنت أنا. كان هناك صوت يقول لي، إنني يجب أن أستمر، وآخر يقول لي إنني لم أعد أرغب في الاستمرار.

إلا أنه في ذلك الوقت لم يصلني الطرد بملابسي الشتوية. لا الطرد ولا أي خبر آخر، وكدت أموت من البرد. هكذا في أحد الأيام، هل كان في فبراير؟ استجمعت شجاعتي في يدي وقررت أن أتصل. أجل، كان مسموحا لي، بل كان يمكنني أن أفعل ذلك بالفعل من شهرين. لماذا لم أفعل ذلك؟ ليس لسبب محدد، لم أفكر في ذلك وحسب.

على كل حال، في النهاية قررت، طلبت العملات الخاصة بالتليفون، وانتظرت الساعة المناسبة، الساعة التي كنت متأكدا فيها أنه يس في المنزل. كنت أقف هناك، داخل كابينة التليفون، وبينما سمع صوت جرس التليفون في السماعة، كان العرق المثلج ينزل على رقبتي إلى ظهري، ويغطيه كله. انتظرت طويلا، وعندما كنت متأكدا أنني عليّ أن أنهي المكالمة، أجابني صوت. لا أعرف لماذا، ولكن كان هو، بدلا من أن يذهب إلى المستشفى كان في المنزل. وجدت الشجاعة بأن أقول له من أنا، اسمي. لا أعرف لماذا قلته، ربما لأنني كنت أخشى ألا يتعرف عليّ من صوتي فقط. قلت نا وأجابني هو: «أتريد أمك؟»، وأنا قلت بالتأكيد: «أجل». ساد بعض الصمت، ومن جديد صوته، قال إن أمي لن تأتي لأنها تُرضع بننا، عندما تستطيع ستتصل هي بك، ودون أن يضيف شيئا آخر قطع الاتصال. مكثت أنا لوهلة ممسكا بسماعة التليفون في يدي. حتى هذا لم أفكر فيه، بأنها تعطيه اللبن. وبدلا من أن أشعر بالدفء شعرت بالبرد أكثر.

في ذلك اليوم بالتحديد بدأت بعض فاكهة الكاكي تتساقط، تنفصل. إذ رفعت رأسي قليلا حيث أجلس، كنت أراها تتبعثر حول لجذع، وانتشرت بين الأرض والأوراق كبقع من الدماء.

بين شيء وآخر حان وقت الكرنفال. اليوم الأخير، ذلك الذي يسبق طقس التوبة.

في ذلك اليوم في المدرسة الداخلية كان هناك حفل صغير وفي ذلك اليوم، ليلا، حدث شيء ما. عرفنا ما حدث في صباح اليوم لتالي. كان الجنايني هو من اكتشف ذلك قبل السابعة صباحا بقليل. كان أحد التلاميذ الأصغر مني، قد طلب مني مرتين أن

أساعده في واجباته. في أثناء الحفل كان بين أكثر السعداء، يضحك مع الجميع ويقفز هنا وهناك.

لم أرَ الجثة. فقط بعد ذلك في الساحة، رأيت على الإسفلت اللون الأحمر، والبقعة الكبيرة للأمعاء. لم يجعلونا نقترب، بالتأكيد كانوا يخافون أن يكون في وسطنا كلب مسعور، شخص عندما يرى الدم، يبغي المزيد منه. إلا أنني بمجرد أن رأيت تلك البقعة أدركت أن الأمر لم يكُن يتعلق بخطأ أو بأنه تعثر. لم يسقط ولكنه قفز قفزة قوية. كان قد سقط هناك مثل ثمار الكاكي عندما تكتفي من المكوث فوق الشجرة.

في الليلة التالية، تحسست قدمَي وذراعي وبطني. في أي مرحلة أنا؟ في الخارج كنت جافا، ذابلا، لم تكُن العصارة الليمفاوية تجري بداخلي على الإطلاق؛ كان يمكنك أن تضع بداخلي إبرة طويلة جدّا ولم أكُن سأشعر بشيء. فقط في مكان بعيد، بعيد جدّا، كان ما زال هناك شيء ما يتحرك. لم أعرف نوع الحركة، ربما حركة مادة ما تتحول من الصحة إلى الفساد. خفت بالتأكيد.

عندئذ جاء صوت. صوت ماذا؟ دائما الصوت نفسه، ذلك الذي يتحدث عندما أكون أنا بعيدا. قال لي هذا الصوت أن أذهب من هنا، أن أنقذ نفسي، بأنني لم أولد لأموت مثل ثمرة الكاكي. فيمَ كنت أفكر؟ لا أعرف، أتذكر فقط هذا؛ أمام عينَي كنت أرى أشكال المكتشفين، أولئك الذين يرحلون ولا يعرفون إلى أين هم ذاهبون، ثم يصبحون مشهورين. كنت أريد أن أبحر؟ ربما.

عندما تكون لدى المرء فكرة في رأسه، ولا يفكر في شيء آخر، ينجح في النهاية في تنفيذها. هكذا أنا أيضا مع فكرة الهروب. كانت تكفي لحظة شرود في أثناء نزهة حتى أختفي بين الأحراش.

ومـن هنـاك في الحقـول بأقـصى سرعـة.

لم أصل قـط إلى البحـر. لمـدة ثلاثـة أيـام، ذهبـت هنـا وهنـاك، في الغابـات المحيطـة. ثـم شـعرت بالجـوع والـبرد. وصلـت إلى محطـة، وجلسـت في صالـة الانتظـار. بينـما كنـت نائمـا مسـتلقيا عـلى إحـدى الأرائـك جـاء شـخص لمـس كتفـي وقـال: هـل لديـك تذكـرة؟ كان شرطيا بالتأكيـد. وإلا لمـاذا سـألني هـذا السـؤال.

التحقيق الرابع عشر

عـلى عكـس مـا توقعـت، لم يحـدث لي أي شيء سـيئ. مـن صالـة الانتظـار أخـذوني إلى المكتـب. انتظـرت تقريبـا لمـدة سـاعة ثـم جـاءت سـيدة تسـألني كثـيرا مـن الأسـئلة. لوهلـة فكـرت في أن أكـذب في كل شيء. نظـرت في وجههـا، وشـعرت أنـه لا فائـدة، فمكالمتـان هاتفيتـان يمكنهـم بهـما معرفـة كل شيء، وهكـذا قلـت لهـا إننـي هربـت لأننـي سـئمت مـن البقـاء في ذلـك المـكان. كانـت لـديّ عائلـة، وأخ صغـير لم أره قـط، وأريـد أن أمكـث معهـم. لم تقـل المـرأة شـيئا، أخـذت تكتـب وتكتـب. عندمـا لم تكُـن إجابتـي لهـا واضحـة كانـت تكررهـا ثـلاث مـرات، وتصوغهـا بشـكل مختلـف.

ثـم قالـت، حسـن هكـذا. جعلتنـي أوقـع عـلى ورقـة، وأخذتنـي إلى غرفـة، واختفـت دون أن تقـول شـيئا.

في تلـك اللحظـة لم أكُـن أفكـر سـوى في شيء واحـد. كنـت أفكـر مـاذا سـتفعل بي: إذا انتهـى الأمـر بي في السـجن، أو في أي مـكان مشـابه. لم تكُـن لـديّ أي فكـرة، ولا حتـى اسـتطعت أن أفكـر في شيء. وهكـذا انتظـرت وأنـا أشـعر بالـبرد. كنـت أشـعر بالـبرد والجـوع. لحسـن الحـظ جـاء شرطـي وسـألني إذا كنـت أريـد أن آكل شـيئا. قلـت أجـل.

أي شـطيرة، ولا يهـم مـا بداخلهـا. انتظـرت طويـلا، وغابـت الشـمس، وحـل المسـاء. كنـت قـد فكـرت في كل شيء تقريبـا، أنـه لـن يوجـد سـجن قـاس بهـذا الشـكل. لا بـد أنهـم تحدثـوا معهـم في المنـزل وأجـاب هـو: احتفظـوا بـه لديكـم، لا نريـده مـرة أخـرى، أجـاب هـو بهـذه الطريقـة كأنـه يتحـدث عـن الأشـياء التـي يبتاعهـا المـرء ويجـد أنهـا لا تعمـل. أو أيضـا، أنهـم لم يصدقـوا كلمـة واحـدة مـما قلـت، والآن يبحثـون في صـورة تلـو الأخـرى، وملـف تلـو الآخـر.

في لحظـة مـا شـعرت بنـوع مـن التعـب. حتـى وإن كنـت أفكـر وأفكـر، لم يحـدث شيء. وهكـذا أغمضـت عينـي، وأرحـت رأسي للـوراء واسـتندت إلى الحائـط، وأيقظتنـي ضوضـاء عـلى البـاب. دخلـت السـيدة ووراءهـا دخلـت أمـي، وقبـل حتـى أن أدرك قفـزت فوقـي، وضمتنـي بـين ذراعيهـا، وبينـما أنـا بـين ذراعيهـا اشـتممت الرائحـة التـي كنـت أشـمها عندمـا أنـام بجوارهـا. كان أحدهـم يتحـدث، كانـت هـي. أخـذت تقـول: منـذ أن علمنـا مـن المدرسـة تألمنـا كثـيرا! يـا كنـزي هـل أنـت بخـير؟ كانـت تقـول هـذا وهـي تمـرر يدهـا بـين شـعري، وعـلى وجهـي، وعـلى عينـي، كانـت تحسـس عـليّ كأننـي قـد مـت بالفعـل، أو كأنهـا لم تـرني قـط.

بعـد هـذا ذهبنـا إلى حجـرة أخـرى. هـي أيضـا كان عليهـا أن توقـع بعـض الأوراق. بمجـرد أن انتهـت، شـدت عـلى يـد الجميـع، وأخـذت تقـول: أشـكركم، أشـكركم! لا أعـرف كيـف يمكننـي أن أشـكركم.

قلـت لهـا إنهـم كانـوا لطفـاء. اصطحبتنـا المـرأة التـي كانـت قـد اسـتجوبتني حتـى المدخـل، ومكثـت هنـاك لتصافحنـا بيدهـا، بينـما ننـزل السـلالم.

عـلى الناصيـة كانـت هنـاك سـيارة تنتظرنـا. كان هـو بالداخـل،

ومعـه كان أخـي الصغـير. صعـدت إلى السـيارة ولم أعـرف مـاذا أقـول، كنــت خائفــا أيضــا بعــض الــشيء، وهكــذا وبمجــرد أن رأيــت تلــك الحزمـة، قلـت: «أوووه، كيـف حالـك؟». كان الصغـير نائمـا. ربمـا شـعر بالخـوف، وربمـا أيضـا لم يعجبـه وجهـي. عـلى الفـور فتـح عينيـه، وبـدأ يـصرخ كالمجنـون.

عندئـذ أخذتـه أمـي عـلى ذراعهـا ولكن لم تنجـح في تهدئتـه. كان هو يقـود ويـد عـلى مغـيّر السرعـات، كان يقـود بسرعـة شـديدة، ويفرمـل قليـلا، وشـفتاه مضمومتـان. كنـا عـلى بُعـد سـاعتين مـن المنـزل، وقطعنا الطريـق كلـه بهـذه الطريقـة. حتـى عندمـا عـاد الطفـل لينـام مـن جديـد، لم تنطـق أمـي ومعهـا زوجهـا ببنـت شـفة. كنـت أريـد أن أقـول أنـا شـيئا مـا، كنـت أريـد أن أقـول إن الصغـير جميـل، وإننـي سـعيد لأننـي معهـم، إننـي سـأكون ولـدا صالحـا إلى الأبـد. كنـت أرغـب في قـول ذلـك، ولكننـي لم أقلـه، ظـل لسـاني ثابتـا. كان يبـدو مصطنعـا، مـن الخشـب أو مـن الزجـاج.

خطــر ببــالي فيلــم كرتــوني: كانــت هنــاك قنبلــة ســوداء لامعــة ومســتديرة بفتيـل طويـل، كان الفتيـل مشـتعلا، وأدرك الجميـع هـذا، لم يرغـب أحـد في الإمسـاك بهـا، أخـذوا يجـرون هنـا وهنـاك كل منهـم يلقــي بهــا مــن يــد لأخــرى، وهكــذا عندمــا انفجــرت كانــوا كلهــم ما زالوا حولها.

مــاذا إذن كان حقيقيــا؟ حضــن أمــي في المكتــب أم الصمــت في السـيارة؟ مـاذا كان حقيقيـا ومـاذا لا؟ كنـت أسـأل نفـسي ولم أسـتطع أن أرد عليهــا.

في المنــزل شيء مــا قــد تغــير. أصبحــت غرفتــي هــي غرفــة أخــي الصغـير. كان هنـاك فـراش صغـير جـدّا مـن الخشـب الأبيـض بداخلـه

دب فـرو وضـوء يعـزف الموسـيقى، ويتحـرك في الوقـت نفسـه.

قالـت أمـي: «يمكنـك أن تنـام في المطبـخ، في مـكان مـا لا بـد أنـه مـا زال هنـاك سريـر المعسـكرات»، ودون أن تضيـف شـيئا آخـر ولا تنظر إليّ في عيني، أخذت تبحث عنه.

التحقيق الخامس عشر

أخـيرا كنـت في المنـزل مـن جديـد. لم يكُـن هـو بالتحديـد المـكان الـذي رغبـت في الذهـاب إليـه، إلا أننـي كنـت هنـاك. كنـت أفكـر عندئـذ أن كل شيء سيسـير عـلى مـا يـرام، وكيـف يمكـن أن يسـير؟ إلا أننـي نسـيت قصـة السـيارتين.

قضيـت تلـك الليلـة عـلى سريـر المعسـكر. وبينـما أنـا في نـوم عميـق، نـوم حيـوان قـد هـرب لفـترة طويلـة، اسـتيقظت وكان كلاهـما في المطبـخ، كانـا يتنـاولان الإفطـار. أغمضـت عينـي، وتظاهـرت بأننـي مـا زلـت نائمـا حتـى يخرجـا، ثـم اسـتيقظت ووضعـت ملابـسي عـلى مهـل. كان يبـدو لي مسـتحيلا عـدم وجـود جـرس مثلـما كان الحـال في المدرسـة الداخليـة، والـذي كان يجعلنـي أفعـل كل شيء بسرعـة. أكلـت شـيئا مـن الثلاجـة، ثـم بـدأت ألـف هنـا وهنـاك في أنحـاء المنـزل. فتحـت الخزانـات والأدراج أبحـث في كل مـكان. بطبيعـة الحـال كنـت أبحـث عـن أشـيائي، عـن ملابـسي الثقيلـة، وعـن مجموعـة الصخـور، وزوجَـي العصافـير الخـضراء. أخـذت أبحـث وأبحـث ولم أعـثر عـلى شيء، أو مـن الأفضـل أن أقـول إنـه بعـد بحـث سـاعتين عـثرت عـلى قفـص العصفوريـن في المخـزن، بـلا عصافـير، وفي مكانهـما كان يوجـد عنكبـوت ضخـم جـدّا، صنـع عشـا لـه بـين قضبـان العـش.

في ساعة الغداء لم يعودا. كان الطفل في الحضانة. مكثت بمفردي حتى المساء.

في البداية وصلت أمي. صعدت السلالم والطفل بين ذراعيها، أبتسم وأذهب للقائهما. أبتسم أيضا عندما تضع الطفل على المائدة لتغير له حفاضته. ينظر الطفل حوله، وفي اللحظة التي أعتقد فيها أن عينيه تنظران إليّ، إلى وجهي، أبتسم أكثر، بل تقريبا أضحك. في تلك اللحظة يحدث شيء، لم أتوقع حدوثه، يبتسم هو أيضا لي. بينما هو يبتسم لي، وأنا أجيبه، يدق جرس الباب وتذهب أمي لتفتحه، عندئذ أنحني وأحمله بين ذراعي، كان ناعما وخفيفا جدّا، وأستمر في الضحك. وهكذا عن قرب، أنظر إليه في هدوء، وأدرك أنه، بالفعل، يشبهني، له فمي وعيناي، ولا يشبه أباه.

وبينما نقف هناك، نضحك معا، دخل الاثنان إلى الحجرة. تنظر إليّ أمي ولا تقول شيئا. يراني هو ويصرخ: «اتركه»، وينزعه من يدي. ويبدأ الصغير على الفور في الصراخ، يتحول وجهه إلى اللون الأحمر ويصرخ. لا أعرف ماذا أفعل. أقف واضعا يدَيّ في جيبي، ربما اكتسى وجهي أنا أيضا باللون الأحمر، شعرت بالخجل ولم أعرف من ماذا. ثم خرجت وذهبت إلى المخزن، وهناك انتظرت حتى ساعة العشاء.

لديّ ساعة بالتأكيد. كانت هدية منذ سنوات عديدة مضت وقت مناولتي الأولى. أنظر إليها وأجد العقارب تتوقف على الثامنة، أصعد إلى المطبخ. كانا يأكلان بالفعل، يبدو أنهما لا يدركان حتى أنني دخلت. أقترب من المائدة، أصل لمكاني، وأجد أنه لا طبق لي، ولا كوب، ولا حتى أدوات المائدة، لا شيء، فقط المفرش ناصع البياض.

ماذا أفعل؟ أقف هناك كالعمود، أنظر إلى طبقيهما، ومكاني الفارغ. أقف هناك لوهلة ثم أقول: «وأنا؟» أقول هذا، ولكن لا أحد يجيبني، يستمران في تناول الطعام بهدوء وفي صمت، وعينا كل منهما على طبقه. أنتظر لبعض الوقت، وعندما تبدأ أمي في غرف الطبق الثاني، أذهب. أنزل إلى الشارع، من أسفل إلى أعلى أنظر إلى النوافذ المضيئة. بمجرد أن يُطفأ النور أتحرك وأتجول قليلا. ليس لديّ مفتاح. بعد ذلك، لأدخل، كنت مجبرا على دق الجرس. فتحت لي أمي، كانت ترتدي رداء النوم والروب. بمجرد أن صعدت السلالم قالت لي: «ربما تتساءل لماذا لا يوجد لك مكان على المائدة..»، ولأقول أجل، حركت رأسي فقط. عندئذ قالت هي: «أترى، كان عليك البقاء في المدرسة الداخلية حتى شهر يونيو. نظرا لأنك ارتكبت تلك الحماقة، وتركتها دون أن تطلب إذننا، لا بد أن نتركك، رغما عنا، أن تمكث في المنزل. فأنت هنا، ولكن بالنسبة إلينا كأنك لست موجودا، سنتظاهر بأنك ما زلت في المدرسة. لا نستطيع أن نتصرف بشكل آخر. كان هذا هو الاتفاق. أنت الذي كسرته بيديك. هذا لمصلحتك، هل تفهم؟».

كنت أعتقد أنها تمزح، بالتأكيد. كيف يمكن أن يكون شيء مثل هذا حقيقيا؟ وهكذا أومأت، صافحتها، ووصلت إلى سرير المعسكر، ونمت.

فقط في الأيام التالية أدركت أن الأمر حقيقي بالفعل. لم يقل لي أحد صباح الخير أو نوما سعيدا، لم يتحدث معي أحد. كان مكاني على المائدة دائما خاليا. ماذا أفعل؟ كنت أمكث في المنزل أقل فترة ممكنة. أتجول في الطرقات طوال اليوم، أعود إلى المنزل لأنام، وآكل شيئا من الثلاجة. أين أذهب؟ لا أتذكر، كنت أتحرك في الطرقات مثل الرجل الآلي، مثل خيال مآتة للمارة.

مرتـين، فجـأة، واتتنـي فكـرة أن ألقـي بنفـسي أسـفل السـيارات. أفكـر في هـذا، لكـنّ قدمَـيّ لا تسـتجيبان، وبالتـالي لا أتحـرك. أحيانـا، في سـاعة الغـداء، كنـت أذهـب خـارج المدرسـة، كنـت أقـف هنـاك وذراعَـاي معقودتـان، أنظـر إلى الأطفـال الذيـن يخرجـون كأننـي ولي أمـر. عندمـا كنـت أرى أحدهـم يخـرج بسرعـة ويحتضـن أمـه أو أبـاه، كان شيء بداخـلي يُكسَر مـن جديـد، وأشـعر بنـار تشـتعل في أمعـائي، ومـن أمعـائي تصعـد إلى عينـيّ، وأرى اللـون الأحمـر، يبـدو لي أن القلـب اللـين والسـاخن لـلأرض قـد أصبـح بداخـلي، وأنـه انفجـر. كانـت تلـك هـي اللحظـات التـي أكـون فيهـا عـلى يقـين للحظـة بأننـي لم أمـت بالفعـل.

أجـل، كـما قلـت لـك، لآكل، كنـت أفتـح الثلاجـة بينـما هـما في الخـارج أو في أثنـاء نومهـما. كنـت آكل مـا أجـده دون أن أنتبـه كثـيرا. لم أكُـن أعـرف أن هـذا ممنـوع، كيـف كنـت سـأعرف هـذا إذا لم يقلـه لي أحـد؟ عـلى كل حـال في ليلـة مـا قبـل أن أنـام تناولـت رنجـة بالزبـد.

في الحقيقـة، لم أكُـن أهتـم كثـيرا بتغذيـة نفـسي، بـل لم أكُـن أهتـم بـأي شيء، ولكـن كـما هـو معـروف، الغريـزة هـي آخـر مـا يمـوت فينـا، كنـت أنـا تقريبـا بـلا وجـود ولكنهـا كانـت مـا زالـت موجـودة. آكل تلـك الرنجـة بـلا أي شـهية، ثـم أسـتلقي عـلى السريـر.

تلـك الليلـة عـاد هـو متأخـرا. عـاد وعـلى الفـور فتـح الثلاجـة. مكـث بعـض الوقـت أمـام بابهـا المفتـوح، ثـم صـاح: مـن أكل رنجتـي؟ وبـدأ في الـصراخ. ورأسي أسـفل الأغطيـة أسـمعه وقـد ذهـب إلى هنـاك، لأمـي، وهـو يـردد بصـوت قـوي: «لقـد أكلهـا ابنـك هـذا ابـن الزنـا! لقـد أكلهـا كلهـا ليضايقنـي». لم يصلنـي صوتهـا، لا أعـرف إذا التزمـت الصمـت، أم أجابتـه بصـوت منخفـض. إلا أنـه يعـود ليسـير في المنـزل

وهــو يــصرخ ويحطــم كل مــا يمكنــه تحطيمــه. وأنــا مــاذا أفعــل؟ نهضــت، وهربــت، واختبــأت في خزانــة. كنــت أعــرف أنــه إن عاجــلا أو آجــلا ســيصل إليّ. ومــن خلــف البــاب أســمع أنــه ذهــب إلى المطبــخ، أســمعه يقلــب سريــري بركلــة، ويــصرخ بقــوة أكــبر، ويســتمر في البحــث عنــي، وأنــا أتمنــى فقــط شــيئا واحــدا، أن يتعــب. إلا أنــه في كامــل قوتــه، وفي أقــل مــن خمــس دقائــق يفتــح الخزانــة ويجــدني.

أفكــر: الآن ســأتقيأ كل شيء في وجهــه. إلا أنــه هــو نفســه فكــر في الــشيء نفســه. وضــع ملعقــة في فمــي كــما يضعهــا الأطبــاء، وجعلنــي أتقيــأ.

يقــف كل منــا في مواجهــة الآخــر، والقــيء بيننــا. أنــا، الدمــوع في عينــي، بســبب الجهــد الــذي بذلتــه، وهــو يلهــث. وبمجــرد أن اســتعاد أنفاســه، قــال: لا تحلــم بعــد الآن أن تــأكل مــا يخصنــي مــن الثلاجــة! ويصفعنــي بكفــه مرتــين وأكاد أســقط أرضــا. في تلــك الليلــة نمــت في الخزانــة. التحفــت بالملابــس مثــل ذئــب شــتاء في مخبئــه.

في الأشــهر التاليــة لم يحــدث شيء معــين. كان هــو يــزداد عصبيــة بعــض الــشيء. وعندمــا لا تــراني أمــي، كنــت أنظــر إليهــا خفيــة، وكان لــديّ الانطبــاع أنهــا عــلى الرغــم مــن تظاهرهــا بالســعادة، كانــت في الحقيقــة تعيســة. في ذلــك الوقــت كــبر أخــي الصغــير، وتعلــم كيــف يمــشي عــلى أربــع. كان يعــرف فقــط كيــف يســير إلى الخلــف، وهكــذا كان يــرى شــيئا مــا، ويرغــب في الاقــتراب منــه، ولكنــه كان يبتعــد، وكلــما عــاد إلى الــوراء بــدأ يــصرخ بقــوة، كان هــذا يغضبــه.

كنــت أتمنــى لــو لمســته، لــو حملتــه بــين ذراعــي، كنــت أشــعر بحرارتــه، ولكننــي لم أكُــن أســتطيع؛ لم يكُــن مســموحا لي، وهكــذا كنــت أنظــر إليــه مــن بعيــد فحســب.

قبـل الصيـف بقليـل، بـدأ زوج أمـي يغضـب أكـثر فأكـثر. كان غيـورا مـن جديـد، وكان تقريبـا يعـود مخمـورا كل ليلـة. كنـت أختبـئ حيـث أسـتطيع، كنـت أبحـث عـن مـكان مضمـون قبـل ميعـاد العشـاء، ولـكي لا يعـثر عـليّ كنـت أغـير المـكان في كل مـرة، ومـن هنـاك كنـت أسـمعه يـصرخ. كان يصيـح، أيضـا هـذا مثـل الآخـر، ابـن حـرام! أيتهـا العاهـرة، الكلبـة، الزانيـة، تنامـين مـع أي شـخص.

كان يقـول هـذا لأمـي. لم أكُـن أعـرف مـاذا كانـت تقـول، لم أسـتطع سـماعها، كنـت بعيـدا جـدّا. عندمـا كانـت تكـون في مناوبـة الليـل، وليسـت بالمنـزل، كان يفعـل معـي الـشيء نفسـه، وكنـت أنـا قـد تعلمـت أن أهـرب منـه بسرعـة، كنـت أرتـدي دائمـا حـذائي الريـاضي، وأجـري بسرعـة. كان هـو مخمـورا ولم يكُـن يسـتطيع قـط الإمسـاك بي. في كل تلـك الشـهور أمسـك بي فقـط مرتـين، كنـت ملقـى هنـاك أسـفل قدميـه، وضرباتـه تصلنـي. أجـل، كانـت تصـل كعلامـة، ولكـن كانـت كأنهـا لا تصـل إليّ حيـث لم أكُـن أنـا هنـاك، كنـت أشـغل في تلـك اللحظـة الطيـار الآلي.

وهكـذا، في أثنـاء اليـوم، عندمـا كنـت أتجـول في الطرقـات، كنـت أشـعر بالاضطـراب أكـثر، لم أكُـن موجـودا لآكل، ولأنـام، ولأتحـدث، كنـت أوجـد فقـط في الليـل، أوجـد فقـط كـشيء يلقـي عليـه توتـره العصبـي.

إن قانـون الكهربـاء - تعرفـه أليـس كذلـك؟ - إذا شُـحن شيء مـا، وشـحنته مـرة أخـرى، يحـدث شيء مـا، ومـع تراكـم الشـحَن أكـثر مـما ينبغـي، ينفجـر.

ونصـل هنـا إلى بدايـة شـهر يونيـو. وفي تلـك الأيـام يحـدث شيء، تمـرض أمـي. لم أكُـن أعـرف مـاذا أصابهـا، أتى أيضـا الطبيـب ولم يعـرف مـاذا يقـول. في كل الأحـوال كانـت هـي تمكـث هنـاك في الفـراش وعيناهـا

مغلقتـان كالميتـة. عندمـا نكـون في المنـزل بمفردنـا كنـت أقـف أمـام البـاب أنظـر إليهـا.. لم تكُـن هـي تـراني، عـلى الأقـل هكـذا اعتقـدت حتى أشـارت إليّ بيدهـا في صبـاح أحـد الأيـام بـأن أقـترب منهـا، عندئـذ اقتربـت، وصلت إلى فراشـها عـلى أطـراف أصابعـي، مكثـت بالقـرب منهـا دون أن أعـرف مـاذا أقـول، وهـي أيضـا التزمـت الصمـت، إلا أنهـا فتحـت عينيهـا قليـلا، بحثـت بيدهـا عـن يـدي، وفي النهايـة وجدتهـا وضمتهـا بقـوة.. أدركـت أن يدهـا كانـت بـاردة، بـاردة جـدّا، بـاردة أكـثر مـن يـدي.

أخــي الصغــير؟ لا، لم يكُــن موجــودا. في بدايــات أعــراض المــرض، أرسـلوا بـه إلى الريـف لـدى خالتـي حيـث كنـت أذهـب أنـا أيضـا.

عـلى كل حـال، لأختـصر، عـلى الرغـم مـن كونهـا مريضـة لم يتوقـف هـو عـن العـودة مخمـورا، بـل يبـدو أن واقـع كونهـا طريحـة الفـراش كان يغضبـه أكـثر، وهكـذا في كل ليلـة كنـت أختبـئ، كان هـو يبحـث عنـي، ويبحـث عـن أمـي. يسـير فـوق وتحـت وهـو يـصرخ، ويكـسر كل شيء، إلـخ إلـخ. يعتـاد المـرء عـلى كل شيء، أليـس كذلـك؟ حتـى عـلى هـذا. بمـرور الوقـت يبـدو هـذا أيضـا أمـرا طبيعيـا، شـيئا مثـل أي شيء.

ثـم في إحـدى الليـالي عـاد هـو مخمـورا أكـثر مـن أي مـرة. في ذلـك اليـوم كانـت حالـة أمـي سـيئة جـدّا. سـمعته يـصرخ بالفعـل مـن الشـارع، يصعـد السـلالم، يمـر مـن أمـام خزانتـي، ويتجـه مبـاشرة إلى غرفـة أمـي. أسـمع بالتأكيـد، وبعـد قليـل، نظـرا لأنني لم أسـتطع أن أسـمع، فتحـت بـاب مخبئـي، فقـط عندئـذ وصلنـي بوضـوح صـوت الصرخـات والضربـات. أسـمع أيضـا صـوت أمـي، تبـدو كأنهـا تزقـزق، كأنهـا تبـكي، أو عـلى وشـك البـكاء.

مـن حـين إلى آخـر نقـرأ في الجرائـد، أليـس كذلـك؟ رجـل ضعيـف أو جبـان يجـد نفسـه وقـد اجتاحتـه قـوة غـير آدميـة في الظـروف

الاستثنائية، ويصبح قادرا على أن يفعل أي شيء، ويتصرف كأنه ليس هو ولكن كائن لا يمكن التغلب عليه.

هكذا حدث لي في تلك الليلة. دون أن أفهم أي شيء فتحت باب الخزانة على مصراعيها وخرجت، عبرت الردهة بخطوات أسد، واقتحمت حجرتهما وعضلاتي مشدودة، وصدري منتفخ. كانت هي في الأرض، وكان هو ممسكا بسكين فوقها. أتذكر هذا حتى الآن، أنا أقترب من أمي التي تصرخ «لا!»، عيناه مندهشتان، ثم كل ذلك الدم الذي سال فوقي، إلا أنني لا أتذكر بالتحديد ديناميكية الحركات، وكيف انتقل السكين من يده ليدي، ومن يدي لبطنه. وبينما لا يزال السكين في يدي انتفضت إلى الوراء، وهربت بعيدا قبل أن أدرك ما حدث.

وفي الشارع، غسلت يدي في أول نافورة قابلتها، أخذت أدعكها كثيرا تحت الماء. اختفت الدماء سريعا ولكن الرائحة لم تذهب، مكثت بداخلي، من خلال طريق سري، مثلما حدث مع السمكة، من الأصابع ذهبت إلى هناك بين المنخارين، ثم إلى المخ.

تجولت في المدينة لمدة أسبوع بأكمله. كنت أدور فيها طوال الليل، لم أكُن أقرأ الصحف، لم أكُن أعرف إن كان قد مات أم لا. لم أكُن أنا الذي أتحرك ولكن الطيار الآلي، الحيوان المتوحش ذو الأحشاء المتفجرة.

في تلك الأيام سددت أربع ضربات.

عثروا على الأجساد الثلاثة الأولى تقريبا على الفور، الرابع ما زالوا يبحثون عنه. كنت أنتظرهم جميعا خارج المدرسة. كانوا أكبر من الأطفال بقليل، كل مرة كنت أذهب خارج مدرسة مختلفة. كنت أختارهم لهذا، لأن أحدا لم يذهب ليأخذهم. كنت أقترب بحرص، وأنا أبتسم، وأقول لهم إنني قريبهم من بعيد، كانوا يتبعونني فرحين

وبسرور. كنت أريد أن يظلوا مسرورين للأبد.

أعتقد أنك تعرف كل شيء عن أول ثلاثة، قرأت ذلك في التقارير الطبية، أليس كذلك؟ خنق، شذوذ، إلخ إلخ. جثة الرابع إذا أردت يمكنك أن ترسل أحدا ليأخذها، لا بد أنه هناك مدفون بالقرب من مستودع النفايات القريب من السكة الحديدية.

كان أصغرهم جميعا، سبعة أعوام أو ثمانية على الأكثر، وجه هادئ وذكي. فقط معه هو، بعد أن ظل بين ذراعَي بلا أي نَفَس، شعرت بهذه الرغبة، عندئذ دون أن أفكر، مزقت صدره بالسكين، كان طريا، وفُتح إلى اثنين كأنه الزبد.

على شمال عظام الصدر كان قلبه، وكان ما زال ينبض.

وبدلا من أن ألقي بنفسي عليه، نزعته إلى الخارج بحرص كالشيء الثمين. بمجرد أن انتهيت من القضمة الأولى حل بداخلي هدوء عظيم، سلام، بعد أعوام طوال، للمرة الأولى أشعر بالدفء.

قُبض عليّ بعد ذلك ببضع ساعات، بمجرد أن رأيت تلك السيارة فهمت كل شيء، لم يضطروا لمطاردتي، فلقد انتظرتهم بثبات، ويدي في جيبي.

عندما وصلت إلى هنا بالدخل، عرفت أن زوج أمي لم يمت، كانت إصابته مجرد إصابة سطحية.

هل تعتقد أنني لو كنت عرفت هذا من قبل لما قتلت الآخرين؟ من يدري؟ سيادتك؟

بالتأكيد كان عقابي سيكون أبسط. هل أشعر بالندم؟ بالحزن؟ لا توجد أي أهمية لما أشعر به في داخلي. في نهاية الأمر، فهو موضوع السيارتين. ستصطدمان؟ لن تصطدما؟

كل شيء يتوقف على الساعة التي رحلا فيها.

تحت الثلج

هلسنكي، 28 من فبراير 1969

عزيزي،

هأنذا في فنلندا من أجل واحد من المؤتمرات العديدة. استمر المؤتمر ثلاثة أيام، وبالأمس كان هناك عشاء الوداع للمشاركين، ولكن لم تكُن لديّ أي رغبة في أن أذهب، قلت لهم إنني لست على ما يرام، وانسحبت إلى غرفتي.

ذهبت سيرا على الأقدام من صالة المؤتمرات إلى الفندق. على الرغم من أننا تقريبا في شهر مارس إلا أن الثلج لا يزال مرتفعا. طوال الطريق توقفت أكثر من مرة أمام المنازل الخشبية. كان الوقت ظلاما، وعلى أرفف النوافذ كان كثير من الشموع المضيئة. شرح لي أحد الزملاء من هذه البلدة أن الأمر يتعلق بعادة منتشرة، بهذه الطريقة، في أثناء فصل الشتاء، يعطون الانطباع بأن اليوم يستمر لفترة أطول. إلا أن هذا الظلام الحذر لم يضايقني على الإطلاق. من النوافذ المضيئة ينعكس على الطرقات الشعور بحميمية كبيرة، ولكن مع وجود احتمالات بأن الأمر يتعلق بفكرة مغلوطة. تُرى أي جحيم صغير يختبئ أيضا بالداخل! إلا أنني في أثناء تجوُّلي في تلك الطرقات الخاوية الصامتة التي يغطيها اللون الأبيض لم أستطع مقاومة الشعور بأنني مثل ذات الشعر الذهبي،

تلك الفتاة الصغيرة التي دخلت خفية إلى منزل الدببة الثلاثة. كنت أنا أيضا أود الدخول واحتساء كوب من الحليب الساخن، وأن أندسّ أسفل غطاء سميك وأنام نوما عميقا دون أن أفكر في أي شيء.

هل تعرف؟ كثيرا ما توجد أحلام لا بد لنا من تنفيذها، أحلام نتمناها بشدة بأعيننا المفتوحة، والتي عندما نغمضها لا تعود لها الأحلام أبدا. أنا أحلم دائما أنني أحلم بهذا.

أسير بداخل عاصفة من الثلج، ثم أرى نور أحد المنازل: لا يوجد أحد، ولكن البيت يبدو رحبا جدّا، عندئذ أخلع عني ملابسي، ومكانها أرتدي قميص نوم من قماش الفانلة، وأختفي بداخل فراش ضخم جدّا من الخشب، عليه لحاف مغطى بالقلوب الحمراء الصغيرة. أمكث هناك وأنام. أسمع صوت الثلج يتساقط ويدَاي ممسكتان بالأغطية، أسمع واحدة تلو أخرى وهي تسقط وتستقر على السقف. لم أسأل نفسي أي شيء، ولا أتوقع شيئا؛ أتنفس، أشعر بالسعادة هكذا فحسب. للحظة شعرت بأنني لم أفهم فقط العالم ولكن بأنه أيضا يحتويني بداخله، فأنا الآن شيء ساكن بين الأشياء الساكنة.

أيضا أمس مساء في اللحظة التي أغمضت فيها عينَيّ بين الأغطية الباردة والمجهولة للفندق، عبّرت عن رغبتي في هذا الحلم. فكرت فيه بكل ما أوتيت من قوة، وكنت أكاد أجزم بأنه سيحدث. إلا أنني حلمت بشيء آخر؛ بأنني أصبحت صغيرة جدّا، ووجدت نفسي سجينة في منزل العرائس الذي كان لي في طفولتي. كان منزلا ذا طابقين، من الخشب الخفيف، بأبواب ونوافذ وعديد من الأثاث الصغير جدّا، وكانت واحدة من عرائسي تجلس على

مائـدة الطعـام. بالإطـلال مـن النافـذة رأيـت غرفتـي، حـذاء هنـا وآخـر هنـاك، الكتـب مفتوحـة عـلى المكتـب، ولكـن كان كل شيء يبـدو متروكا، مهجـورا منـذ زمـن. حاولـت التحـدث ولكـن صـوتي لم يخـرج، عندئـذ اقتربـت مـن الفـراش الصغـير وتمـددت فوقـه. لا أعـرف كـم من الوقـت مكثـت هنـاك، ولكننـي أعـرف أنـه بينـما أنـا هنـاك، بينـما أنـا في هـذا الوضـع، سـمعت في البدايـة صوتـا منخفضـا، ثـم صوتـا أعـلى، كان صـوت طفـل.

حتـى وإن لم أسـتطع تمييـز الكلـمات، فهمـت أنـه لم يكُـن يتحـدث ولكنـه يغنـي، أغنيـة بهـا قـرار، مـن حـين إلى آخـر كان يتوقـف ويضحك باسـتمتاع. عندئـذ حاولـت النهـوض، وأن أحـرك ذراعـي وقدمـي، ولكننـي أدركـت أننـي لا أسـتطيع، لأننـي مـن رأسي إلى قدمـي أصبحـت مغطـاة بطبقـة مـن الثلـج. حاولـت أن أصرخ، ولكـن الصرخـة ظلـت مخنوقـة بداخـل الثلـج، إلا أنهـا تفجـرت في الحجـرة، واسـتيقظت عـلى صـوت صراخـي.

الآن أنـا هنـا بملابـس نومـي أجلـس عـلى المكتـب الصغـير بجـوار النافـذة. أحـضر لي صبـي صغـير الإفطـار. بعـد أن أكلـت شـعرت بتحسـن. نظـرت إلى السـاعة، مـا زال أمامـي أربـع سـاعات كاملـة عـلى ميعـاد المطـار، وهكـذا دون حتـى أن أعـرف تفسـيرا لتصرفـاتي، أخـذت ورقـة مـن أوراق الفنـدق، وفعلـت ذلـك الـشيء الـذي لم تكُـن لـديّ قـط الشـجاعة لأن أفعلـه. كتبـت لـك خطابـا.

روما، الأول من مارس 1969

عـدت إلى المنـزل منـذ سـاعتين. أفرغـت مـا في حقيبتـي، ووضعـت مـا يجـب تنظيفـه في الغسـيل، أعـددت لنفـسي كوبـا مـن الشـاي،

وشربته وأنا أجلس في الصالة أمام التلفاز المطفأ. لم يجب أن أبدأ في كتابة هذا الخطاب قط، كان الأمر يتعلق بلحظة من الضياع ومن الضعف. أنا امرأة قوية - على الأقل هكذا يعرفني الجميع - لم أستسلم قط لشيء، إلا أنني استسلمت الآن، وأشعر بأنني لا يمكنني التراجع. إنه شيء يشبه فتح صنبور المياه، فالمياه تجري ولم أعد أستطيع أن أوقفها. إنها مقارنة عادية جدّا، ولكنني لم أنجح في العثور على مقارنة أخرى أفضل، بالإضافة إلى أن التشبيهات المبدعة لم تكُن قط قوية عندي.

كان يرافقني في رحلة العودة مدير المؤسسة. لأعلن له قرار تركي العمل انتظرت حتى الإقلاع. كان يعتقد أني أمزح. قال وهو يضحك: «إن هذا المؤتمر عن الاعتلال المناخي قد أطاح برأسك». ابتسمت وأجبته بأن رأسي لا يزال بين كتفي. كنت أعرف أن ذلك هو ما أنا على وشك عمله، فكرت في الموضوع طويلا. فوجئ بحسمي، وقال: «هل تشعرين بأنك تقدمت في السن؟ أنت تعرفين، حتى وإن كانت هناك فتياتٌ كثيراتٌ جديدات، إلا أنكِ ما زلت الأفضل في المؤسسة بأكملها. الجميع يحبونك ويحترمونكِ».

حاولَت أن أعرض عليه أسبابي العملية. قلت لَه: «الآن وقَد ماتت أمي، لم أعد بحاجة لأن أعمل؛ لقد تركت لي كثيرا من الممتلكات التي تسمح لي بأن أعيش مئة عام أخرى دون أن أفعل شيئا». ثم قلت له أيضا إنني أشعر بالتعب ولم أعد أشعر بأنني أرغب في الذهاب إلى جزء آخر من العالم لأترجم ما يقوله الناس.

عندئذ قال إنه يفهم. لم يكُن من النادر، في الواقع، أن تشعر السيدات في مثل عمري بالإنهاك، ولكن مع قليل من الراحة، ورحلة ترفيهية، سرعان ما سيحُل كل شيء. واختتم كلامه:

«لماذا لا تذهبين إلى المكسيك؟ يبدو أنه بلد جميل».

ابتسمت، ولمس هو يدي. عشرون عاما من العمل سويا كانت كأنها علاقة زواج. قلت له: «ألبرتو، من الآن فصاعدا، يوجد مكان واحد فقط أرغب في المكوث فيه، وهذا المكان هو منزلي».

لوهلة مكث في صمت، ووجهه مثل وجه طفل مهموم، ثم فجأة، بدأ يحدق في عيني، ثم قال بصوت منخفض: «إذن فهو الحب؟».

في تلك اللحظة دخلت الطائرة في سحابة ضخمة. فكرت في الخطاب وأجبته: «أجل، بطريقة ما، نعم».

أنظر إلى منزلي، المنظم، الرائع. المنزل الذي يتوقع الجميع أن يكون عليه منزلي. يوجد به أثاث ذوقه جميل، بعض الأشياء القديمة الخاصة بالعائلة، ومطبخ حديث. على المائدة في الصالون الزهور دائما نضرة، منسقة بأناقة. بعد عودتي من العمل طويل المدة كنت أشعر بأن هذا المكان هو ملجئي. كانت لديّ تصرفاتي الصغيرة، عاداتي الصغيرة لشخص وحيد.

حتى العام الماضي، في الطابق الأعلى كانت تسكن أمي، في العادة كنت أنا من يصعد، كنت أذهب لأزورها بعد العشاء، كي أطمئن أن كل شيء على ما يرام، ثم أنزل مرة أخرى إلى شقتي. كانت تلك الزيارات وذلك القرب، بدلا من أن يجلبا الراحة، يشكلان عبئا.

حب؛ ربما هذا ما كان ينقص تماما. اعتنت هي بي عندما كنت طفلة، وأنا اعتنيت بها في شيخوختها، ولكن خلال الأعوام الطويلة لم يكُن هناك قط أي إيماءة، ولا واحدة فقط، تشعرني بأن الأمر يختلف عن كونه مجرد واجب. كان في إمكاني التمرد بالتأكيد،

ولكن كان عليّ أن أفعل ذلك مبكرا جدّا، تقريبا في البدايات. ماذا سيكون معناه عندما شاخت هي؟ ماذا كان سيغير في حياتي؟ لقد قررت هي حياتي، ولم أستطع أن أفعل أنا أي شيء سوى أن أتبعها. كلب العميان، هذا ما كنت أشعر به دائما، ذلك الحيوان الطيب والهادئ الذي يمكن للجميع أن يثقوا به. هل كان بإمكاني أن أخون ثقة الجميع؟ لا، لم أستطع. هل تعرف أن الجبن يقل مع التقدم في السن؟ عندئذ يبدأ المرء بالتفكير في كل الأشياء التي كان يمكنه فعلها ولم يفعلها، ويبدأ في النظر إلى حياته الآمنة والهادئة كأنها سلسلة متصلة من الفراغات والخسائر. كان يمكن أن تكون هناك أشياء كثيرة، ولكن لم يحدث شيء. مجرد سريان فاتر للزمن فحسب. الآن أعلم هذا، الحب يتطلب القوة. لابد أن نتحلى بالشجاعة لنحب. ولكن لم يخبرني أحد بذلك وأنا طفلة. لم أر قط والديّ سويا لشيء سوى العقد الذي بينهما. كان الحب هو ذلك الشيء المرتبط بالحكايات. إنه ذلك المشروب السحري الذي ابتلعته الراعية البسيطة، وتلك القبلة التي أيقظت الأميرة.

مرات كثيرة أتجول في الطرقات وأراقب الفتيات، السيدات الشابات. يختلفن كثيرا عنا عندما كنا في العشرين. أشعر أمامهن بالحقد. فتيات العائلات الجيدة يكبرن ليصبحن زوجات صالحات، يقرأن القصص المفيدة، ويصدقن أنها حقيقية. مرات عديدة، في الأشهر الأخيرة لمرض أمي، وبينما كانت تمكث بعينيها المغمضتين ورأسها الضائع في الوسادة الضخمة، كنت أفاجئ نفسي بأنني أكرهها. إنها أشياء يجب ألا تُقال، ولكن هكذا الصنابير، عندما تفتحها ينزل منها كل شيء. كنت أكره كبرياءها العنيدة، كانت سبب حياتي ولكنها أصبحت سبب خسارتي الحياة يوما بعد آخر.

نقطة تلو أخرى. كيف يمكن لأحد أن يكره عجوزا مسكينة في نهاية حياتها؟ ستعتقد أنني وحش. ربما كنت كذلك.

لن يكون دوري أنا أن أقول ذلك، سيكون لك أنت الحكم عندما تعرف كل قصتي. يمكنني أن أقول لك فقط هذا، اليوم الذي ماتت فيه، كان لديّ انطباع أن الهواء يدخل إلى رئتي للمرة الأولى بالفعل. كنت أتنفس. شيء ما كان يجب أن يتغير، كانت هذه هي فكرتي الراسخة. كنت أرغب في أن أحطم تلك الدائرة التي شعرت بأنني منذ الأزل مجبرة على المكوث بداخلها. مرت أشهر عديدة قبل أن أقرر. في الصباح الذي خرجت فيه لأذهب لمكتب المحقق الخاص بدا لي أنني أسير بطريقة مختلفة، بخطوات أطول ورأس شامخ. كنت أفكر بأن هذا هو أول تصرف شجاع لي. بمجرد أن خرجت من ذلك المكان فكرت في الشيء العكسي. قلت لنفسي: «إيمانويللا، ليس هذا سوى أحد التصرفات الجبانة الأخيرة في حياتك».

ولكنني سرعان ما هدأت. في نهاية الأمر لم أخبره سوى بميلادك، واسم غير محدد للقابلة. كان من المستحيل أن ينجح في العثور عليك. من المؤكد أنه بعد ثلاثة أشهر سيتصل بي ليخبرني بأسفه، حيث لا توجد أي آثار لك، وكنت أنا سأقول لا بأس، كنت سأدفع له أتعابه، ودون أن أشعر باضطراب كانت الحياة ستسير كما هو معتاد.

ولكن لم يحدث هذا.

عرّفته بأكثر الطرق المعتادة الممكنة. كنت أخرج من المدرسة، ورأيت القطار الذي آخذه يمر من الجهة المعاكسة، وحتى لا يفوتني أخذت أجري، وبينما أنا أجري تعثرت، وتزحلقت الكتب

مـن الحـزام وجـرت عـلى الإسـفلت، وقبـل أن أفهـم إذا كنـت قـد جُرحـت أم لا، رأيـت يـده الممـدودة. لقـد أمسـك بذراعـي ورفعنـي مـن الأرض. بمجـرد أن وقفـت سـألني: «هـل كل شيء عـلى مـا يـرام؟».. وبنظـرة طويلـة مـن أسـفل إلى أعـلى مـر عـلى جسـدي. نظـرت إليـه نظـرة سريعـة، كان شـابا، وكان يرتـدي بدلـة قـوات التحالـف. قلـت: «لم يحـدث شيء، أشـكرك». انحنيـت لأجمـع كتبـي. انحنـى هـو أسرع منـي، وجمعهـا، وربطهـا بالحـزام، وأحضرهـا لي. شـكرته، وقلـت: «الآن يجـب أن أذهـب، تأخـر الوقـت». أصر عـلى أن يصطحبنـي. قلـت: «أشـكرك لا، لا داعـي، يمكننـي أن أذهـب بمفـردي».

إلا أنـه عـلى الرغـم مـن ذلـك اصطحبنـي. في الطريـق حـكى لي قليـلا عـن نفسـه، فهـو ضابـط طبيـب، موجـود في إيطاليـا منـذ أكـثر مـن عـام، ولكـن يبـدو لـه أنـه عـاش هنـا طـوال عمـره. كان أجـداده مـن إيطاليـا، مـكان قريـب مـن ليكـو، هـل كنـت أعرفـه؟ ربمـا لهـذا كان يشـعر أنـه تقريبـا في وطنـه، فلقـد تعلـم اللغـة قبـل أي لغـة أخـرى. لم أقـل لـه أي شيء عـن نفسـي، كنـت أعـرف أن هـذا ليـس شـيئا جيـدا. وقبـل المنـزل بمسـافة قلـت لـه إننـي وصلـت. سـألني هـو: «أيـن تسـكنين؟»، أشرت إشـارة غامضـة بيـدي، وقلـت مـن هنـاك.

تظاهـر بأنـه يصدقنـي، وتوقـف، وقـال: «إذن إلى اللقـاء». صافحتـه بـدوري، واسـتأنفت السـير. فقـط قبـل الناصيـة التفـتُّ لأنظـر، لم يكُـن قـد تحـرك مـن مكانـه. بمجـرد أن تلاقـت عيوننـا ابتسـم لي. كانـت أسـنانه بيضـاء ورائعـة. كان طويـلا، قويـا ولـه النظـرة الطيبـة نفسـها لغـاري كوبـر.

عندمـا وجدتـه في اليـوم التـالي أمـام المدرسـة لم أحـاول الهـروب منـه، ذهبـت للقائـه مبتسـمة، كأننـي كنـت أعـرف بالفعـل أنـه

سيكون هناك. كانت في يده وردة، وبمجرد أن أصبحت بجواره قبّلني على جبهتي. بدأت أحدثه عن نفسي، كنت أتحدث بحماس، وبينما كنت أتحدث كانت وجنتاي تكتسيان بالحمرة. بدأت أفكر فيه أيضا وأنا بمفردي، كنت أفكر فيه وأبتسم. قبل أن أنام كنت أقبّل الوسادة كأنها هو. كنت قد قرأت روايات مختلفة للشابات. أعرف أن هذا هو الحب، لقد أصابني في الوقت الذي لم أكُن أتوقعه على الإطلاق. تقول الروايات إنه يحدث تماما بهذه الطريقة. أخذت أفكر في المستقبل، كنت أرى منزلا بمرعى أمامه، وفطائر التفاح التي تبرد على حافة النافذة. كان هو يمتلك سيارة ضخمة، كأنها شاحنة. يعود في الليل متعبا من المستشفى، وكنت أعد له الطعام. ويحكي لي عن الحالات التي يتولى علاجها وأنا أستمع إليه. كنت فخورة به، وبكرمه الإنساني. بعد ثلاث سنوات أصبح لدينا ابنان، كانت شعورهما حمراء ولديهما نمش على وجهيهما. وكنا عاشقين كأول يوم. كنا فرحين، ولم يكُن ممكنا أن تسير الأمور بطريقة مختلفة.

بعد شهر طلب مني أن أخرج معه ظهيرة يوم الأحد. اخترعت لأبويّ قصة مراجعة الرياضيات في منزل صديقة، وكانت الصديقة، بالطبع، تعرف كل شيء، وكانت موافقة.

ذهبنا إلى السينما. كان قلبي ينبض في حلقي، ولم أستطع أن أتابع أحداث القصة. بعد بداية الجزء الثاني بقليل، جذبني بعذوبة نحوه وقبّلني. من لحظة تلك القبلة بدأ الزمن يتسارع لديّ، كنت أريد أن أترك المدرسة على الفور، أحكي لأبويّ، وأذهب إلى أمريكا فورا، ولكنني لم أكُن أتحدث معه عن تلك المشروعات. لا أعرف لماذا، كنت خائفة. كان عمره ثلاثين عاما وأنا في السادسة

عشرة من عمري. بعض الليالي كنت أجد صعوبة في النوم، كنت أفكر إذا كانت لديه بالفعل عائلة ولم يقل لي. في يوم من الأيام رأيت كارت بوستال يخرج من جيب سترته وعليه طابع الولايات المتحدة. لم أستطع قراءة المكتوب ولكن بدا لي أنه خط امرأة. على كل حال حتى في تلك المرة لم أسأله عن شيء. عندما كان يحتضنني أو ينظر إليّ في عيني ويهمس في أذني بكلمات عذبة، كانت كل الشكوك تتطاير وتبتعد بعيدا. أجل، كان هو أيضا يحبني كما كنت أحبه.

لشهور عديدة لم يدرك والدَاي شيئا، فقط عندما بدأت نتائجي الدراسية تسوء شكّا في شيء ما، إلا أنني احتفظت بالسر. كنت سأصارحهما بكل شيء قبل الذهاب إلى أمريكا بقليل، قرب الزواج. كنت تقريبا متأكدة أنهما سيعارضان ولكنني كنت متأكدة أنهما بمجرد أن يعرفاه ستذوب كل مقاومة لديهما.

كنت ساذجة. أليس كذلك؟ ربما كنت غبية بعض الشيء أيضا. كنت مترددة أن أحكي لك هذا الجزء من القصة، ثم قررت أنه من الأفضل أن أقولها لك، حتى وإن كان ذلك سيجعل صورتي سيئة، كنت أريدك أن تعرف أنك ابن حب، أو على الأقل هذا ما كنت أعتقده.

حدث هذا بعد ستة أشهر من تعارفنا. انتظرت دورتي الشهرية التي لم تأت. انتظرت شهرا آخر لأقول له. كنت أخشى أن يكون الأمر مجردَ تأخر معتاد. قلت له ذلك في عصر يوم الأحد، ونحن نتمشى في الشوارع الخالية. كنت قد تخيلت تلك اللحظة مرات عديدة، كنت متأكدة أنه سيضحك ويضمني ويرفعني في الهواء، إلا أنني بمجرد أن نطقت الكلمة الأخيرة - وكانت الكلمة الأخيرة

ابـن - توقـف كأنـه تسـمّر. نظـر إليّ بصمـت، ثـم حـكّ ذقنـه. قـال: «آه، فعـلا؟». أجبـت بأننـي تقريبـا متأكـدة، ولكـن في تلـك اللحظـة كنـت تقريبـا عـلى وشـك البـكاء. تـولى هـو أمـر التحاليـل. قـرأ التقريـر وقالـه لي. كان حقيقيـا، كنـت أنتظـر طفـلا. في الأيـام التاليـة لم يجعلنـي أراه، اختفـى لمـدة أسـبوع. في النهايـة ذهبـت أنـا إلى حيـث يسـكن، انتظرتـه وأنـا أسـتند عـلى السـور لسـاعات طويلـة. عندمـا رآني قفـز، بـدا عليـه الضيـق. انفجـرت أنـا في البـكاء بـلا أي تحفـظ. أحـاط كتفـي بذراعـه وقـال: لا، لا تفعـلي هـذا، هأنـذا.

ذهبنـا إلى بـار، قـدم لي كامومـيل، وهنـاك وبينـما أنفـخ في الفنجـان قـال لي إنـه اسـتُدعي إلى الوطـن، ولكـن يجـب ألا أقلـق؛ في أول فرصـة ممكنــة سيرســل لي بــالأوراق الخاصــة للــزواج، وسيرســل لي بتذكــرة السـفر لألحـق بـه هنـاك، في أوريجـون. كنـت أسـتمع إليـه ولم يكُـن يبـدو لي مـا يقولـه حقيقيـا. كان يبـدو لي أننـي انزلقـت في فيلـم دون أن أدرك. بصـوت منخفـض طلبـت منـه أن يتقـدم لوالـديّ، وأن يـشرح لهـما كل شيء. وافـق، وقـال إنـه سـيفعل ذلـك إذا كان لديـه فسـحة مـن الوقـت في أحـد تلـك الأيـام، سيمر عـلى منزلنـا. ثـم نهـض. أصـدر الكــرسي ضوضــاء شــديدة. قــال: «الآن يجــب أن أذهــب بالفعــل». أمسـكته مـن كمـه، وطلبـت منـه عنوانـه. شـخبط شـيئا بسرعـة عـلى ظهـر مظـروف وأعطـاه لي. قبـل أن يذهـب لمـس جبهتـي بقبلـة.

رأيتـه مـرة أخـرى. رأيـت بنطالـه وسـترته الكاكيـة، وقدمـاه تبتعدان عـلى الرصيـف بخطـوة مرنة.

لا أعـرف متـى رحـل بالتحديـد. انتظـرت اثنـي عـشر يومـا ولم يظهر هـو. ومـن كابينـة عامـة اتصلـت بـه في القيـادة، قالـوا لي إنـه قـد رحـل مـع الفرقـة الأخـيرة. وضعـت السـماعة دون أن أضيـف أي شيء آخـر.

إلا أنني لم أشعر بعد باليأس. كانت لديّ الثقة، كنت أفكر أن كل ما قاله لي كان حقيقيا. هل تعرف أن بطلات الروايات العاطفية كلهن كذلك؟ كن يضعن القوة الإيجابية أمام كل شيء، كن يواجهن المعضلات الحقيقية بأنه في النهاية كل شيء سيصبح على أفضل حال. في الشهر الأخير معه شاهدت «ذهب مع الريح».

وهكذا، في ذلك المساء، وقبل أن أنام قلت ذلك الذي كانت تقوله روسيللا أوهارا: في نهاية الأمر غدا يوم جديد. في صباح اليوم التالي بدلا من أن أذهب إلى المدرسة، ذهبت إلى البار وكتبت له خطابا؛ وضعت فيه كل العبارات الشعرية التي كنت أعرفها: حكيت له كيف كنت أتخيل حياتنا في المستقبل. لم أشر حتى إلى دقة اللحظة. بداخلي كنت أخدع نفسي أن كل شيء سيكون قد وصل إلى حل.

انتظرت الرد أكثر من شهر. في صباح يوم ما وصل. لم يكُن خطابه الذي وصل، ولكن خطابي والطابع فوقه؛ كان العنوان مجهولا.

عندئذ، وفقط عندئذ، كل شيء تحطم بداخلي. كل شيء إلا أنت. استكملت أنت النمو بداخلي، ولم يكُن من الممكن إخفاء الأمر.

تخيلت أن أهرب. تخيلت أن أبويّ بسبب الخجل سيطردانني. كنت أتخيل نفسي وأنا أهيم بين باب وآخر، مثل بائعة الكبريت الصغيرة، وأنا أسأل شيئا آكله. كنت أرى نفسي أمام أسوأ المواقف: وكنت أواجهها برأس مرتفع. لم يحدث أي شيء من كل ما توقعته. استمعا إلى الخبر بصمت حزين. كنا نجلس حول المائدة. قال لي أبي: «انهضي واذهبي إلى غرفتك». بمجرد أن أصبحت بمفردي ألقيت بنفسي على ركبتي أمام فراشي. أخذت أصلي وأشكر الله على طيبة قلب أبويّ.

الآن أعـرف أن مـا حـدث كان الأسـوأ، ولكـن في ذلـك الوقـت كنـت أشـعر أننـي محظوظـة. كان مثـل الغفـران الآتي مـن السـماء.

في صبـاح اليـوم التـالي اسـتدعتني أمـي إلى الصالـون. قالـت إن أول شيء هــو أننــي سأنسـحب مــن المدرســة بعــذر أننــي مصابــة بأزمــة عصبيــة، ثــم، ســنذهب أنــا وهــي إلى منزلنــا في الريــف، وهنــاك بعيــدا عــن العيــون المتطفلــة، ســننتظر ميعــاد الــولادة. لم أســتطع أن أخفــي فرحــي. قبّلــت أمــي وقلــت لهــا: «أشــكرك يــا أمــي». تنهــدت وهــي تنظـر إلى بطنـي الـذي أصبـح الآن أكـثر وضوحـا وقالـت: لـو لم تنتظـري طويـلا كـما فعلـت في الإفصـاح لنـا، لكنـا اسـتطعنا الوصـول إلى حـل أفضـل. عندئـذ شـعرت بالفـرح لأننـي لم أقـل لهـما شـيئا قبـل هـذه اللحظـة. لم يخطـر عـلى بـالي قـط، حتـى في أكـثر لحظـات اليـأس، أن أجهـض. كنـت قـد ابتعـت تقريبـا عـلى الفـور كتابـا عـن الحمـل، وكنـت أعـرف يومـا بعـد يـوم مـا الـذي يحـدث لـك. كانـت هنـاك اسكتشـات للذراعـين والقدمـين، كان الـرأس قـد أصبـح أكـبر بالفعـل، ومــن الرســومات بــرزت لــك اليــدان، والقدمــان، وكانــت بهــا أصابــع صغـيرة جـدّا ورائعـة، وسـتظهر الأظفـار في وقـت لاحـق. كيـف يمكـن أن أشـفطك في الخـارج، أن ألقـي بـك هنـاك عـلى مائـدة أو بداخـل حـوض؟ ولا حتـى الشـعور بالغضـب الـذي كان قـد بـدأ ينمـو تجـاه أبيـك كان سـيقودني إلى تـصرف مشـابه. كنـت أتذكـر اللحظـة التـي تكونـت فيهـا، في ذلـك الوقـت كان يوجـد حـب. حتـى لـو اسـتمر هـذا جـزءا مـن الثانيـة، لا يهـم كثـيرا. أنـت كنـت امتـداد تلـك الثانيـة. ثانيـة اسـتمرت حيـاة بأكملهـا. كنـت سـأحبك، كنـت سـأنجح في حبـك عـلى الرغـم مـن التشـابه بينـك وبـين أبيـك. فقـط لعذوبـة الذكـرى وليـس لأي شيء آخـر.

وهكذا بتلك الأفكار انطلقت نحو إقامتي في الريف.

في تلك الأشهر لم أرَ أحدا بخلاف أمي. كنا نحن الاثنتان هادئتين. نقوم بجولات طويلة في الحديقة. كنت أنظر إلى الزهور والنحل الذي يحط فوقها. وأشعر بأنني أنا أيضا جزء من الطبيعة، وكان هذا الشعور يخلق بداخلي قوة عظيمة. عندما نظل بمفردنا كنت أتحدث معك كثيرا، وفي حواراتنا أطلقت عليك اسم ريتشارد. كنت متأكدة من أنك ولد. منحتك هذا الاسم من حبي لفرسان المائدة المستديرة. ريتشارد قلب الأسد.

في نهاية الشهر السابع، وخفية عن أمي، بدأت في حياكة طقم ملابس لك. استعملت إبرة الكروشيه والصوف الأزرق. استغرقني الأمر أربعين يوما لأنتهي منه. لم أكُن خبيرة في ذلك النوع من شغل الإبرة، وعندما انتهيت من الغرزة الأخيرة أريته لأمي بانتصار. نظرت إليه هي في صمت، وصحت: «الآن وقد تعلمت سأحيك على الأقل عشرة أطقم أخرى!».

عندئذ تحدثت هي وقالت: «سيكون وقتا مهدرا، لأنكِ يجب حتى ألا تري الطفل».

لم أفهم على الفور ولكن فقط عندما تحدثث عن كوني قاصرا، وعن الأوراق اللازمة. من خلال إجراء قانوني، تخليتُ عن الطفل حتى قبل أن آتي به إلى العالم.

هل تمردت؟ بطريقتي، بالطريقة التي كنت أستطيعها، انفجرت في البكاء، وأخذت أمي في تهدئتي، وبين دموعي قلت إنهما إذا كانا لا يرغبان في ذلك الحمل فسأذهب لأبحث عن عمل، وإذا لم يرغبا في عاري أنا وابني كنت سأختفي إلى الأبد. كنت أحاول أن أفكر بعقل: لم يكُن أحد منهما شريرا، كل ما كانا يفعلانه

كان لخيري. كان الأمر يتعلق بحادث ويجب حله كحادث. لم يكُن في استطاعتهما أن يسمحا لأن تتسبب لحظة من عدم الوعي في تدمير حياتي كلها. كنت شابة، لطيفة وذكية ومن عائلة جيدة. في تلك الظروف، بوجود طفل، هل كان سيمكنني العثور على زوج؟ كان لا بد أن أفكر في المستقبل، وليس في ما حدث بالفعل، للأسف. سيكون الطفل أفضل لو أنه لدى عائلة حقيقية، أما أنا فبمفردي.. اعترضت مرة أخرى. اعترضت حتى قالت هي إنه لا فائدة من اعتراضي، فأنا أدمر أعصابي ليس إلا. كنت أنا قاصرا، وبفضل القانون، يقرران هما نيابة عني. لم يكُن هناك شيء آخر لتضيفه. ستفهمين يوما ما، عندما تكبرين.

كان لا زال على ميلادك شهر آخر قضيته في صمت تام. كنت أصلي، كنت أتمنى أن تحدث معجزة ما؛ معجزة أن يعود هو.

إلا أنه قبل أن تجيء المعجزة جاءت آلام المخاض. جئتَ بطريقة طبيعية وكان حجمك مضبوطا، إلا أنه حسب قول الطبيب، لم يشهد سوى مرات قليلة ولادة مجهدة وطويلة مثل هذه. لم أكُن خائفة من الألم، ولكنني كنت خائفة من أن تذهب، فبدلا من أن أدفع كنت أمتنع. كنت أمسك كل عضلاتي حتى لم يعد ذلك ممكنا. كنت أعرف أن هذا كان خطرا على كلينا، وكنت أريد هذه المخاطرة. فلنمت سويا في اللحظة نفسها. ولكن الطبيعة قوية وتبرمج الحياة بطريقة متكاملة. جئتَ إلى العالم. كنت في صحة جيدة وكنت صبيا. لفَّتْك القابلة على الفور في ملاءة، واختفت وأنت بين ذراعيها في الحجرة المجاورة. لمحتُك لثانية واحدة فقط، رأيتُ رأسك، كان شعرك أحمر اللون.

تبع ذلك الصباح عام من الخدر. عدت إلى المدينة ولكنني

لم أستطع أن أهتم بأي شيء، لم أكُن أتحدث، كنت أنظر هنا وهناك دون أن أرى أي شيء. بعد شهرين، بالاتفاق مع طبيب العائلة، أرسلوني إلى عيادة سويسرية. عن تلك الفترة أتذكر القليل. الرائحة، اللون الأبيض، لا أتذكر أي وجه، ولا أي ضوضاء محددة. كنت أمضي وقتي في النوم، وأنا أتحدث معك في صمت. كنت أقول لك: «هيا، ابتسم ابتسامة جميلة لأمك»، وكل الأشياء المشابهة التي تقولها الأمهات لأطفالهن. كنت أدغدغك في بطنك، وأقبّل قدميك السمينتين. كنت أقضي الساعات الطويلة وأنا أحملك بين ذراعي أمام نافذة الحجرة. كان هناك الثلج، وبعض العصافير ذات الريش المنتفخ كانت تقفز على المرعى بحثا عن البذور، وكنت أشير لك عليها بإصبعي. ثم ساح الثلج. في الحديقة في أسفل بدأت تظهر بقع الأرض القاتمة، بدايات ذوبان الجليد. عندئذ حدث شيء ما أيضا بداخلي. لا أعرف بالتحديد ما هو. لسبب مجهول قررت ألا أنظر مرة أخرى إلى الوراء. كان الشعور الوحيد الذي يحركني غلاف من النية الصالحة، وشعر الأطباء برضى. قبل عيد الفصح عدت إلى ميلانو، درست من المنزل وأديت الامتحانات.

ربما، إذا عرفت في يوم ما أنك لست ابن الوالدين اللذين ربّياك، لكنت تخيلت أن لأمك الحقيقية ماضيا مليئا بالمغامرات، ربما أيضا خارجة عن القانون. ستحبطك معرفة أن أمك جزء من الجموع العادية، وأنها واحدة من تلك السيدات اللاتي يرتدين التايور الأنيق، وذوات الظهر المستقيم اللاتي تقابلهن في الطريق أو في الحافلة.

في هذه الأيام كانت توجد مظاهرات عديدة للطلاب في أنحاء المدينة. كانوا يجوبون الطرقات في مجموعات كبيرة وهم يصرخون

طالبـين المـوت للمجتمـع البرجـوازي! ربمـا تكـون أنـت أيضـا بينهـم، ربمـا أنـت أيضـا عندمـا تـراني أمـرُّ بمعطفـي الأزرق وحقيبتـي تنظـر إليّ باحتقـار.

ولكـن، الحقيقـة، أن النفـس الإنسـانية أكـثر تعقيـدا مـن طريقـة اللبـس، مـن المظهـر.

أنـا، إن اسـتطعت، لـو لم أكُـن أخـاف مـن السـخرية، لكنـت انتزعت ملابـسي التـي أرتديهـا وصعـدت عـلى المنصـات لأصرخ معكـم. إن مـا يشـكلنا ويقسـمنا هـو الألم، العنـف الـذي تعرضنـا لـه، وليـس رداء الإسـكيمو أو المعطـف. بسـبب الاعتيـاد، ومـا يجـب، ومـا يُقـال، أُجـبرت عـلى أن أعيـش حيـاة زائفـة. مـن هـذا يجـب عـلى المـرء أن يتحـرر، مـن النفـاق، مـن الحواجـز. إلا أننـي أرتعـب مـن عنـف أولئـك الصبيـة، أراهـم عميانـا، مسـتعدين أن يسـتبدلوا كذبـة بأخـرى.

مـن يـدري لـو كنـت معـي في هـذه الأيـام كـم كنـا سنتشـاجر! ولكـن سـيكون هـذا أيضـا جميـلا. كان سـيجعلنا نحـن الاثنـين ننضـج بعـض الـشيء.

منـك، ليـس لـديّ سـوى ذلـك الطقـم الأزرق الـذي حكتـه لـك في الريـف. احتفظـت بـه في درج مـن أدراج الخزانـة. في الليـالي التـي لم أكُـن أسـتطيع النـوم فيهـا - وكانـت كثـيرة - أنهـض وأربـت عليـه. شيء غريـب، عـلى الرغـم مـن أنـك لم ترتـده، إلا أنـه بقيـت فيـه رائحـة طفـل حديـث المولـد. رائحـة حليـب، رائَحـة بـول، رائحـة بـودرة التلك.

الآن أتخيـل أنـك اكتفيـت. تفكـر، لمـاذا تزعجنـي كثـيرا تلـك العجـوز؟ أو ربمـا ستسـأل كيـف اسـتطعت أن أفهـم أشـياء عديـدة ولم أفعـل بهـا شـيئا. لقـد سـألت نفـسي هـذا السـؤال مـرات عديـدة أنـا أيضـا، إلا أننـي بـدلا مـن أن أجـد إجابـة واضحـة وجـدت شـعورا. لا أعـرف إذا حـدث

لـك شيء مثـل هـذا مـن قبـل، ولكـن أحيانـا وأنـا أسـير في الربيـع بـين الحقـول، توجـد القواقـع الأسـطوانية والقاتمـة؛ تلـك الصدفـات الفارغـة للثعابـين. يوجـد كل الجسـم، وكل المقاييـس الدقيقـة، مـكان للعينـين، إلا أن الحيـوان الحـي لم يعـد هنـاك بالداخـل، قلبـه ورئتـاه، والأنيـاب السـامة، كل شيء قـد اختفـى. هـذا هـو مـا حـدث، مـن يـوم ولادتـك شـعرت بالفعـل بهـذا، لم يتبـقَّ شيء بداخـلي. مـن الخـارج كنـت مازلـت تلـك الصبيّـة الرشـيقة والرقيقـة، ولكـن بداخـلي، كل أحشـائي مـع كل إمكانيـات مشـاعري ذابـت. كنـت أشـعر بأننـي إنسـان آلي، وكنـت كذلك بالفعـل، ومـا زلـت. فقـط في تلـك الزاويـة التـي لم أسـتطع قـط التعـرف عليهـا، احتفظـت بقـدرتي عـلى المشـاهدة بـلا مسـاس. رأيـت حيـوات الآخريـن مثـل مخـرج يشـهد البروفـات مـن الصالـة. رأيـت، وأدنـت، وكوّنـت لنفـسي آراء عـن العـالم. ربمـا لأننـي لم أكُـن متورطـة فيهـا، اسـتطعت أن أفهـم الأشـياء قبـل الآخريـن وبطريقـة أوضـح. الآن، إذا فكـرت في الطريقـة التـي أعيـش بهـا وأفكـر، فأنـا إنسـانة حكيمـة، وهذه واحـدة مـن الأشـياء التـي أريـد أن أقولهـا لـك. احـترس مـن الحكمـة! فالحيـاة هـي كل شيء بعيـدا عـن الحكمـة. فالحيـاة حركـة مسـتمرة، وقـدرة. لتعيـش في وسـطها جيـدا، عليـك أن تكـون مرنـا، منفتحـا، غـير مُقيـد بـشيء. إن الحكمـة طالمـا كان المـرء بصحـة جيـدة ليسـت سـوى رصيـف ميـت، عليـه تسـير ذهابـا وإيابـا، وسـتحفظ المشـهد عـن ظهـر قلـب. تعـرف كيـف يبـدأ المسـير، وكيـف سـينتهي، وتلـك المعرفـة سـتوهمك بأنـك هـادئ وقـوي، ولكـن مـاذا إذا غـيرت الرصيـف، إذا جريـت في مشـهد آخـر؟ هنـا يكمـن كل شيء.

إن جسـدي، كـما قلـت لـك، في كل تلـك الأعـوام لم يكُـن سـوى قـشرة فارغـة، قُمعـا. هـذا حقيقـي، لكـن جـزءا منـه لم يكُـن كذلـك.

في كل عـام، في الواقـع، بالتوافـق مـع الشـهر الـذي حملـت بـك فيـه، كان بطنـي يبـدأ في الانتفـاخ ببـطء، كأن بـه شـيئا بالداخـل. بعـد هـذا بشـهر كنـت أشـعر بالغثيـان والنعـاس، وبعـد تسـعة أشـهر كانـت تصيبنـي آلام مبرحـة، الألم نفسـه الـذي وُلـدت بـه، ثـم كان كل شيء يعـود لطبيعتـه. في المـرات الأولى، بطبيعـة الحـال، ذهبـت إلى الطبيـب. شيء سـخيف، ولكـن ساورني الشـك بأنـه قـد حـدث لي شيء مثلـما حـدث للعـذراء، وبأننـي حملـت طفـلا مـن خـلال تدخـل علـوي. كان يمكـن أن يكـون حـدث في لحظـة مـن لحظـات الدهشـة، في ساعة أو سـاعتين لا أتذكـر عنهـما شـيئا، إلا أنهـا كانـت فقـط أعـراض حمـل هيسـتيرية. اعتـدت أيضـا عـلى ذلـك. في المكتـب كانـت زميـلاتي تراقبننـي: «كيـف يمكـن هـذا، إنـكِ لا تأكلـين شـيئا ولكنـك تسـمنين!» وكـن ينصحننـي بالذهـاب إلى طبيـب لمتابعـة مسـتوى الهرمونـات. في الطريـق، مـن حـين إلى آخـر، كان شـخص يتمتـم بالتهنئـة في أثنـاء مـروره بجـواري، عندئـذ كنـت أسرع خُطـاي دون أن أنظـر لأحـد في عينيـه.

فصـل يـلي آخـر، لمـدة خمسـة وعشريـن عامـا، كان جـزء منـي، لا يـزال عـلى قيـد الحياة، يـؤدي هـذا الطقـس. ثم بـدأت تـأتي موجات الحـرارة، وأزمـات البـكاء المفاجئـة والعنيفـة، ووصلـت إلى سـن اليـأس، عندئـذ قلـت لنفـسي: أخـيرا انتهـى كل شيء.

في الوقـت نفسـه، وبعـد مـرض طويـل، ماتـت أمـي. كان أبي قـد مـات قبـل حتـى أن أنهـي دراسـتي. اعتقـدت أن فصـلا جديـدا عـلى وشـك أن يبـدأ، فصـلا مسـتكينا وحزينـا، ولأول مـرة خاصـا بي. وسـجلت نفـسي في فصـل لدراسـة الإيكيبانـا (تنسـيق الزهـور). في أيـام الآحـاد، بعـد الظهـر كنـت أذهـب لتنـاول الشـاي مـع زميـلاتي.

ولكـن، في الربيـع، مثـل كل سـنة، بـدأ بطنـي في الانتفـاخ. لم أكُـن أشـعر بنوبـات نعـاس، ولكـن كان بطنـي ينتفـخ مثـل كل المـرات السـابقة، عندئـذ فهمـت مـاذا كان. كان عقابـا، ثمـن جبنـي، الـذي سأسـتمر أدفعـه حتـى نهايـة أيامـي.

فقـط عندمـا لم يعـد بطنـي كـما كان في الميعـاد المعتـاد، بـدأت أقلـق. كنـت قـد ذهبـت قبلهـا بشـهر إلى ذلـك المحقـق الخـاص. لا أعـرف مـن الناحيـة المنطقيـة لمـاذا قمـت بذلـك، ربمـا نـوع مـن الفـأل الحسـن، ربمـا الرغبـة أنـه بوجـود وجـه مـا، يمكننـي أن أضـع نهايـة لعقـابي الأبـدي.

لم أكُـن أرغـب في أن أقابلـك، ولا أن أطالـب بحقوقـي غـير الموجـودة وأن أخـل بتوازنـك، كنـت فقـط أريـد أن أعـرف كيـف كـبرت، مـن تشـبه وأيـن تعيـش.

عـلى كل حـال، عندمـا شـعرت بعـد مـرور شـهرين مـن ميعـاد الـولادة بـألم لا يُطـاق لجـأت إلى الطبيـب. ويـا للغرابـة، حـدث هـذا في اليـوم نفسـه الـذي أعطـاني فيـه المحقـق إجابتـه، بأنـك موجـود. أبـوك مهنـدس، وأمـك مدرّسـة لغـة فرنسـية. كنـت تـدرس الطـب، وتعيـش عـلى بُعـد شـارعين منـي.

بعدهـا بأسـبوع أجابنـي الطبيـب أيضـا، وقـال: «يؤسـفني أن أقـول إنـه في الداخـل يوجـد ورم تقريبـا في حجـم طفـل».

في أثنـاء تلـك الأشـهر، لم يخطـر ببـالي قـط أن هـذا يمكـن أن يحـدث، ولكـن عندمـا أخـبرني الطبيـب بهـذا لم أشـعر بـأي مفاجـأة. لمـدة عشريـن عامـا كنـت أتمنـى أن يكـبر شيء مـا بداخـلي، وفي النهايـة تحققـت أمنيتـي، مـع فـارق صغـير، بـدلا مـن أن أرعـى حيـاة بداخـلي، كنـت أحمـل المـوت.

قال الطبيب بنظرة يائسة: ليتك كنت قد أتيت قبل ذلك. رفعت كتفي كأنني أقول: لا بأس. إلا أنهَ بعد ذلكَ - كجزء من مهنته - بدأ يمنحني خيطا من الأمل. لا بد أن أجري الجراحة على الفور، وأن أمنع الخلايا المجنونة من أن تتجول في جسدي. أعطاني نتيجة التحاليل. قلت أجل، حسنا، ولكن في حقيقة الأمر لم يكُن يهمني أي شيء.

أمام إعلان موت وشيك يُجَنّ كثيرون، يبكون، ييئسون، ينفقون كل نقودهم على ما يمتعهم، آخرون يهتدون فجأة، ويعثرون على قواهم الأخيرة في الإيمان. بالنسبة إليّ لم يحدث أي شيء من كل هذا، حتى الطبيب شعر بالدهشة، فلقد منحني هذا الخبر نوعا من البهجة.

في الطريق إلى المنزل توقفت عند مشتل. قضيت فترة العصر كلها وأنا أشكل الزهور، كانت هي المرة الأولى التي لا أكرر فيها ما تعلمته في المدرسة. ألقيت بالأعواد الجافة، والطحالب وأطراف الأشن، وقبل كل شيء فرعا عاريا من زهرة النسرين. لم أترك العنبات الحمراء ملتصقة، بل وضعتها نصف مختبئة بين الباقة والأرض.

كنت مأخوذة من دراسة الأشكال والألوان إلى حد أنني نسيت أن أتناول العشاء. في النهاية، وبعد أن شعرت بالرضى، أخذت أتأمل به في كل زاوية من زوايا الحجرة. أجل، كان الأمر يتعلق بالفعل بإيكيبانا رائعة، رائعة ليس في ما يتعلق بالقواعد، ولكن لأنها أخيرا تعبّر عما أشعر به في داخلي.

وأطلقت عليها اسما: تحت الثلج.

في الأيام التالية قمت بالتحاليل المطلوبة، ثم، كأن شيئا لم يكن، ذهبت إلى ذلك المؤتمر في هيلسنكي. هناك، لا أعرف لماذا -ربما

بسبب الثلج؟ أو الصمت؟- بدأت في كتابة هذا الخطاب لك. هل أندم على ذلك؟ لا، هذا يريحني وحسب. غدا سأعود إلى المشفى من أجل العملية.

في طريق العودة من فنلندا - لا أعرف لماذا أقول لك هذا الآن فقط - لم أستطع المقاومة، وذهبت لأراك. بعذر ما سألت حارس العقار عن نافذتك، وكنت أراقب الساعة من حين إلى آخر كأنني موجودة هناك من أجل ميعاد ما، أخذت أتجول هناك طوال فترة العصر. فقط في الساعة الخامسة، وبسرعة جدّا، رأيت خيالا خلف الستارة.

روما، 18 من يونيو 1969

ما زلت هنا يا عزيزي. ما زلت على قيد الحياة، وأنت ما زلت بداخلي، الطفل ذو الخلايا المجنونة ما زال بداخلي، وقد انتشر في كل جسمي. لقد احتل الكبد أولا ثم المخ. في المؤسسة عرفوا عن مرضي. ألبرتو أتى ليزوريني في المشفى، لم يستطع أن يخفي الدهشة من عينيه. كان يقول: «لا أستطيع أن أصدق، فقد كنت بحالة جيدة جدّا..». طبيعي لم يكُن يعرف قصتك، فيما عدا أبَي وأمي لم يكُن أحد يعرفها.

إذا رأيتني الآن فلن تصدق أنني أمك، ولكن مجرد عجوز مجنونة، ولا بد أن هذا ما اعتقدته اليوم السابق عندما، وأنت خارج من المنزل، رأيتني جالسة على الأريكة المقابلة له. تلاقت عيوننا عن طريق الخطأ تقريبا، وأبعدت أنت نظرتك على الفور وأنت تبرم شفتيك. لديك كل الحق؛ اختفى شعري كله تقريبا، وجلدي يقبع على عظام جمجمتي كقشرة صفراء متهالكة. كنت أود لو قفزت عليك، احتضنتك، شعرت بالحياة تسري في جسدك،

إلا أنني نظرت إلى أسفل، متظاهرة بأنني أبحث عن شيء، وحركت إحدى قدمي بين الأتربة.

لم أعد أرى أحدا، ولا أحد من معارفي يبحث عني. موت واضح بهذا الشكل يخيف الجميع. رفضت الدخول إلى المستشفى قبل الأوان. أكره كل تلك التعقيدات الخاصة بالأسلاك، وتتابع العمليات. لماذا أنزع أياما أخرى من حياة تكاد تكون انتهت؟ في إحدى المرات، في فترة مراهقتي، عندما كنت ما زلت أفهم الشِّعر، قرأت أبياتا لشاعر مجري يقول فيها: «عش بلا فائدة... سيصبح موتك أيضا عبثا». في تلك الأيام أتذكرها طول الوقت.

لأتمكن من رؤيتك دون أن يلحظني أحد بدأت آخذ معي أكياسا من البلاستيك، أجلس هناك أسفل البناية وأعطي طعاما للقطط. لقد اخترعت اسما لكل منها. عندما تأتي جميعا أسميها الأطفال. ألاحظ نظرة الخجل في عين حارسة عقاري. بالتأكيد تفكر أن الآنسة م قد فقدت عقلها. أرى نظرات الناس في الطريق على رأسي، ولكن بدلا من أن أغضب أشعر بالإعجاب؛ فبنفخة واحدة فقط، استطاع الموت أن يبعثر حكمتي! سرعان ما سأختفي! ما الذي يهم أكثر من ذلك؟ لو كنت حكيمة الآن لقلت لك الكلمات الأخيرة، تلك الكلمات العظيمة والجميلة التي ترمز لحياة ما، ولكن لا يحضرني إلا الضحك. هل يكون هذا تأثير الخلايا المجنونة على عقلي؟ من يدري.

هذه الليلة حلمت. حلمت ذلك الحلم. لساعات وساعات كنت أسير في عاصفة ثلجية، مع كل خطوة كانت قدماي تنغرسان حتى ركبتَيّ. كنت أتقدم بصعوبة أكثر، وأشعر بتعب شديد. عندما رأيت ذلك الضوء كنت بداخلي أشعر بالفعل بذلك الخدر الهادئ لآلام البرد يسيطر عليّ. ضغطت على أسناني وتشجعت. سقطت على

الباب تقريبا كالأموات، لم يكُن مغلقا، ولكن مواربا، وفُتح. في الداخل كانت المدفأة مشتعلة، وعلى المائدة كان يوجد بعض النبيذ وحساء. أكلت وشربت، ثم صعدت إلى الطابق العلوي، كان السرير مُعدا، على الوسادة كان يوجد رداء للنوم من قماش الفانلة الأبيض. بعد أن ارتديته اختفيت أسفل الغطاء. بجواري كانت توجد شمعة مشتعلة، وفي الخارج كانت العاصفة ما زالت غاضبة، ثم بدأت أرى كل من يمكث في الغابة المحيطة، على قمم الأشجار وفروعها، على الأرض، وانتهى أمري أسفل الطبقة البيضاء. كسرت القشرة البيضاء، ونزلت أكثر إلى أسفل، هناك حيث توجد ثمار البلوط، والبذور، والعناصر الحيوية المستعدة لتستيقظ في الربيع. رأيت الثعابين تنام ملتفة الواحدة على الأخرى، والضفادع مُمددة بقدميها المفتوحة كأنها ميتة. لم أعرف ماذا كنت أنا، ربما دودة، أو نملة، أو مجرد نظرة. هناك في أسفل كنت أتحرك بسهولة. كنت في الفراش ولم أكُن في الفراش، كنت هناك وفي كل مكان. كنت أتنفس. وفجأة انطفأت الشمعة ونمت. نمت وحلمت أني أنام. عندئذ فقط فهمت.

عندما استيقظت ذلك الصباح، كنت أشعر بوهن شديد. فتحت الخزانة بصعوبة، وأخرجت الطقم الأزرق، كويته، وطويته في البداية بداخل ورق مغطى بالزهور ثم في ورق طرود. تأكدت أن في حقيبتي تذكرتين للحافلة. اخترت مكتب بريد بعيدا، واخترعت اسما وعنوانا للمرسل.

أمام الشباك سألتني الموظفة إذا كان يوجد خطاب بالداخل: «لا، لا يوجد خطاب». عندئذ ألقت به على ميزان الطرود، ورأتني وهي تلقي به وقد جزعت، فسألتني بقلق: «هل هو شيء هش؟».

بصوت ضعيف أجبتها: «شديد الهشاشة».

صوت مُنْفَرد

بالأمس أتى العاملون بالتليفزيون. كنت أنتظرهم بالفعل منذ الساعة الثانية، إلا أنهم أتوا قبل الرابعة بقليل. كان عددهم ستة أشخاص. أخذوا على الفور يبحثون عن موصلات الكهرباء. بينما كانوا يضبطون كاميرا التليفزيون أمام مقعدي، قلت على الفور للمحاورة إنها المرة الأولى التي أتحدث فيها بالتليفزيون. هل هم متأكدَون بالفعل أنه يجب عليّ التحدث؟ هل يرغبون في الحديث معي أنا بالذات؟ طمأنتني هي وقالت: «لا بد أن تتحدثي كأن الآلة غير موجودة». في ذلك الوقت استمر الرجال بالحركة في المكان، وفي كل مرة كانوا يحركون مقعدا أو كتابا، كنت أفزع، ليس بسبب الأشياء في حد ذاتها ولكن بسبب التراب أسفلها. أنت تعرفين جيدا كيف أعيش، وكل التراب المحيط بي هنا. كيف يمَكنني أن أشرح لهم عن وهني وأنه لا يوجد من يأتي ليساعدني في نظافة المنزل؟ بالنسبة إليك أنت كشابة بالتأكيد ستسخرين مني، فهذه تفاهات، أليس كذلَك؟ إلَا أنني شعرت بخجل شديد. هذا خطأ تربية فترة ما. صبرا. وهكذا عندما فتحوا الأنوار توسلت إليهم أن يؤطروا فقط وجهي، وليس أي شيء آخر موجود في الحجرة، لا الكتب، ولا تماثيل زوجي. وسألت أيضا: «هل سأظهر على

الشاشـة فـورا؟»، أخـذوا يضحكـون. لا، سـيُعرض كل شيء خـلال ثلاثـة أشـهر، وربمـا أربعـة. إذا لم يعجبنـي شيء يمكننـي أن أقـول لهـم وهـم سـيلغونه. هـل يمكـن أن تتأكـدي إذا كان هـذا حقيقيـا؟ قالـوا لي هـذا، ولكننـي لا أصدقهـم كثـيرا...

بعـد ذلـك بنصـف سـاعة كانـوا مسـتعدين للحـوار. أحـد الرجـال خبـط عـلى لوحـة، وصرخ: «الناجـون، الأول»، وبـدأت التصويـر. كانـت الصحافيـة جالسـة أمامـي، دون أن تغـير ابتسـامتها قالـت اسـمي، ولقبـي، وبابتسـامة أكـبر سـألتني: «هـل تريديـن أن تحـكي لنـا قصتك؟» في البدايـة كان صـوتي يرتعـش بعـض الـشيء، ثـم رويـدا رويـدا أصبـح طبيعيـا.

تحدثـت عـن طفولتـي، وعـن حيـاة المدينـة في زمـن الحـرب الكبرى. تحدثـت عـن أبي وعـن أمـي وأصلهـما. حكيـت كيـف تعرفـت إلى زوجـي، وبدايـة الاضطهـادات. أتعرفـين، تحدثـت بطريقـة جيـدة جـدّا، دون أي انفعـال، لم أكـن أتخيـل أننـي كنـت سأسـتطيع ذلـك. كنـت أتحـدث ليـس كأننـي أحـكي قصتـي، ولكـن كأنهـا قصـة شـخص آخـر. لم أكـن أدرك كـم مـضى مـن الوقـت، كانـت المذيعـة تومـئ واسـتمرت في الابتسـام، كان يبـدو عليهـا الـرضى. تحدثـت أيضـا عـن مولـد ابنتـي، وعلاقتنـا الصعبـة.. وفي اللحظـة التـي كنـت أتحـدث فيهـا عـن موتهـا قاطعتنـي الصحافيـة لأول مـرة وسـألتني: «متـى حـدث هـذا؟».

عندئـذ، بداخـلي بـدأت أحـصي الصيفيّـات التـي مـرت، كنـت أحصيهـا وبمجـرد أن أنتهـي أنسـاها، ثـم أخـذت أحصيهـا بهـدوء ولكـن في اللحظـة نفسـها التـي كانـت تصبـح جليـة في ذهنـي، وقبـل أن تعـبر مـن مخـي إلى لسـاني، كنـت أنسـاها مـرة ثانيـة. لا أعـرف كـم مـن الوقـت مـر، لم يبـدُ عـلى المحـاوِرة القلـق، ولكننـي أنـا كنـت قلقـة،

وأصبحت من دقيقة إلى أخرى أكثر اضطرابا.

كانت تلك المقاطعة هي السبب في كل شيء. أتعرفين، لم أكن أتوقع ذلك، فقدت الخيط. هذا ما يعنيه التقدم في العمر. كنت أبحث عن أشياء أقولها لأعيد ربط الحوار ولكن لم أجد سوى الفراغ في رأسي. استمرت الكاميرا في التصوير، كانت ضوضاؤها تُسمع في الغرفة، فقط ذلك الصوت. بعد قليل عادت المحاوِرة تتحدث لتساعدني.

قالت: «أمك أيضا ماتت بطريقة مأساوية، أليس كذلك؟ هل تريدين أن تقصي علينا كيف كان ذلك؟».

فاجأتني، لم أكن أفكر في أمي في تلك اللحظة ولكن كان للأشياء ترتيب مختلف تماما. بدلا من أمي رأيت أمامي إبريق الشاي في المطبخ، بقاعه المتقشر من الكلس، أبعدت الإبريق، وقلت: «ماتت..». وظهرت شجرة الجارونيا من نافذتي صفراء جدّا وجافة، لأنني منذ أكثر من ثلاثة أعوام لم أغيّر لها التربة، طردت أيضا هذا وبدأ كل شيء يرتبك. أعرف، بدا الأمر قليلا مثلما كنا ونحن أطفال نلعب ندور حول أنفسنا كثيرا وعيوننا مغلقة، ندور وندور بقوة أسرع ثم نتوقف، عندما نفتح عيوننا نجد أن كل شيء حولنا لا يزال يدور، ولا نعرف بعد أين نحن، مثل عقلة الإصبع في الغابة، شيء من هذا القبيل، هذا ما حدث لي، كنت أجاهد ولم أعد أعرف أين كنت.

عندئذ أعادت عليّ الصحافية السؤال. بطبيعة الحال كانت هي تعرف الإجابة بالفعل، فعلت ذلك من أجل المستمعين الذين لا يعرفون القصة، قالت: «عندما توفيت والدتك كانت في المستشفى، أليس كذلك؟».

عندئـذ قفـز الغطـاء المحكـم، صعـد كل شيء إلى أعـلى، في فمـي وعينـي. صرخـت: لا أعـرف! وبـدأت في البـكاء. رأيـت وجـه أمـي بـين الملاءات، جسـدها الجـاف، رأيتهـا كـما أراهـا الآن بينـما أحـكي ولكـن كـما كانـت هنـاك في تلـك اللحظـة، في اللحظـة التـي حـدث فيهـا هـذا. لم أكـن قـد بكيـت، لم أبـك قـط ولا حتـى في كل السـنوات التـي تلـت ذلـك، كنـت أحـاول أن أتذكَـره، ولكـن فجـأة، تقريبـا بعـد مـرور سـبعين عامـا، كانـت هنـاك، أمامـي، كانـت هـي في الفـراش ثـم رأيـت الفـراش المبعـثر والخـالي والشـاحنة الألمانيـة المغلقـة ترحـل أمـام عيني. والآن كنـت أتصـدع مـن الداخـل مثـل مركـب قديـم. أعرفهـا، فبهـذه الطريقـة تنفجـر أوهـان الشـيخوخة. مـن يـدري لمـاذا بمـرور الأعـوام نبـكي دائمـا أكـثر، يبـدأ المـرء ولا يسـتطع التوقـف، يسـتمر لسـاعات ولا شيء يعزيـه. يصبـح القلـب أكـثر وهنـا، أكـثر عُريـا، وتصبـح الجفـون أضعـف. يتوقـف المـرء فقـط في أثنـاء النـوم، عندمـا يخلـد إلى النـوم. هـذا مـا حـدث لي بالأمـس. والآن حتـى وأنـا أحـكي لـك مـا حـدث أشـعر بالخجـل وتكتسـيني حمرتـه.

مكثـت الصحافيـة بـلا حركـة، مسـتقيمة وهـي تمسـك بالدفـتر في يدهـا، وصـوت الكامـيرا لا يـزال في الحجـرة. كنـت أعتقـد أنهـم سـيطفئونها، إلا أن هـذا لم يحـدث، كانـوا هنـاك جميعـا ثابتـين، كأن ثعبانـا مـا نوّمهـم مغناطيسـيّا. في ذلـك الوقـت كنـت أنـا أبـكي بقـوة أكـثر، أشـهق، كنـت أبـكي أمـي، كنـت أبـكي لأننـي لم أسـتطع التوقـف عـن البـكاء، كنـت أبـكي لأننـي أبـكي وهـم يصوروننـي. وفي أثنـاء بـكائي أشرت لهـم بسـبابتي، لا، فكـما تعلـم قدمـاي مريضتـان ولا أسـتطيع النهـوض لأذهـب إلى حجـرة أخـرى، أشرت لهـم بــ: لا، ولكـن لم تُفـد في شيء، وهكـذا خبَّـأت وجهـي بـين يـديّ، وضعتهـما كالصدفـة عـلى

وجهـي، كانـت الدمـوع تنـزل أسـفلهما، كنـت أشـعر بحـرارة في صدري، وبـأن كنـزتي مبتلـة، فكـرت، الآن سـأقول لهـم كفـى، اسـتجمعت كل قـواي لأفعـل ذلـك، كان تركيـزي كلـه هنـاك في طـرف مـا عـلى لسـاني، فتحـت فمـي، وبـكل نفـس في جسـدي صرخـت: «لم يعـد في الثلاجـة زبـد!».

فقط عندئذ تحركوا، وأطفؤوا الكاميرا.

عندمـا خرجـوا، كنـت مـا زلـت أبـكي، بكيـت الليـل كلـه. هـل تعتقديـن أن لإيقافهـم طريقـة؟ أنـت تعرفـين كثيريـن هنـاك بالداخـل، هـل يمكنـك أن تسـألي؟ لا أسـتطيع الهـدوء، ولم أعـد أسـتطيع النـوم. هـذه أيضـاً مشـكلة السـن، تسـتحوذ عليـك فكـرة ولا تسـتطيع أن تنزعهـا قـط. لقـد صعـد كل شيء للسـطح. مثـل ذلـك الـشيء الخـاص بالطائـرات، الصنـدوق الأسـود. يطـيرون لمـدد طويلـة، وكل شيء يسـير عـلى مـا يـرام، يقـول لنـا الصنـدوق إننـا طرنـا فـوق البحـر والجبـال، وعبرنـا عاصفـة، كل شيء عـلى مـا يـرام، كل شيء رائـع، ثـم تسـقط الطائـرة، ونعـثر عـلى الصنـدوق، وعندمـا نعـثر عليـه ونفتحـه نكتشـف أن مزلاجـين أو ثلاثـة كانـت تتراقـص بالفعـل منـذ فـترة، وأن لتلـك المزاليـج أضيفـت رعشـة في أحـد الجناحـين، في البدايـة رعشـة الجنـاح ثـم رعشـة في كل المُفاعـل، وانفجـرت الطائـرة بـكل أسرارهـا المكتوبـة هنـاك بالداخـل، في القلـب الأسـود.

لمـاذا أتحـدث؟ لا أعـرف شـيئا عـن الطائـرات، وعـن صناديقهـا، قـرأت فقـط شـيئا في الصحـف. «تتحدثـين لأن لـك لسـانا»، هكـذا كان يقـول لي أبي. حقيقـي. ولكـن أتعرفـين، منـذ لم يَعـد أحـد حـولي أصبحـت لـديّ هـذه العـادة، أن أتحـدث بمفـردي. يمكننـي أن أسـتمر هكـذا لسـاعات طويلـة، نـوع مـن الضوضـاء في الخلفيـة، مثـل الراديـو.

أنظـر إلى شـجرتي، شـجرة الجارونيـا. مـاذا يجـب عـليّ أن أفعـل حتـى تسـتعيد لونهـا؟ إنهـا تقـف هنـاك يكسـوها الصفـار، أسـتيقظ كل صبـاح وأفكـر، الآن سـأنتزعها، الآن سـألقي بهـا، ثـم لا أفعـل ذلـك ويـأتي المسـاء وهـي مـا زالـت هنـاك، أكـثر شـحوبا مـن ذي قبـل.

في كل مـرة تأتـين لزيـارتي أشـعر بالدهشـة. لمـاذا؟ أتسـاءل. هـل هـو نـوع مـن العقـاب؟ ومـاذا يمكـن أن يكـون غـير هـذا؟ أنـا لسـت سـوى عجـوز فقـيرة، يـزداد غبـائي يومـا بعد يـوم. لا فائـدة مـن أن تنكر هـذا. أنـا أيضـا أدرك هـذا بنفـسي. أذهـب إلى حجـرة مـا لأتنـاول شـيئا، وعندمـا أصـل إلى هنـاك لا أتذكـر لمـاذا ذهبـت. أتجـول قليـلا ثـم أعـود إلى مـكاني. هـل تعرفـين مـاذا فعلـت ذلـك اليـوم؟ لقـد غليـت الميـاه دون أن أضـع المعكرونـة بهـا... هـذا يحـدث لـك أنـت أيضـا؟ ربمـا، إلا أن الحـال في أيـام الشـباب مختلـف، ينـسى المـرء لأن لديـه أشـياء أخـرى تشـغله. لقـد أدركـت أننـي تقدمـت في السـن لهـذا السـبب، في البدايـة تكـون الذكريـات متراصـة جميعـا هنـاك في صـف، جميلـة، تقـف معـا الذكريـات الجيـدة وتلـك السـيئة، الكبـيرة والصغـيرة، تعرفـين مـن رأيـت اليـوم السـابق، ومـاذا حـدث في نهايـة العـام مـن سـتة أعـوام مضـت، كل شيء موجـود بالترتيـب كأنـه صـف لآلـئ في عقـد، ثـم، فجـأة، تُدركـين أن الأمـر لم يعـد كذلـك، شيء مـا انهـار. هـذا هـو الشـعور، فالذاكـرة مثـل أرضيـة المنـزل، منـزل مـن الخشـب، بالتدريـج تصبـح بعـض العـوارض باليـة، بالنظـر إليهـا، حتـى إذا أصبحـت هشـة تبـدو مشـابهة لـكل العـوارض الأخـرى، وهكـذا يشـعر المـرء بالثقـة ويخطـو إلى الأمـام، ولكـن فجـأة، شيء مـا يختفـي، يختفـي في مسـتوى لا يمكـن الوصـول إليـه، فتسـقط تلـك الدعامـة وكل مـا حولهـا، تنتهـي في الدخـل، كأن شـيئا مـا امتصهـا، وكلـما مـرت الأيـام زادت الدوامـات،

كل شيء يصبح كدوران الطاحونة، تتحركين دائما بمزيد من الحذر بين تلك الدوامات، ولأقل خطأ يمكن لذلك القليل الذي ما زلتِ تحافظين عليه، أن ينتهي هناك بالداخل.

إذا فهو الظلام، أليس كذلك؟ الظلام ولكنك أنت ما زلت حية، هذا هو أبشع شيء، الشيء الذي يثير الغضب، أن القلب والمعدة ما زالا مستمرين، ويمكنهما الاستمرار لسنوات بينما لم يعد لك أنت أي وجود.

يعتني بك من حولك، يمنحونك أفضل الأطعمة لتأكليها، عندما تتسخ ينظفونك كالطفل، يتحدثون معك كالطفل أيضا، يفعلون كل شيء من أجل قلبك ومن أجل معدتك، يتظاهرون بأن أكثر شيء يهمهم هو أن يستمر هذان العضوان في العمل. من حين لآخر أفكر بأن حظي الوحيد في هذه الدنيا هو هذا، هو أنني مسنة ووحيدة في العالم، لن يعتني بي أحد، وما زالت أحشائي مستمرة. هل تتذكرين السيدة ج؟ هل عرفتها؟ هل تعرفين أنه منذ ثلاثة أشهر اضطر أبناؤها إلى أن يغلقوا عليها المنزل بالمفتاح. كل صباح تستيقظ وتذهب إلى المطبخ وتسأل: «أين غدائي؟» ثم تصافح الجميع: «باي باي، الآن سأذهب إلى المدرسة»...

هل تفهمين؟ من الأفضل أن يعثر عليكِ رجال الإطفاء ممددة على الأرض. أترين، من حين لآخر، عندما أجلس هنا بمفردي العصر كله فوق هذا المقعد، أرى النور وهو يضعف بالتدريج، وتبدأ الظلال تلف الغرفة، ثم يهبط الظلام، وأنا جالسة هنا، أسفل ذلك المصباح، أقرأ شيئا ما، أشعاري المفضلة، أقرأ قليلا ثم أتركها لأنني أتعب، وأغلق عيني وأفكر، وأقول لنفسي، الآن أنا متأكدة أن الروح لها وجود.

ثـم تهاتفنـي السـيدة ج وتقـول: «أنـا مـسرورة جـدّا؛ اليـوم أخـذت ثمانيـة في الحسـاب، هـل سـتأتين عنـدي لنحـل الواجبـات؟». عندئـذ أسـأل نفسـي، وإذا كانـت الـروح موجـودة، فأيـن ذهبـت روح السـيدة ج؟ هـل ذهبـت بالفعـل إلى السـماء وتنتظـر هنـاك أن يلحـق بهـا الجسـد؟ أو أنهـا ليسـت موجـودة، كل مـا هـو موجـود هـو القلـب والأمعـاء واللسـان. إذا بـدأت، فأيـن تبـدأ؟ وإذا انتهـت، فمتـى تنتهـي؟ أيـن يمكـن أن تبقـى عـلى قيـد الحيـاة؟ هـل يوجـد مخـزن مـا؟ كلهـا أشـياء لا نحتـاج أن نتسـاءل فيهـا، أليـس كذلـك؟ لا بـد أن نؤمـن، وألا نبحـث. إلا أننـي كنـت مصابـة بهـذا الـداء منـذ الأزل، لم أسـتطع التخلـص منـه، فأنـا منافقـة، لا بـد أن أقـول: لا وجـود للـروح، وهـذا حسـن، إلا أننـي أقـول، أحـب أن يكـون لهـا وجـود، ربمـا هـي موجـودة ولكننـي لا أسـتطيع رؤيتهـا، لا أفهـم كيـف تذهـب مـن مـكان إلى آخـر. هـل تنفصـل؟ هـل تنفـك ثـم تلتصـق؟ هـل هـي مصنوعـة مـن كـرات صغـيرة وتتدحـرج؟

أتعرفـين، عندمـا كنـت صغـيرة كان أبي يحـرص جـدّا عـلى يـوم السـبت، كان يريـد أن نحترمـه، وهكـذا، منـذ غـروب يـوم الجمعـة حتـى غـروب السـبت كنـا نتوقـف عـن عمـل أي شيء. كان هـذا يعجبنـي جـدّا، كان تقريبـا مثـل تلـك اللعبـة، لا أعـرف إذا كانـت موجـودة حتـى الآن، التماثيـل الجميلـة، كنـا نسـير ونسـير، ثـم بعـد ذلـك بنـاء عـلى أمـر نمكـث جميعـا في ثبـات. في صبـاح السـبت أيضـا كانـت توجـد تلـك العـادة، كنـت أذهـب أنـا وهـو لنتمـشى إلى المدينـة بمفردنـا، عندئـذ، كان هـو، ممسـكا بقـوة بيـدي، يقـول لي: «انظـري، هـل تريـن، كل شيء مـزدوج. هـل تعرفـين لمـاذا؟ لأن اليـوم، فقـط اليـوم، تريـن بزوجـين مـن العيـون، بعينيـك وأيضـا بعينَـي روحـك».

كان نوعا من السحر، شيئا مدهشا. ونحن أطفال نعشق تلك الأشياء، كان من الجميل لو أحببناها أيضا مع تقدم السن، إلا أنها لم تكن مجرد فكرة، كانت حقيقة. في السبت كنت أسمع الضوضاء والحفيف والهمس ولم أكن أسمعها قط يوم الأحد ولا حتى يوم الأربعاء. كنت أرى كل شيء مزدوجا، من جهة كان يوجد الجسد الساكن ومن جهة أخرى كان هناك شيء آخر يتقدم إلى الأمام، يتحرك بين الأشياء بسرعة كالسمكة، مثل سمكة الأنقليس الرشيقة والسريعة جدّا. شيء غريب، أليس كذلك؟ ولكن في تلك الأيام كان يبدو لي أنني أخف، لا وزن لي. هل جربت أنت أيضا ذلك الشعور عندما ذهبت إلى القدس؟ إذا يمكنك أن تفَهمينَي، يمكنك أن تفهمي ما أقوله. مَن حين لآخر أتخيل هَذا، أتخيل أنني رجَل سياسي عظيم، أو رئيس دولة أو شيء من هذا القبيل. هل تعرفين ماذا كنت سأفعل إذا كنت أحد هؤلاء؟ بالتأكيد ليست قوانين عظيمة، ولا ثورات، لا شيء من هذا، سأفرض فقط يوم راحة إجباريا على الجميع، ليس عطلة، العطلة موجودة بالفعل، ولكن راحة. أنا متأكدة أنه بعد قليل كل شيء سيصبح أفضل. هل تعرفين، في السبت، حتى أمي كانت تهدأ. كنا نراها في مقعد قريب من الجراموفون، وكانت تمكث هناك طَوَال الوقت. كانت تحرك يديها ببطء، أو تغني أغاني الأطفال بصوت منخفض. حسب ما أتذكر لم يحدث قط أن أصابتها في أي سبت أزمة عنيفة. في الأيام الأخرى، أجل، كانت تصيبها. كانت تصيبها بطريقة أعنف من كل الأيام في فترات تغيير الفصول، بين الشتاء والربيع، وبين الصيف والخريف. كانت فكرتها المسيطرة عليها هي أن لديها فيروسات في المخ، وأنها موجودة هناك بالداخل تصدر صريرا، وتقرض فيه ببطء.

نجاتها الوحيدة تكمن في النحل، فقط هو، بإبره الطويلة يمكنه أن يخرجها واحدة تلو الأخرى، يمكنه أن يستخرجها كالحفار، عليهم أن يحفروا كل شيء، الشعر، والجلد الموجود، عظام الجمجمة، سيكون صيدا وحشيا، بلا رحمة، ولكن في النهاية ستفوز الحشرات الطيبة، وستنجو هي إلى الأبد. في الواقع أتذكرها هكذا، تقف أمام النافذة، تقف هناك وشعرها منسدل، وتنادي أسراب النحل بصوت مرتفع. لا، لم تولد مجنونة بطبيعة الحال، وإلا لما تزوجها أبي قط، بل، بالاستماع إلى جدي، كانت فتاة رقيقة وطيعة مثل قليلات. كل شيء بدأ بسببي، لأنني وُلدت. هذا ما حدث -حكوا لي عندما كبرت- بعد ساعتين من الولادة شعرت بأنها متسخة، كانت تريد أن تغتسل وعندما كانت تراني كانت تصيح: أبعدوا عني هذا الشيء القبيح!

ثم قال الأطباء إن هذا كان سيحدث في كل الأحوال، لسبب أو لآخر، ولكن ماذا كان يمكن أن يهمني في كل هذا؟ فلقد كنت بالفعل هناك، كنت قد وُلدت، كنت ابنة مجنونة. نوع من الوصم، هل تفهم؟ شيء جعلني أعيش أقل. كنت أشعر بها دائما هناك، متألمة. أنت أيضا خفت من أن تُصابي بالجنون؟ أعتقد أنه إن آجلا أم عاجلاً يحدث للجَميع، شيء طبيعي بسبب الطريقة التي تسير بها الحياة. ولكن بالنسبة إليّ الأمر مختلف. كنت أعلم، بل أعلم الآن، أن دمها اختلط بدمي وأن ذلك الشيء يدور بداخلي، أحيانا في الليل أشعر به، يتحرك للأمام وللخلف في عروقي ويتحدث معي، يقول لي تعالي، تعالي هنا تجاهي. في الأسبوع الماضي شاهدت في التليفزيون فيلما وثائقيا عن الأشجار اليابانية، تلك القزمة، إنه شيء بشع، يمكن أن يخطر ببال اليابانيين فقط!

هـل تعرفـين كيـف يفعلونهـا؟ إنهـا أشـجار مثـل كل الأشـجار، مـن كل الأنـواع، أشـجار تفـاح، صنوبـر، زيتـون، بذورهـا متسـاوية، أي لهـا الشـكل نفسـه، الأوراق نفسـها، الألـوان نفسـها، كل شيء يمكنهـا، بـل لا بـد لهـا أن تنمـو، ولكنهـا لا تسـتطيع ذلـك لأن هنـاك مـن يراقبهـا، مـن يقطعهـا مـن هنـا ومـن هنـاك، مـن يقمعهـا ويجبرهـا عـلى أن تظـل صغـيرة. هكـذا أنـا، أنـا وحـدي، أجـبرت نفـسي عـلى الأفـكار الصغـيرة جـدّا، عـلى الضآلـة. أتذكـر جيـدا، عـلى سـبيل المثـال، أن في مراهقتـي، أتعرفـين عندمـا بالسـليقة تحملـين أفـكارا عظيمـة، أحيانـا في الصيـف كنـت أعـود في المسـاء إلى المنـزل متأخـرة، كنـت أسـير بمحـاذاة البحـر وأشـعر بالسـماء المليئـة بالنجـوم فوقـي، كانـت تمكـث هنـاك فـوق، ممتـدة بـكل مـا عليهـا مـن نجـوم كالملاءة الكبـيرة، تلـف كل شيء، كنـت أعـرف أنهـا هنـاك، وأنهـا أيضـا جميلـة، رائعـة الجـمال، إلا أننـي لم أكـن أرفـع رأسي قـط، كنـت أفـرض عـلى نفـسي ألا أرفعهـا. كنـت أخـاف، أتفهمـين؟ كنـت أخـاف مـن الظـلام، مـن الصمـت، مـن الأضـواء البعيـدة، كنـت أخـاف مـن تلـك الأشـياء الخفيـة. لسـنوات ذهبـت إلى الشـاطئ دون أن أدخـل قـط إلى الميـاه، لم أقـرأ قـط كتابـا إذا لم أعـرف ملخصـه مسـبقا.

زوجـي؟ عرفتـه في مراهقتـي، منـذ أن عرفتـه سـارت الأمـور بشـكل أفضـل. في تلـك الفـترة كانـت أمـي تعالَـج في المستشـفى. كنـت نـادرا مـا أذهـب لزيارتهـا. هـذا مـا يحـدث في الحيـاة، أليـس كذلـك؟ يفكـر المـرء في المسـتقبل. كان هـو تخـرّج لتـوه في الحقـوق، كانـت لديـه هوايـة -أعتقـد تسـمونها hobby حاليـا- النحـت، رجـل قـوي وهـادئ، عندئـذ كنـت أفكـر في الـزواج، والأطفـال، ودوري كأم. وفي تلـك الشـهور أيضـا كانـت قـد بـدأت أول مظاهـرات.

أتذكـر جيـدا أحـد أيـام العـصر في مـارس. غريبـة تلـك الذاكـرة، أليـس كذلـك؟ لا أعـرف أي شيء عـما حـدث بالأمـس، ولكننـي أتذكـر الأشـياء القديمـة، أراهـا أمامـي كأنهـا تحـدث الآن. كنـت أنـا وأبي في الصالـة، والنوافـذ مفتوحـة، كان هـو يُـدوزن الكـمان، وأنـا أقـرأ. في لحظـة مـا مـرت مسـيرة وكانـوا يصرخـون بقـوة بالألمانيـة: «Jugden Raus!» عندئـذ نحيـت الكتـاب جانبـا وسـألت أبي: «مـاذا يقولـون؟» قـال هـو دون أن يـترك الآلـة: «يقولـون Jugend raus، ليخـرج الشـباب». قلـت أنـا: لمـاذا؟ أجابنـي: «لأن هـذا حقيقـي، لديهـم حـق، فالشـباب يجـب أن يخرجـوا ليسـتمتعوا..».

هـل تفهمـين؟ كان يرفـض أن يعـرف شـيئا عـن هـذا. إن فقـدان الإيمـان خطيئـة، وأعتقـد أن هـذا مـا كان بداخلـه.

أنـا أيضـا امتنعـت عـن أن أدرك. أتعرفـين لمـاذا؟ بعض الشيء بسـبب تأثـيره، والبعـض الآخـر لأننـي كنـت مقتنعـة أن كـون أمـي مجنونـة يعفينـي مـن أي شر آخـر. أي، إذا كان علينـا أن ندفـع ثمنـا مـا مـن الألم، فأنـا قـد دفعتـه بالفعـل، موقفـي سـليم، ولا يمكـن أن يحـدث لي شيء آخـر. عندئـذ انشـغلت بتجهيـزي للعـرس، وحفـل الخطوبـة، كنـت أنتظـر زيـارات زوج المسـتقبل. كنـت أعيـش هكـذا، مثـل كل فتيـات تلـك الحقبـة. نحـن الاثنـان في المرتبـة الأولى بمشـاريعنا وفي المرتبـة الثانيـة والثالثـة، والرابعـة، بعيـدا جـدّا، التاريـخ. كيـف كان يمكننـي أن أتخيـل أنـه هـو مـن سـيطيح بنـا؟

أتعرفـين، مـن حـين لآخـر الآن، يحـدث أن أتحـدث مـع شـباب مثلـك، عندئـذ أفهـم أنكـم أفضـل بكثـير. أنتـم تقـرؤون، تعرفـون، تنظـرون حولكـم بنظـرة لا يهـرب منهـا شيء. أنـا سـعيدة بهـذا، أفكـر في أن هـذا شيء حسـن، هكـذا لـن يحـدث شيء آخـر. في زمننـا كان

لأمـر مختلفـا، كانـت هنـاك أشـياء كبـيرة: الديـن، اللـه، الـروح، ثـم كانـت توجـد تلـك الصغـيرة اليوميـة. كانـت تنقصنـا، كيـف أقـول هـذا؟ مـا بينهـا مـن أشـياء.

عندمـا دخلـت أمـي المستشـفى كانـت الأخبـار قـد وصلـت بالفعـل مـن ألمانيـا، أخبـار لم يكـن مـن الممكـن تصديقهـا، وفي واقـع الأمـر، لم يصدقهـا أبي. حتـى عندمـا رحـل أصدقـاؤه إلى فلسـطين، اسـتمر هـو في عنـاده. هـل تعرفـين مـاذا كان يقـول؟ كان يقـول: «النـاس تنفعـل مـن أقـل شيء! لم نفعـل قـط الـشر بـأي أحـد، لمـاذا إذا يمكـن أن يحـدث لنـا أي شيء؟» كان يتحـدث هكـذا، وكنـت أنـا، بطبيعـة الحـال، أجـبر نفسي عـلى أن أتبـع أفـكاره.

شيء غريـب، أليـس كذلـك؟ الآن عندمـا أعيـد النظـر لـكل شيء، أفهـم أننـا نجونـا فقـط بفضـل أمـي. ربمـا فهمـت ذلـك بالأمـس، ولهـذا دون أن أعـرف انفجـرت في البـكاء. بالأمـس فهـم قلبـي، الآن عقـلي أيضـا. مـضى كل شيء هكـذا، ببـطء. كـما قلـت لـك، كانـت في المستشـفى منـذ أكـثر مـن ثلاثـة أعـوام عندمـا حـدث مـا حـدث. سـاء مرضهـا، لم يكـن بالإمـكان تركهـا بالمنـزل، إلا أنهـا هنـاك في المستشـفى أصبحـت هادئـة، كانـت تمكـث تقريبـا طـوال الوقـت في الفـراش وبصفـير قصـير وأحيانـا طويـل، ولغـة اخترعتهـا هـي، كانـت تنـادي على أصدقائهـا، عـلى النحـل. أحيانـا أيضـا كانـت تحـرك ذراعيهـا إلى أعـلى، كانـت تهزهـما كأنهـا تدعـوه. تلـك هـي تمامـا الصـورة التـي مـا زلـت أحتفـظ بهـا.

أخذوهـا في صبـاح أحـد أيـام مايـو، لم نكـن نعـرف أي شيء، وصلـت أنـا إليهـا هنـاك والزهـور في يـدي، كانـت تريـد الزهـور دائمـا للنحـل، ووجـدت فراشـها مبعـثرا وخاليـا. لم تكـن في الحـمام، ولم تكـن في غرفـة

لإسعاف، سألت الأطباء بصوت مرتفع: «أين هي؟»، وكانوا هم يحدقون فيّ دون أن يقولوا شيئا، وعندما وصلت إلى الفناء لمحت شاحنة ألمانية، شاحنة مقفولة تماما، يقودها جندي، رأيتها ولم أنتبه، فقط بعد ذلك، عندما جُبت الممرات ذهابا وإيابا، وبعد أن رأيت عدد الأسرّة الخالية فجأة، بدأت أشك، بل وفهمت تماما ما حدث، خرجت بسرعة، وعندما وصلت إلى الفناء كانت الشاحنة قد أدارت الموتور وبدأت في التحرك. تبعتها وأنا أصرخ، والزهور تسقط في كل الجهات، أراها جيدا تلك الزهور على الإسفلت، لم تُفد في شيء. في الأيام التالية، بحثنا عنها في كل مكان، حرك أبي كل أصدقائه المهمّين الذين أمكنه تحريكهم، لم نستطع أن نعثر على أي خبر. تلاشت، اختفت إلى الأبد.

برنامج تحسين النسل. سمعت عنه، أليس كذلك؟ قبل القضاء على اليهود يجب القضاء أولا على المعاقين والمجانين. ثم قال لنا أحدهم، في الأسابيع التالية، عن طريق المصادفة إنها لا بد قد نُقلت إلى ألمانيا، نُقلت إلى هناك في سبيل تقدم العلم، من أجل التجارب. ولكن قال لنا آخر إنهم قضوا عليهم بالفعل في المدينة، من خلال أنبوبة غاز موجودة في الشاحنة نفسها. أخجل من أن أقول لك هذا، ولكن حتى الآن لا نعرف أين جسدها، أقصد ما تبقى منه. بعد الحرب خرجت قوائم دقيقة، كان بإمكاني أن أحصل عليها وأن أقرأ فيها كل الأسماء، إلا أنني لم أفعل هذا.

هل ستفعلين أنت هذا؟ القوائم ما زالت موجودة، هكذا قبل أن أموت يمكنك أن تَقولي لي. أنا لا، بحق السماء، لا أفكر حتى. منحيني هذه الرَفاهية الصغيرة، ألا أرى ولو لمرة واحدة، أن أتحلى بالجبن.

أتعرفين، في تلك المرة لم يتمكن الألم من أن يصل في وقته، مكث هناك ثابتا كأنه في صورة. فجأة حدث لنا ذلك الشيء، فهمنا أن كل شيء كان حقيقيا. قبل كل شيء كان لا بد أن نفكر في أنفسنا، أتفهمين، بأن نبحث عن نجاة. بالنسبة إلى نهاية أمي، مكثت هناك بالداخل، كأنها كتلة إسمنتية في العمق. كنت أعرف أن أمي قد ماتت، كنت أعرف أنني لا أعرف أين ماتت، ولكن كنت أعرف ذلك كمعلومة، مجرد خبر، ولكن ليس بقلبي. ثم بالأمس، مع ذلك اللقاء، شيء ما انكسر، وخرجت إلى الخارج، خرجت، ليس من فمي، ولكن من هناك، من قلبي. في تلك الليلة، كما قلت لك، لم أنَم تقريبا على الإطلاق. بجواري كنت أشعر بجسد أمي، ذلك الجسد الصغير كالعصافير. كنت أشعر بصوتها يغني أغنية النحل.

هل تعرفين ما يعذبني أكثر من كل شيء؟ أنني لم أستطع أن أمسك بيدها في اللحظات الأخيرة. أغلق عيني، وعلى الفور تأتيني صورتها برداء النوم معبأة في تلك الشاحنة، ملقاة كأنها طرد ما، أفكر في نظرتها الفارغة، والبريئة، وعندئذ... عندئذ يكفي هذا، لننته من هذا الشيء، سأنهيه الآن، لا أريد أن أبكي مرة أخرى أمامكِ. ولكن أتعرفين، إذا لم تكن هي قد انتهت بتلك الطريقة، كنا سنستمر نحن لفترة طويلة غير مصدقين أمر الإبادة، وكان الوقت سيصبح متأخرا. لهذا أقول لك: هي أنقذتنا. كانت لدينا تلك الفكرة، الفكرة الموجودة فقط لتُثقل علينا، لتجعل حيواتنا أكثر صعوبة. ولكن ربما كانت قد أتَت إلى العالم، عاشت كل هذه الشحنة من الألم فقط من أجل هذا، فقط لتسمح لنا بأن نستكمل الحياة وبأن نستمر.

هـل يوجـد حسـاب في مـكان مـا؟ الداخـل، والخـارج وعمليـات الذبـح؟ ومثلـما يحـدث مـع الـروح، في بعـض المـرات أقـول لنفـسي أجـل، ومـرات أخـرى لا. أفكـر في أمـي، في فكـرة تضحيتهـا، وأقـول أجـل، ثـم أقـول لنفـسي مـا حسـاب مـن يقتـل بريئـا؟ لا يوجد حسـاب، لا أحـد يختـار، لا أحـد يقـرر، لا يوجـد حسـاب، لا شيء. إن الأشـياء تسـتمر فحسـب.

الآن يكفـي فعـلا، سـأبدأ في التخريـف، أشـياء لا أعـرف عنهـا شـيئا. لقـد أحزنتـك، أليـس كذلـك؟ لا أعـرف مـاذا حـدث لي، لم أتحـدث قـط كثـيرا، أقصـد بهـذه الطريقـة. لا بـد أن هـذا بسـبب تلـك الليلـة التـي لم أنـم فيهـا، أعتقـد أن الكلـمات تهـرب منـي والآن لم أعـد أسـتطيع وقفهـا.

لنتحـدث عنـك، فلتتحـدثي أنـت، احـكي لي شـيئا جميـلا. مـاذا سـتفعلين في هـذا المَسـاء عندمـا تخرَجـين مـن هنـا؟ هـل سـتذهبين للرقـص؟

انظـري الوجنتـين الحمراويـن! الريـاح شـديدة اليـوم، أليـس كذلـك؟ ألم ترتـدي ملابـس خفيفـة بعـض الـشيء؟ لا تضحـكي، هـذا مـا أنـا عليـه، لم أتوقـف قـط عـن أن أكـون أمـا، والأمهـات الأخريـات، يقولـون هـذا؟ فظيعـات. مـن فضلـك، اذهبـي أنـت إلى المطبـخ لتعـدي الشـاي، الإبريـق موجـود بالفعـل جاهـز عـلى النَـار. سـأنتظرك في الصالـون، هنـاك أدفـأ.

كـم تعـوي، أسـمعها أنـا أيضـا عـلى الرغـم مـن صممـي. شيء غبـي ولكـن الريـاح تجلـب لي دائمـا نوعـا مـن الحساسـية، حساسـية طفولـة. لا بـد أن هـذا بسـبب تلـك الفكـرة، التـي تعـبر عـلى الـرأس وتنـزع الأفـكار. في أيـام مثـل هـذه، مـع زوجـي، عندمـا كنـا مخطوبـين، كنـا

نذهب دائما إلى هناك، فوق هضبة كارست.

على حافة الجزء العلوي كان يوجد مكان كالسنام الصغير، لا أعرف إذا كنت تعرفينه، وإذا كنت قد ذهبت إلى هناك من قبل. هناك الريح تهبَ أقوى من أي مكَان آخر، تتجَمع في تلك النقطة قبل أن تنفجر في المدينة. كنا نمكث هناك لساعات طويلة، وفي كل مرة كانت تصل دفعة قوية كنا نترك أنفسنا لنسقط كالوزن الميت، كانت الشجاعة تكمن في ألا نسقط عندما تتوقف الريح فجأة. في ذلك الصباح بالتحديد، بينما كنت ما زلت في فراشي، وكنت أشعر بكل شيء يدق، خطرت على بالي تلك الأوقات، وفجأة هل تعرفين ما حدث لي؟ تمنيت لو ذهبت إلى هناك. منذ أيام الخطوبة لم أعد قط. السبب يمكنك أن تفهميه، تعرفينني الآن، لا أريد أن أتذكر شيئا. إلا أنني في هذا الصباح تعجبت من نفسي، فكرت، أجل أرغب في الذهاب إلى هناك، أريد أن أرى السنام الذي يغطيه العشب، أريد أن أشعر بالرياح المثلجة على وجهي، على أنفي وعلى أذني. للمرة الأخيرة، أريد أن أرى كل شيء.

لماذا أقول أخيرة؟ لأنه كذلك، هذا ما أشعر به. لا بد أن هذا حدث لك أيضا، أليس كذلك؟ تذهبين في رحلة، تصبحين في مكان جميل، ثَم تحين لحظة الرحيل. عندئذ ماذا تفعلين؟ تذهبين إلى أكثر بقعة تعجبك وتمكثين هناك لمشاهدتها. إنها طريقة لتحتفظي بالأشياء في الداخل، تضعينها في نوع من الحقائب السرية. وهكذا تأتي سن فيها تتمنين هذا فجأة، حدث لي هذا منذ حوالي شهرين. بطبيعة الحال لا أتحرك، لا أذهب إلى أي مكان، فهذا مستحيل بسبب صحتي، مستحيل أيضا ماديا. ولكن كنت أتمنى أجل، كنت أتمنى الذهاب إلى تلك الأماكن لأصافح للمرة الأخيرة كل الأشياء

التـي شـهدت حيـاتي. توجـد تلـك القصيـدة، لمـن؟ لريلـك إذا لم أكـن مخطئـة، أو هـل أخطـئ؟ عـلى كل حـال، هـي قصيـدة تعـبر جيـدا جـدّا عـن هـذا الشـعور. أتذكـر جـزءا منهـا بالألمانيـة، تقريبـا سـطرين، أيهـما؟ لا، لا أسـتطيع قولهـا، لم أعـد أسـتطيع. أعـرف فقـط أنهـا كانـت تعجبنـي كثـيرا، وأكـثر مـن الإعجـاب، كانـت لغتـي الأولى، حتـى الآن أعتقـد أنهـا كانـت أفضـل لغـة للشـعر.

أتعرفـين، برونـو زوجـي كانـت لديـه تلـك العـادة، كان يحفـظ أفضـل الأبيـات. كان يقـول إنهـا مثـل تدليـل الـروح، لا بـد أن تكـون هنـاك مسـتعدة في الداخـل. الأبيـات القليلـة التـي أتذكرهـا كان هـو قـد علمهـا لي، حتـى وأنـا شـابة كانـت ذاكـرتي قويـة. عندمـا عـاد مـن هنـاك، قـال لي، بفضلهـا اسـتطعت النجـاة. كنـت أرددهـا في أكـثر اللحظـات صعوبـة، هـل تفهمـين؟ عندمـا كان لا بـد ألا يكـون سـوى حيـوان، كان يلقيهـا في صمـت، في رأسـه، كان كنـزه الـذي لا يمكـن لأحـد أن ينزعـه منـه.

كيـف حـدث؟ كنـا نختبـئ في شـقة، كنـا قـد تزوجنـا، وكان أبي قـد نجـح في السـفر إلى فلسـطين، كان لا بـد أن نرحـل نحـن أيضـا في السـفينة التاليـة. ذلـك المنـزل كان قـد تركـه لنـا بعـض أصدقـاء أبي، كانـت شـقة في الـدور الأخـير مـن عـمارة سـكنية قريبـة مـن المحطـة. كنـا نعيـش في الخفـاء، بالطبـع، والنوافـذ مغلقـة دائمـا. حتـى نتحـرك كنـا ننتظـر أن يتحـرك جيراننـا في الطابـق الأسـفل. كنـا قـد أصبحنـا ماهريـن جـدّا، كنـا نتحـدث بهمـس، ونسـير في الظـلام، حفـاة الأقـدام دائمـا. كنـا ننتظـر أن ينظفـوا مرحاضهـم لنفعـل بالمثـل، لـكي نخلـط كل الأصـوات كانـت لا بـد أن تتشـابه، أن تتلاقـى. ولكـن حـدث في صبـاح أحـد الأيـام التـي بـدا فيهـا كل شيء هادئـا أن قـرر هـو الخـروج،

أن يذهب ليبحث عن أخبار السفينة. كنت أنا خلف النافذة، الستائر كانت من الخشب، مكسورة بعض الشيء. كنت أرى كل شيء بوضوح شديد، رأيته يخرج وقبعته على رأسه، ويعبر الميدان. في منتصف الطريق اقتربت منه سيارة، ترجل منها شخص، تبادلا الحديث لثانية، ثم أمسكه من ذراعه وسحبه إلى الداخل. لم يلتفت لينظر إليّ، لم يرغب في أن يفشي سري، أتفهمين، ولكنني رأيت نظرته وعينيه في تلك اللحظة، على الرغم من ذلك. حتى الآن لا أعرف كم من الوقت بقيت هناك ثابتة، ثابتة كحيوان مُطارَد. كنت كمن يسمع أصوات كلاب الصيد حوله. كنت أنتظرهم، لا أتذكر بما كنت أفكر به في تلك الساعات، لم أكن أنا. فجأة تحول جسدي ومعه رأسي. أصبحت كأحد تلك الحيوانات التي تنام أسفل الثلج. ما اسمها؟ الماموث؟ أجل، هذا ما حدث، تحولت إلى ماموث. ثم حل الظلام، ولم أتحرك، فكرت ماذا أفعل؟ خطر ببالي هذا فقط، لقد أخذوه، وقريبا جدًا، أقرب مما أتخيل، سيأتون ليأخذوني أنا أيضا. كنت أجلس في زاوية الغرفة، رأسي مستند على الحائط وتركت نفسي لأسقط على ركبتي، وبهدوء شديد، بلا أي ضوضاء أخذت أبكي لساعات. في ذلك الصباح صافحته كالمعتاد، بل وببعض الاستعجال أيضا. صافحته هكذا لأنني لم أكن أعرف، لم يكن حتى بإمكاني أن أتخيل أنه سيختفي. آنذاك كنت أشعر بذلك الندم، الندم أنني لم أضمه بقوة أكبر، أنني لم أحدق فيه وعيناي في عينيه. وهو أيضا شيء تافه، أليس كذلك؟ لقد عرفنا بعضنا لسنوات طويلة كيف سيمكنني أن أنساه، أن أنسى صوته، أو جسده؟ إلا أن ذلك الأمر، أنني لم أستطع مصافحته، أن أقول له وداعا أو إلى اللقاء، معرفة أنها ربما تكون المرة الأخيرة، كان

يدفعني للبكاء. كنت خائفة من أن أنساه بسرعة، ربما اختلط مع أشخاص آخرين في ذهني.

كنت خائفة على نفسي؟ لا، لم يكن يهمني أي شيء. كنت أريد أن ينتهي كل شيء بسرعة فحسب. لا، الموت لم يكن يؤثر عليّ، بل على العكس... أتعرفين، بعد ذلك ذهبت إلى ذلك الدير، عن طريق المنظمة السرية التي تنظم كل شيء. خرجت في اليوم الأخير من الكرنفال، انتظرنا هذا اليوم بالذات، بسبب الاضطراب. اختبأت في شاحنة صغيرة، وصلت إلى دير قريب من الجبال، مكثت هناك حتى نهاية الحرب. بعد ذلك بشهرين جاءتني أخبار من برونو. لم يقتلوه، كان ما زال في إيطاليا في حقل زراعي، لم يكن أحد يعرف متى سيرحل.

عندئذ أجل، استعدت قواي، تلك القوى التي لم أكن أعتقد أنني ما زلت أمتلكها. كنت أفكر فقط في تحريره، أن أُخرجه بسرعة قبل أن يرحّلوه. ولكنه كان شيئا منهكا. كل يوم كنت أشعر باليأس، كنت أخاف ألا أتمكن من ذلك. كانت هناك أيام كثيرة، وأسابيع خاوية. كنت أعيش حياة الراهبات بكل ساعاتهن، كنت أتجول في الردهات أو في الأروقة. كانت هناك نافورة صغيرة من الإسمنت عليها تمثال للعذراء فوقها وبداخلها أسماك حمراء. كانت تلك الأسماك تنظر إليّ، وكنت أنا أيضا أنظر إليها، أفكر في الخبر الأخير الذي تلقيته وفي ذلك الانتظار بلا فائدة. ثم بعد ذلك، تعرفين ماذا حدث، أليس كذلك؟ شيء يمكن أن يحدث في أثناء المرض أو في رحلة؟ فكّري، فكّري، لا يمكنك أن تتحدثي مع أحد وهكذا، بعد قليل، لا تعرفين ما هو حقيقي، وما لا يمت للحقيقة بصلة، تفقدين الثقة في كل شيء. كنت أخشى أن يكون الأمر برمّته

خدعة، أتفهمين؟ إنهم كعقاب يقولون لي أشياء غير حقيقية. ولكن في يوم من الأيام، أي شهر كان؟ مايو على ما أعتقد، على المذبح كانت هناك باقة كبيرة من زهور الخشخاش والزنابق، أجل يوم من أيام مايو، وصلني عن طريق شفرة الخبر الذي كنت أنتظره. كانت الخطة جاهزة بكل تفاصيلها، وقبل نهاية الشهر سيكون برونو قد استطاع الهروب.

هل تعرفين ماذا فعلت في ذلك اليوم؟ ذهبت بمفردي إلى الكنيسة، وعلى ركبتي، كطفلة، قلت: «أشكرك يا الله!».

ولكن ماذا أعرف، ماذا أفهم، ماذا أشكر؟ لا توجد نقطة ثابتة قط، أو قانون صالح، كل ساعة كنت أخترع لنفسي واحدة وفي كل ساعة أكذّب نفسي. أقول لنفسي إنه قانون إلهي، إنه القدر، الشعور بالذنب، عقابه، أتوقع أن يحدث كل شيء فيحدث العكس: كأن الأمر يتطلب باستمرار قانونا جديدا، قانونا لا تتوقعينه. هكذا أيضا مع الشر، كنت أعتقد أنني دفعت ثمن ذنوبي، إلا أن الأمر لم ينته، فكلما استدرت أُصاب. أتعرفين، الحياة هي هذا: كأننا ديدانَ يُكشف عنها الطمي بالمجرفة، فجأة يغشانا الضوء، نبدأ بالحركة كالمجانين، تنجذب الطيور لحركتنا، وتلقي بأنفسها علينا، تلتهم البعض والبعض الآخر لا، نتحرك بعض الوقت مرة أخرى ثم يلقي علينا الجاروف طميا آخر، يغطينا ويحل الظلام من جديد، والصمت، ونتوقف. هل تجدينني شديدة التشاؤم؟ تتحدثين عن الأمل؟ وماذا أفعل به؟ لقد رأيت الحياة بعيني، لقد تبعتها كلها، والآن بعد أن شبت، أنظر حولي وأعرف ما حدث.

على كل حال، يبدو شيئا لا يُصدق، لكن برونو لم يرغب في الهروب، رفض. كان يمكنه هذا، كانت الخطة متكاملة، جاهزة،

وكانـت المخاطـر قليلـة جـدّا. كان يمكنـه، ولكنـه لم يفعـل ذلـك. قـال: شـكرا لا، سـأظل هنـا. لم أعـرف قـط لمـاذا، حتـى عندمـا عـاد لم تكـن لـديّ الشـجاعة لأسـأله. سـألت نفسـي هـذا العديـد مـن المـرات، هـل تعرفـين فيـما فكـرت؟ فكـرت أن رد الفعـل هـذا كان جـزءا مـن طبعـه، كان رجـلا نزيهـا، مخلصـا، كانـت كل حياتـه تكمـن في ذلـك، في صراعـه ضـد الظلـم. إذا ربمـا لم يرغـب في أي معاملـة خاصـة، ولا حتـى لـه؛ لم يكـن يرغـب في أن يعيـش بينـما يذهـب كل الآخريـن للمـوت. كان يثـق في القـدر، أكـثر مـن كونهـا ثقـة، كان إيمانـا. إذا كان القدر سـيفرض عليـه المـوت، فسـيفرض عليـه أكـثر الميتـات بشـاعة، كان هـو سـيقبل ذلـك، دون أن يطـرح أي سـؤال. حتـى الآن لا أعـرف مـا يمكـن أن يشـبه هـذا. الشـجاعة؟ الجـبن؟ أنـت تعرفيننـي، في يـوم أفكـر في شيء ثـم أفكـر في شيء آخـر في اليـوم التـالَي. ولكنـك توافقيننـي عـلى هـذا، أليـس كذلـك؟ إن اتبـاع القـدر شيء مريـح أكـثَر، لا نحتـاج قـط أن نتسـاءل عــن شيء، ولا أن نختــار.

ولكــن كل هــذا، أتفهمــين، كل هــذا كان شــيئا يثقــل رأسي. كيــف يمكننـي أن أشـعر؟ كان لـدي زوج، زوج أحبـه، وذلـك الـزوج، خُـيّر بينـي وبـين القـدر، وفضّـل القـدر. إذا مـاذا كنـت أنـا؟ مجـرد حليـة.

سـيئة أنـا لأنني أتحـدث هكـذا، أليـس كذلـك؟ إلا أننـي لا يمكننـي أن أنكـر هـذا، شـعرت بالإحبـاط الشـديد، شـعرت بالخيانـة. لم يعـد أمامـي مزيـد مـن الوقـت، كان كل شيء ثابتـا، الأيـام في الديـر، كلهـا تشـبه بعضهـا. كان مـن المسـتحيل أن أفكـر بأنـه سـيعود، لقـد اتخـذت الحيــاة ذلــك المنحــى، وســتتبعه حتــى النهايــة. بالتأكيــد، شيء مــا سـيحدث، في يـوم مـن الأيـام سـتنتهي الحـرب، وكنـت سـأصبح حـرة مـن جديـد، ولكـن مـاذا كان يهـم؟ كنـت قـد قضيـت عامـا كامـلا أعمل

على جهازي كعروس. قمت بتطريز كل الملاءات، البشاكير، المفارش، ولا تزال هناك، في مخزن أبي، مغلقة في صناديق من الكرتون، مربوطة بقوة بخيط.

من نافذة قلايتي كنت أرى فقط الحقول، كانت مزروعة بالقمح. في أيام الصيف، في فترة العصر، بين الساعة الثانية والثالثة، في تلك الساعة البشعة التي لا يعرف المرء ماذا يفعل فيها، كنت أقف هناك لأنظر إليها. يمكن للجمال أن يكون مرعبا، أليس كذلك؟ يمكن أن يبث الخوف أكثر من أي شيء آخر، الرعب. كانت الحقول تقف هناك، ثابتة، ثابتة تماما، واثقة من نفسها، لا توجد نسمة ريح واحدة، كلها كموجة ذهبية، متماسكة، ممتدة من هناك إلى الأفق. لماذا أقول لك هذا؟ تذكرت، من أجل حشرة الزيز. بسبب ضوضائها، يقولون عليه صرير؟ أجل زقزقة السنونو، وصرير الزيز، صحيح. كنت أستمع لتلك الضوضاء القوية جدّا، وكل ربع ساعة إلى جرس الدير. كنت أستمع إلى تلك الدقات البطيئة، الواحدة تلو الأخرى، وطنين بعض الذباب. تلك الحشرات التي تتطاير حول وجهك لتمتص قطرات العرق، عندئذ، عندئذ... ولكن كيف وصلنا إلى هنا؟ مرة أخرى، ها أنا قد فقدت الخيط... أجل، الطبيعة.

أترين، الآن أصبحت موضة أن ينقذ المرء كل النمل الذي يعيش. في كل صباح أفتح الجريدة وأقرأ عن تلك الشجرة التي أنقذوها، والضفادع أصبحت قليلة جدّا، وأنه يوجد ثقب هناك في جلد السماء، ثقب ضخم. أقرأ كل تلك الأشياء ولا أفهم، لا أفهم كيف يمكن أن يتعاطف المرء، أن يحبها. أنت تحبين الطبيعة، أليس كذلك؟ قلت لي هذا بالفعل من قبل، لاَ أعرف لماذا تعجبك. بالنسبة إليّ الَطبيعة هي هذا: إهانة وصفاقة.

أيـن كنـا؟ في الديـر؟ أجـل، عشـت مـع الراهبـات ثلاثـة أعـوام كاملـة، ليـس لـديّ الكثير لأقولـه عنهـن، كـن لطيفـات، بالنسـبة إليهـن كانـت مخاطـرة كبيرة جدّا اسـتبقائي هنـاك بالداخـل. كنـت أسـاعد في المطبـخ، في المزرعـة، كنـت أعطـي الطعـام للدجـاج، لم أكـن أريـد أن أصبح عبئـا. ذلـك النـوع مـن الحيـاة بعـد فـترة يمنحـك شـعورا غريبـا، يصبـح نوعـا مـن الخـدر.

وهكـذا، ودون أن أدرك، عنـد لحظـة مـا، قمـت بنـوع مـن الحلـف -لا، مـاذا يسـمونه؟ نـذور- قمـت بنـوع مـن النـذور، الأول والوحيـد منـذ أن وُلـدت، نـذرت أن أمكـث بـين تلـك الأسـوار حتـى بعـد نهايـة الحـرب، بأننـي سـأمضي مـا تبقـى لي مـن حيـاة محبوسـة هنـا بالداخل، في تواضـع، بعيـدة عـن الأعـين. كنـت أريـد أن أكفـر عـن ذنـوبي، هـذا مـا كنـت أفكـر فيـه تلـك المـرة. الآن أفكـر أن هـذا كان مجـرد جـبن، كنـت أريـد مـكان حمايـة فحسـب.

لم تكـن الراهبـات تعلمـن ذلـك، لحسـن الحـظ، كانـت القصـة بيني وبـين خالقـي فقـط، موضوعـا خاصـا، عـلى الأقـل لـن أشـعر بالخجـل أمامهـن عندمـا أحنـث بـه.

أتعرفـين عندمـا عـدت إلى المنـزل فيـما فكـرت؟ فكـرت، حسـنا، في واقـع الأمـر لم أحنـث بـأي نـذر، كنـت أخـشى مـن انتقـام مـا، إلا أن ذلـك الخـوف اسـتمر فقـط قليـلا، فقـد كانـت هنـاك حيـاة لا بـد أن تبـدأ مـن جديـد، لا بـد مـن إعـادة بنـاء كل شيء. ومـع القوافـل الأخـيرة للناجـين، عـاد برونـو.

لمـاذا لا تحكـين لي قـط عـن قصصـك العاطفيـة؟ ليـس لديـك؟ لا أصدقـك. كيـف يمكـن هـذا؟ فأنـت جميلـة، ولديـك قلـب، أليـسَ كذلـك؟ أم لا؟ في بعض الأحيـان عندماَ تأتـين إلى هنـا، وَبينـما نتحـدث،

أراقبك، وأشعر بالخوف. لا، ليس خوفا بل قلق. لا أفهم قط ماذا خلف ابتسامتك، خلف عينيك. أحيانا أقول لنفسي: قلبها كبير جدّا، طيبة جدّا، وأحيانا أخرَى أفكر في العكس. ولكن في نهاية الأمر، لماذا أتساءل عن هذا، ماذا يهم؟ أنتِ تأتين إلى هنا وتصغين إليّ.

هل أحضرت معك ما تحيكينه اليوم؟ اعذريني، ولكن أضحك عندما أراك هكَذا، بالخيط والإبرة في يدك، لم أكن أعتقد أنك تستطيعين هذا. هل تجربين؟ يا لك من ماهرة، أنا لم أستطع قطَ، لم أنجح قط في أن أفعل أي شيء في َحياتي، فقط أن أطهو شيئا ما، الأطباق البسيطة. كانت أمي مجنونة، وكان أبي يفكر أنه سيكون لديّ أشخاص يخدمونني. وهكذا، عندما جاءت السن المناسبة، لم يعلمني أحد أي شيء. يتعلم المرء بمفرده؟ ربما. أجل، بالإرادة يمكن أن يفعل المرء كل شيء، ولكن، أتعرفين، لم تكن لديّ قط روح المبادرة. أعتقد أنها مشكلة التعليم، كثيرا ما أنظر لحفيدات صديقاتي، أستمع إليهن يتحدثن فيما بينهن أو مع والديهن وأقول لنفسي، إنهن لا يدركن، ولا حتى من بعيد، إلى أي مدى حياتهن سهلة. في الزمن الذي كنت فيه طفلة كنا معتادين على الطاعة، لا أقول إننا كنا نفعل ذلك من الخوف، لا، على الأقل في حالتي، ولكن الاحترام. كان يوجد احترام كبير للوالدين، للوالدين ثم من بعد ذلك للزوج. كان ذلك امتداد القصة، كنا نحب بعضنا ولكن لا نجرؤ على مناقشة أي شيء.

على كل حال، كنت محظوظة مع برونو. بالنسبة إلى تلك الأزمنة كان رجلا متفتحا جدّا، كان يتركني لأقرر الأمور بحرية، كان يتركني نظريا، لأنني في الواقع لم أكن أقرر شيئا.

أتعرفـين، عندمـا عـاد كان أمـرا صعبـا. كنـت قضيـت ثلاثـة أعـوام أقنـع نفـسي بأننـي لـن أراه مـرة أخـرى أبـدا. في الحقيقـة، لم يكـن عـليّ إقنـاع نفـسي، كان عـليّ فقـط أن أتحـلى بالأمـل دائمـا، هكـذا أنـا. كنـت قـد أقنعـت نفـسي بأنـه مـات، ولكـن بـين ليلـة وأخـرى وجدتـه في المنـزل. كان علينـا أن نبـدأ حياتنـا مـن جديـد كـزوج وزوجـة، تلـك الحيـاة التـي لم نعشـها قـط. كان هـو يبلـغ مـن العمـر سـتة وعشريـن عامـا، وأنـا أكملـت للتـو الثانيـة والعشريـن، فقـط اثنـين وعشريـن عامـا، أتفهمـين؟ في الحقيقـة، لم أعـرف كـم كان عمرنـا، كنـا نشـعر أننـا مسـنون جـدّا، متعبـون جـدّا... مـن حـين لآخـر، في المسـاء عندمـا كنـا في المنـزل كنـت أنظـر إليـه بينـما ينـام عـلى الأريكـة بالراديـو المفتـوح وكان ينتابنـي الشـعور بـأن هـذا مجـرد خيـال. أعتقـد أن هـذا كان يحـدث لـه أيضـا.

لم أطـرح عليـه قـط أي أسـئلة، كنـت أعتقـد أن هـذا لا يصـح. كنـت أسـتمع إليـه عندمـا كان يتحـدث، ولكـن كان نـادرا مـا يتحـدث. كان كالشـبح، ظـل رجـل كنـت قـد تزوجتـه. أجـل، ربمـا تغـيرت أنـا أيضـا، تلـك الأعـوام الثلاثـة مـن العزلـة فعلـت شـيئا مـا بداخـلي. إلا أننـي لا أعـرف كيـف تغـيرت، عندمـا يمكـث المـرء طـوال الوقـت مـع نفسـه فقـط، مـن الصعـب أن يـدرك ذلـك.

كان برونـو هادئـا طـوال اليـوم، إلا أنـه كان يهيـج في الليـل، كان الليـل كالجحيـم. غالبـا في الصبـاح كان لا بـد أن أرتـق المـلاءات لأنهـا كانـت تتمـزق. كان هـو مـن يمزقهـا. كان يتحـرك كأن بداخلـه زلـزالا، كانـت ذراعـاه تتحـركان وقدمـاه، ويعـض عـلى أسـنانه. لم أكـن أعـرف قـط مـاذا أفعـل، لم أكـن أعـرف قـط إذا كان يجـب عـليّ إيقاظـه أم لا. كنـت أجلـس عـلى حافـة الفـراش أراقبـه، أسـتمع إلى عباراتـه

لعلي أفهم شيئا. كنت أريد أن أساعده ولكنني لم أعرف كيف. كان يصرخ دائما بالألمانية، كان يصرخ بأوامر. لهذا، قلت لك هذا، أليس كذلك؟ لا أستطيع قط أن أتحدثها. بعد الحرب، وخَصوصا في السنوات الأخيرة، ظهرت كتب كثيرة عن هذا الموضوع، كتب الناجين، كتب نفسيين، وكتب مؤرخين. كنت أراها على موائد المكتبات، وكنت دائما أتجنبها.

لا أريد أن أعرف، لا يهمني شيء، بالنسبة إليّ كان كل شيء هناك، في تلك الصرخات الليلية، في الملاءات الممزقة.

منذ بضعة أيام، حدث شيء غريب في الطريق، شيء لم يحدث لي من قبل قط. كنت قد ذهبت إلى المحل القريب لأبتاع بعض اللبن. وببطء شديد، وبالسرعة التي سمحت لي بها قدماي كنت في طريق العودة إلى المنزل. أسير ورأسي منحن، كما تعرفين، بسبب التهاب المفاصل. وبينما أنا في منتصف الرصيف تقريبا، أدركت أن هناك نباتات تنمو من الإسفلت، نباتات قبيحة، نباتات المدينة. كانت تخرج من شقوق ضيقة جدّا، بجسارة، كانت شديدة وقوية.

لا أعرف ما الذي حدث. وجدت نفسي على ركبتي. مكثت هناك على الأرض، كنت أنزعها كلها، كنت أشدها بقوة واحدة تلو الأخرى وأنا أصرخ: اذهبي بعيدا، بعيدا أيتها الملعونة! فقط عندما رفعني شخص من ذراعي، عندما وقفت مرة أخرى، أدركت أين أنا، وماذا كنت أفعل. في تلك اللحظة، بطبيعة الحال، شعرت بخجل مميت، ابتعدت بأقصى سرعة استطعتها، كما تفعل لصة.

فكرت في ذلك مرة أخرى طوال العصر، طوال الليل. لماذا كان يجب عليّ أن أنزع تلك النباتات؟ كانت قبيحة بالفعل، ولكنها لم تكن تفعل لي أي شيء. ما الذي حدث في رأسي؟ في النهاية أعتقد

أن السبب كان في أن إصرارها اليائس قد أغضبني. الحياة هي تلك الجسارة. فإذا أراد المرء أن يتقدم إلى الأمام، وفعل ذلك دون أن يهتم بأي شيء، يمكنه أن يتجاوز المشاعر.

هل هو قانون طبيعي، برأيك؟ لا بد من أن نحافظ على التراث الوراثي، نشره؟ تماما، وما هو إذا؟ وقاحة، كما قلت لك.

هكذا كان الأمر بالنسبة إليّ وإلى برونو. كان لا بد أن نذوب، نختفي في اللا شيء، ربما أن نولد من جديد في مكان جديد كما يقول الهنود، وتكون لنا حياة عادية، هادئة. إلا أن هذا لم يحدث، كنا هناك منهكين، لم نكن نعرف ما يجب قوله، كانت قوانا تكفينا بالكاد لنصل إلى المساء. إلا أن شيئا ما كان يمنعنا من الاستسلام. حتى وإن لم تكن لدينا رغبة في ذلك، استمر شيء ما يدفعنا إلى الأمام، يجرنا. بمجرد أن استعاد صحته، بدأ برونو في البحث عن عمل، وفي خلال شهرين عثر على مكتب محاسب مستعد أن يقبله كشريك، وسرعان ما أصبح وجودنا هو ذلك الوجود المعتاد والهادئ لزوجين برجوازيين، ولكن لم يكن هذا حقيقيا، أتفهمين؟ فوقنا، وبداخلنا، كانت هناك بالفعل ثلاث سنوات بشعة. بالتأكيد سنواته هو كانت أفظع من سنواتي. من حين لآخر ونحن على مائدة الطعام، كنت أراقبه وهو يتناوله. كان يأكل كالحيوان وعيناه في الصحن، بسرعة. أكثر من الأكل كان يلتهم، كأنه يخشى أن تكون المرة الأخيرة، وكأنه يخشى أن أحدا أكثر منه وحشية سيأخذ منه الطعام. طريقته تلك في التصرف كانت تنعكس عليّ. وهكذا كنا نحن الاثنان نشك في كل شيء.

لا أقول إن طباعه تغيرت، لا. كان دائما الرجل الشريف والقوي الذي عرفته، إلا أنه في بعض المرات كان يصاب بنوبات غضب. إذا

عـاد إلى المنـزل ولم يجـد الغـداء مُعـدا، كان يـصرخ كالمجنـون، وكان يحطـم كل شيء. عندئـذ لم أكـن أعلـم كيـف أتـصرف. كنـت أريـد أن أساعده، وأن أقـف بجانبـه ولكننـي كنـت أشـعر بالخـوف. بعـد تلـك اللحظـات كان يصبـح فجـأة هادئـا، وكان يجلـس هنـاك عـلى المقعـد شـاخصا في الفضـاء، أو كان يخـرج مـن المنـزل ويختفـي لسـاعات. أعتقد أنـه كان يشـعر بالخجـل، لم يكـن طبيعيـا بالنسـبة إليـه التـصرف بهـذا الشـكل. مـرات عديـدة، بعـد تلـك المشـاهد، عندمـا كنـت أمكـث بمفـردي في المنـزل كنـت أتسـاءل: لمـاذا لم أذهـب أنـا أيضـا هنـاك معـه، لمـاذا لم نمـت سـويا؟ لمـاذا ذهـب هـو وأنـا لا، لمـاذا قـام كان هـذا الاختيـار، هـل لأن الزمـن يخبـئ لي شـيئا آخـر؟

بطبيعـة الحـال تمنيـت أن يصلـح الزمـن كل شيء. كنـت أفكـر بينـي وبـين نفـسي أنـه إذا اسـتعاد عافيتـه، فسيسـتعيد أيضـا عقلـه، فالزمـن يبيّـض، ينـزع ألـوان أكـثر الصبغـات قـوة.

إذا قالـوا لـك شـيئا مـن هـذا القبيـل، فـلا تصدقيهـم عـلى الإطـلاق، هـذا ليـس حقيقَيـا، إنهـا فقـط أشـياء يرددهـا النـاس ليـواسي بعضهـم بعضـا وحسـب. بالتأكيـد، يبـدو لنـا أحيانـا أن الزمـن يُصلـح، ويكـون لـدى المـرء ذلـك الانطبـاع المزيـف، المزيـف تمامـا.

إن الزمــن يعمــل في أســفل، إنــه مثــل البرامــة، يحفــر ويثقــب، ويحــوّل الثقــوب إلى تصدعــات ثــم إلى هاويــات.

كــم هــو عجيــب هــذا الأمــر، بعــض الأشــياء تُفهــم فقــط عنــد التقـدم في السـن، يمكـن للمـرء أن يعيـش بطريقـة أفضـل إذا عرفهـا مبكـرا، إلا أننـا نفهـم فقـط بعـد أن ينتهـي كل شي، ولا يفيدنـا هـذا في شيء، سـوى في تحريـك اللسـان كـما أفعـل أنـا معـك فحسـب. لـو كانـت للمسـنين فـرص للحـوار أكـثر مـع الشـباب، ولـو اسَـتمع الشـباب

إليهـم، فلربمـا تغـير شيء مـا... أو ربمـا لا، لـن يفيـد في شيء. فـكل حيـاة هـي مأسـاة تنطلـق مـن البدايـة. إن الحـكي هـو مجـرد أنفـاس مهـدرة، الـكل يخطـئ ثـم عندمـا يكـبرون في السـن يفهمـون، ثـم يندمـون عـلى خطئهـم. الخـبرة ليسـت شـيئا، كل شيء يُعـاد دائمـا مـن البدايـة.

هـل تريـن أن الحيـاة سـتكون رتيبـة بغـير هـذا؟ ربمـا يكـون هـذا حقيقيـا، ولكـن مـن قـال إن الرتابـة شيء سـيئ؟ الخـبرة تنمّـي؟ لا أعتقد لأن العـالم كـما هـو، بمـا فيـه مـن أحـداث دراميـة. بالنسـبة إليّ، هـل تعرفـين مـاذا أردت؟ أن أعيـش كشـجرة، كنـت أتمنـى لـو كنـت شـجرة سرو، شـجرة زيتـون مقدسـة، نباتـا ذا جـذور وفروعـه تتجـه إلى أعـلى. حتـى النباتـات تشـعر بـشيء مـا؟ اكتشـفوا هـذا في أمريـكا؟ لا، لم أكـن أعـرف هـذا، في هـذه الحالـة سـأتراجع عـن كل هـذا، لا أريـد أن أكـون ولا حتـى شـجرة، لا شيء.

ولكـن هكـذا سـارت الأمـور، في سـن الرابعـة والعشريـن، لم يكـن لـدي أي شـك في كل هـذا. كان عمـل برونـو يسـير عـلى مـا يـرام، وأنـا أعتنـي بالبيـت، وفي الربيـع كان ينتابنـا كلينـا نـوع مـن الخـدر الغريـب، خـدر كنـا اكتشـفناه في أزمنـة الخطوبـة، كنـا نشـعر برغبـة داخليـة، إن إنجـاب طفـل ربمـا سـيكون أكـثر شيء طبيعـي يمكننـا عملـه. كانـت الحيـاة تسـتعيد نفسـها. هـل تفهمـين؟

وفي الواقـع بمجـرد أن أدركـت أننـي في حالـة مختلفـة، فكـرت أننـا أخـيرا عبرنـا الحـدود. سـيكون ذلـك الطفـل، كـما يقولـون الآن، هـو النقطــة التــي نبــدأ بعدهــا، كل شيء سيســير بطريقــة مختلفــة. في الشـهور الأولى كنـت أشـعر بالسـعادة، كنـا سـعداء. لا يمكنـك معرفـة ذلـك، ولكـن عندمـا تحبـل المـرأة، يحـدث لجسـدها شيء مـا، نـوع مـن البـلادة المنتـشرة. في كل يـوم يتغـير شيء مـا، تنظريـن في المـرآة وتريـن

أن نظرتـك تلمـع وجميلـة. يوجـد أيضـا التعـب، بالتأكيـد، ولكنـك تقريبـا لا تشـعرين بـه، فأنـت متوهجـة، متوهجـة مـن الداخـل لأنـكَ تشـعرين بـأن كل شيء يتحـرَك، وأنـه يوجـد نظـام وأنـت جـزء منـهَ. بالنسـبة إليّ أيضـا، كان شـيئا آخـر، كنـت أتمنـى أن يسَـاعد وجـود الطفـل برونـو عـلى أن يشـفى، ألا ينظـر إلى الـوراء. في وضـع مشـابه لبعـض معارفنـا، كان وجـود طفـل هـو مـا أخرجهـم مـما كانـوا يعانونه. لمـاذا سـيختلف الأمـر بالنسـبة إلينـا؟

باقـتراب الخريـف عـاد برونـو للاكتئـاب، وجاءتـه أزمـات عنـف مختلفـة. بعـد واحـدة منهـا اختفـى مـن المنـزل يومـين كاملـين. كانـت تجيئـه تلـك الأزمـات، إلا أننـي اسـتمررت في الأمـل، كنـت أقـول لنفـسي الطفـل هنـا بالداخـل لا يمكنـه رؤيتـه. عندمـا يخـرج، عندمـا سـيجده أمـام عينيـه كل شيء سـيتغير، كل شيء سـيصبح أفضـل.

وضعـت في ديسـمبر، ولادة طبيعيـة. اليـوم التـالي، وبينـما لا نـزال في المستشـفى التقـط لي برونـو صـورة والطفلـة بـين ذراعـي. كانـت لأبي، كنـت أريـده أن يعـرف أن الحيـاة مسـتمرة وأننـي اسـتطعت أن أتقـدم للأمـام. كان هـو بعـد الحـرب قـد مكـث هنـاك، وتـزوج. كان يعيـش في إحـدى المسـتوطنات، ومـن خطاباتـه كان يبـدو سـعيدا.

شيء غريـب أننـي لا أتذكـر شـيئا عـن الشـهور الأولى. امتصـت الطفلـة كل قـواي، ووقتـي. هـذا لا يعنـي أنهـا كانـت طفلـة صعبـة، لا، كانـت هادئـة، عاديـة. مـا يدمـرك أنهـم لا يسـتطيعون الحيـاة سـاعة واحـدة مـن دونـك، ومـن دون رعايتـك. خـلال الأسـبوع كان برونـو يذهـب دائمـا إلى المكتـب، لم يكـن يـأتي إلى المنـزل حتـى وقـت الغـداء، فقـط يـوم السـبت كنـا نقضيـه كلنـا معـا. إذا كان الجـو جميـلا كنـا نذهـب في نزهـة عـلى البحـر. لم نكـن نتحـدث كثـيرا في تلـك الفـترة،

لم نتحدث كثيرا قط، إلا أنني كنت استشعرت بيننا شيئا قويا، لا يمكن تحطيمه، شيئا لم أكن أشعر به من قبل. أعتقد أنه نوع من الفخر والسعادة والتشبث. كنا نشعر أن مقاومتنا كانت المقاومة العادلة، وأننا الفائزون في نهاية الأمر... كان يكفي أن ننظر إلى الطفلة لنتأكد من هذا، في كل يوم كانت أكثر حيوية وأكثر سعادة. كان يبدو كأنها لم تعانِ على الإطلاق مما حدث قبل ذلك. برونو وقع في حبها، وكان كلماَ استطاع يأخذها بين أحضانه. أتعرفين، في تلك الفترة كان هذا شيئا غريبا، الآباء لم يمكثوا قط مع أبنائهم الصغار، كانوا يتركون كل شيء للنساء، كانوا يخافون من إيلامهم، أو من أن يتسخوا. عادة كانوا ينتبهون أن لديهم أطفالا عندما كانوا يذهبون إلى المدرسة. ولكن برونو كان مختلفا، وقع على الفور في حب ابنته، وكان دائما بجوارها.

كيف كنت أشعر، يمكنك أن تتخيلي، أليس كذلك؟ لأول مرة منذ أن أصبحت لديّ ذاكرة لم أر ضبابا حولي، أمامي كان الأفق المشرق والصافي.

في ذلك الأفق كان يكمن كل شيء، نمو سيرينا، مرور الأعوام. كان نموها وتدهورنا البطيء، كنا أصبحنا مسنين أسفل تلك السماء، ويوما ما، مثل الشمعة التي تحترق ببطء، أسفل تلك الشمس، سننطفئ أيضا في هدوء. من حين لآخر، لأقوي هذه الثقة -أنتَ تعرفين بداخلي كان هناك شيء يتأرجح دائما- كنت أقوم بحسابات.. كنت أمرر في ذهني كل الأشخاص الذين عرفتهم وكنت أقول لنفسي إن فلانا حدث له هذا وذلك، إذا لن يحدث له المزيد، لكن علانا كانت حياته رائعة، وبالتالي لا بد أن يتوقع حدوث شيء ما. كنت هناك، أتفهمين، مثل الصيدلاني بميزانه، أزن كل شيء

وفي النهايـة أسـتخلص النتائـج. والنتيجـة، بعـد ذلـك، كانـت دائمـا هـي التاليـة: مـن عـانى مـن قبـل فلـن يعـاني فيـما بعـد. كانـت لعبـة طفوليـة، طفوليـة وأيضـا أنانيـة، ولكـن كانـت تسـاعد عـلى تهدئتـي. كنـت أريـد أن أتأكـد أن وجودنـا في أمـان.

إن العلاقـة مـع المعانـاة غريبـة، أتعرفـين. عندمـا تكـون قليلـة، يتمـرد المـرء دائمـا، يفكـر في أن مـا حـدث رهيـب، ولا يمكـن أن يحـدث المزيـد... لمـاذا؟ لأن هـذا ليـس عـدلا. يوجـد بالداخـل، عـلى كل حـال، حـس بالمسـاواة لا يمكـن مساسـه. نعتقـد أن الحيـاة هـي حفلـة، والمعانـاة هـي قطـع الغاتـوه. يأخـذ كل منـا قطعـة واحـدة فقـط، ليـس أكـثر.

إلا أنـه بعـد ذلـك، لا أدري إذا كان هنـاك عنـصر حيـوي أيضـا يتدخـل في الأمـر، نشـيخ، وتخـور قوانـا، ثـم مـن يـوم لآخـر يحـدث أنـك لا تتوقعـين شـيئا آخـر، لا تتوقعـين سـوى الأشـياء السـيئة فحسـب. تبدَئـين في التفكـير بطريقـة مختلفـة، تمكثـين هنـاك كل الوقـت ممـددة تحـت الشـمس مثـل حيـوان كُـسر ظهـره. حتـى إذا أردتِ التحـرك لا تستطيعين، تمكثين هناك وتنتظرين.

هـل فكـرت قـط في أن يكـون لـك طفـل؟ سـمعت أنهـا الموضـة الآن أن تنجـبَ المـرأة بمفردهـا، أقصـد دون الحاجـة إلى أب. أجـل، ربمـا عندمـا يكونـون صغـارا تكـون الأمـور بسـيطة، ولكـن بعـد ذلـك عندمـا يكـبرون، مـاذا سـتقولين لهـم؟

أنـت لـن تقومـي بـشيء كهـذا؟ لم أكـن أعتقـد أنـك بهـذا التعقـل. تقولـينَ إن الطفـل يجـب أن يكـون نتيجـة حـب؟ بالتَأكيـد، الفكـرة صحيحـة، ولكـن صدقينـي إن مـن أنجـب بالفعـل أطفـالا لـن يقـول هـذا قـط. هـل تعرفـين مـا الطفـل؟ إنـه جـوال تلقـين فيـه بـكل شيء،

تلقين فيه كل الأشياء التي لم تكن لديك ورغبت فيها. تلقين فيه فراغاتك ومخاوفك، الأشياء التي لديك والَتي لم ترَغبي فيها. أترين، مع طفل، كلما تحركت تخطئين. الاَعتراف بالأخطاء ينقذنا؟ لا، الأمر ليس كذلك. لقد عرفتها تقريبا منذ البداية ولكن ذلك لم يفدني في شيء، لأنه في هرولة الإلقاء والإلقاء، تنسين أن للجوال وجودا بالفعل، وأنه هو أيضا له قصته.

هل تعرفين لعبة القش؟ عدد كبير من الناس، ويجب عمل شيء ما، ولكن نظرا لأنه لا أحد يرغب في إنجازه، يُتخذ القرار من خلال القش. هناك القش القصير والقش الطويل، من لديه أطول قشة، حتى إن لم يرغب، ينجز هذا العمل. هكذا، حتى إذا لم ترغبي في معرفته، حتى إذا كنت تخدعين نفسك يوما بعد يوم بأنك أنت من تقومين بتكوينه، فَفي حقيقة الأمر، ابنك وكل الأطفال اَلتي تَأتي إلى العالم، يولدون وقشتهم في يدهم، وهناك، في ذلك الخيط، كل شيء مكتوب، إنه نوع من الاختيار القدري الذي يحل عليك، يسبقك، رغما عنك.

أجل، لدَيك حقَ، يمكن أيضاَ الاختيار. في الثلاثين يمكن التفكير بأنه يمكن الاَختيار، حقيقي أن الأمر يسير هكذا، ولكن في سن الثمانين لا، لا يمكن تصديق ذلك. مع مرور الوقت يفهم المرء أن الأمر ليس كذلك، الفارق الوحيد هو بين الفعل والمبني للمجهول، بين أن نختار أو أن نُختار.

لنفعل ماذا؟ بواسطة من؟ لا تسأليني. لقد جربت وجربت مرة أخرى، وحياتي لم تتحرك.

أعطني إذا السترة، فالجو حار. لقد انفجر الربيع فجأة، لم يكن أحد يتوقع هذا. في كل مرة أراكِ تأتين عبر الردهة تبدين أكبر.

لم تعـودي في سـن النمـو؟ ربمـا أصبحـت أنـا أصغـر. عندمـا يشـيخ المرء هـذا مـا يحـدث، فاللحـم يجـف حـول العظـام وأيضـا يبـدأ حجـم العظـام يقـل، ويبـدو أن كل شيء يسـتعد في صمـت لأن يذهـب بعيـدا، لأن يختفـي... إلا أنـك تبديـن أكـبر مـن الأسـبوع المـاضي. تلعبـين رياضة كثـيرا؟ ربمـا يكـون هـَذا السـبب. ولكـن لا، أتعرفـين مـا هـو؟ إننـي أغـار منـك، ليـس لأجـلي، فأنـا مـا أنـا، ولكـن كنـت سـأحب أن تكـون لي ابنـة مثلـكَ. كانـت سـيرينا دائمـا تسـير بكتفـين منحنيـين، ورأس غائـر، كانـت تثـير الشـفقة عنـد رؤيتهـا، كان يبـدو كأنهـا متوقعـة ضربـة مـا في أي لحظـة. هكـذا كنـت أكـرر لهـا باسـتمرار: اسـتقيمي، انظـري أمامـك، ألا تريـن أنـك تبديـن كالمسـنين؟ كان ذلـك يغضبنـي لأننـي أنـا أيضـا في هـذه السـن كَنـت مثلهـا، كنـت هكـذا، ومكثـت هكـذا. كان سـيعجبني أن تشـبه برونـو، كان جسـمه جسـم ريـاضي، الكتفـان عريضـان، كان رياضيـا في شـبابه، عندمـا عـاد مـن هنـاك، كان مـن الواضـح أنـه كان شـخصا قويـا. أتريـن؟ إنهـا قصـة الجـوال التـي تتكـرر. ربمـا كان والداك أيضـا يرغبـان في ابنـة مختلفـة تمامـا، أليـس كذلـك؟

كنـت قـد قلـت إنهـا كانـت طفلـة نشـيطة وسـعيدة؟ هـذا حقيقي، كانـت كذلـك. كانـت هكـذا منـذ الميـلاد إلى سـن عامـين. ربمـا لهـذا السـبب شـعرت بعدهـا أننـي تعرضـت للخيانـة والخديعـة. كانـت تعـد بـشيء، ثـم أصبحـت شـيئا آخـر.

تلـك الصـورة السـعيدة، لنـا كلينـا مـع الطفلـة، اسـتمرت طويـلا. بمجـرد أن بـدأت سـيرينا تتحدث وتتحـرك في المنزل، تغـير برونو، كان كل شيء يضايقـه. تلـك السـن، سـنتان وثـلاث، سـن صعبـة، لا بـد أن تكـوني خلفهـم باسـتمرار، مراقبـة ألا يـؤذوا أنفسـهم، ألا يسـقطوا. يريـدون التجربـة، يأخـذون الأشـياء ويلقـون بهـا عـلى الأرض، يكسرونهـا. لا بـد

من الصبر الطويل، ثم يتعلمون التعبير عن العصيان. منذ مدة قالت لي صديقة تعمل في الطب النفسي إنهم يفعلون ذلك عمدا، إنها طريقة ليثبتوا وجودهم في العالم لأنفسهم وللآخرين. ولكن في تلك الفترة لم نكن نعرف، كانت بالنسبة إلينا نوبات غضب فحسب، ولا بد من قمعها. وهكذا في أحد الأيام انفجر برونو -كانت هي قد ألقت بملعقتها على الأرض ثلاث مرات، لم تكن ترغب في تناول الطعام- عندئذ نهض هو فجأة، لم أكن أتوقع ذلك على الإطلاق، وصرخ: أنتِ لا تعرفين كم أنتِ محظوظة! ثم خرج من المنزل بعد أن صفقَ الباب.

عاد إلى المنزل في صباح اليوم التالي. لم أسأله أين كان، كنت أشك في أنه حتى هو لا يعرف. إلا أنه منذ ذلك اليوم، بدأ نوعا من الحرب. كان يمكث هناك دائما بعينين مفتوحتين ليراقب إذا كانت الطفلة ترتكب أي خطأ. كان يلومني، ويقول لي إنني لست حاسمة. من حين لآخر كان يصيح، ثم يختفي لأيام كاملة. كنت أنا أحاول السيطرة على الطفلة وتهدئتها، كان من المستحيل فعل ذلك أكثر من اللازم، أعتقد أنها بطريقة ما كانت تشعر بالعداوة، لأنها كانت من يوم لآخر تصبح أكثر عصبية. هل تفهمين، كان معنى حياتي هناك، فيهما، وفجأة لم يعد أحد منهما يهمه أي شيء يخصني. كان كل منهما منشغلا بحربه الشخصية، وأنا كنت هناك في الوسط مثل لوح خشبي بين شعلتين. السبب؟ لا أعرف، ولكنني أعتقد أنه هذا: كان برونو في أعماقه، في مكان ما، لا يعرفه حتى هو، قد بدأ يكره الحياة، وكانت سيرينا هي الحياة. أجل، في إحدى المرات حاولت التحدث معه، بعد أزمة أقوى. عندما عاد إلى المنزل، تظاهرت بأن شيئا لم يكن، ولكن بعد ذلك، عندما

نامت سيرينا، لحقت به في الصالون، جلست أمامه وقلت له: برونو يجب أن أتحدث معك. لم أقل سوى هذا، وانفجر هو على الفور في البكاء، كان يضع يديه على وجهه ويبكي، كان جسده يهتز من الشهقات، كان يبدو كالطفل.

بعد شهر، بسبب مصادفة تليفونية، علمت أنه كثيرا ما يتغيب عن المكتب. في المكتب كان يقول إنه في المنزل يعمل، وفي المنزل كان يقول إنه ذاهب إلى المكتب. أين كان يذهب؟ لم أعرف قط، كانت معي الطفلة، لم يكن في إمكاني تعقبه. عندما كان يمكث معنا كان يلتزم دائما الصمت. حتى يوم السبت، بدلا من أن يتبعنا إلى البحر، كان يذهب لحاله. من حين لآخر كنت أحاول أن أفهم شيئا ما، أتعرفين ماذا كنت أفعل؟ كنت أنظر في عينيه. كنت أستطيع أن أنظر إليه بهدوء لساعات لأنه لم يكن يدرك أي شيء، كانت نظرته فارغة، كان في مكان آخر. ثم في أحد الأيام تلقيت خطابا، أتعرفين خطابا مثل خطابات الأفلام، مكتوبا كله بقصاصات الصحف. كان ذلك الخطاب يقول إن له عشيقة، وربما عائلة أخرى، لهذا لا يمكث معنا في المنزل. هل صدقته؟ ولا حتى لثانية، فتحته، قرأته، كرمشته ثم حرقته. هل تفهمين؟ لم أكن أرغب في أن يجده، وأن يتألم أيضا بسبب هذا، بسبب شر الناس. لأن لياليه كانت قد تغيرت، عادت مثلما كان في تلك الفترة الأولى، كان يصرخ بعينين مغلقتين، وكان يمزق بيجامته من فوقه. هكذا كنت متأكدة، لا -لا يمكن أن نتأكد قط من أي شيء- ولكن لنقل إنني كنت أشك في أن سبب غرابته هو ذلك بالتحديد: عادت السنوات الثلاث يوما بعد يوم وكانت تلتهمه من الداخل. هل تحضرك الأنهار التي تحمل الرمال والنفايات؟ بالتدريج، تبدأ

لنفايـات والرمـال، سـنتيمترا يـلي الآخـر، بإخفـاء البحـر، بابتلاعـه. إليـك، كان في رأسـه يحـدث شيء مـن هـذا القبيـل.

فقـط مـرة واحـدة في تلـك الأعـوام، قابلتـه في الطريـق. كانـت مصادفـة، كان يوما جميلا وكنـت قـد أخـذت سـيرينا إلى الميـناء لـترى لسـفن. لا، لم يرنـا هـو. ولا أعتقـد حتـى أن سـيرينا أدركـت أن أباهـا كان قريبـا. لقـد عرفتـه أنـا فقـط بسـبب طريقتـه الغريبـة التـي يضـع بهـا يديـه في جيبيـه. مـاذا كان يفعـل؟ لا شيء، كان جالسـا في القمـة، عـلى الرصيـف، بـين صيادَيـن، لم يكـن يبـدو أنـه يعرفهـما. كانـا هـما يصطـادان وكان هـو ينظـر إليهـما. عندمـا شـد أحدهـما سـمكة لم يرفـع عينيـه مـن الميـاه، كانتـا مثبتتـين هنـاك في أسـفل.

أتعرفـين، بمجـرد رؤيتـه هنـاك، حتـى وإن لم يكـن يفعـل شـيئا سـيئا، شيء مـا بـدأ يتحـرك بداخـلي. مـاذا؟ سـحابة، السـحابة الأولى الضخمـة عـلى ذلـك لأفـق الـذي كنـت أجـبر نفـسي عـلى رؤيتـه صافيـا. ثـم، لا أعـرف إذا سـبق ن حـدث لـكِ هـذا، ولكـن في بعـض المـرات تظنـين أنـك لا تعرفـين شـيئا، ولكـن في الحقيقـة تعرفـين كل شيء. هـل هـي قـدرات فائقـة للطبيعـة؟

لا، ليـس مـن السـهل تصديـق ذلـك. ولكـن أعتقـد بالأحـرى أنـه في مـكان مـا لا تعرفينـه قـد راكمـت بالفعـل عديـدا مـن المـؤشرات، لعلامـات، نوعـا مـن البـازل. عندمـا يحـدث شيء مـا، فقـط عندمـا يحـدث، تدركـين أن هـذا هـو الجـزء الناقـص، القطعـة الأخـيرة للبـازل.

وهكـذا، في ذلـك العـصر الـذي دق فيـه جـرس الهاتـف -كان لخريـف، وكانـت تمطـر، أتذكـر ذلـك، كنـت قـد انتهيـت مـن إطعـام سـيرينا- وقبـل حتـى أن أجيـب، كنـت أعـرف بالفعـل مـاذا كان، لم شـعر بالدهشـة عـلى الإطـلاق عندمـا سـمعت الشرطـة. وقبـل أن يتحدثـوا سـألت: أيـن برونـو؟

كنت مخطئة فيما يخص المكان، ولهذا، ليس حقيقيا ذلك الذي تقولين عنه: البصيرة. كنت أعتقد أنه سيترك نفسه ليسقط في الماء، وأنه سيموت غريقا، إلا أن هذا لم يحدث، كان جسده هناك على التل مقسما إلى ثلاثة أجزاء تماما من قطار.

لا، ذلك المكان لم أره قط، حتى في السنوات التالية حاولت دائما ألا أعبر بالقرب منه. أين هو؟ يبدو لي أنه بالقرب من ذلك المستودع الكبير للحيوانات، الذي فيه يجمعون الأبقار التي تصل من الشرق في شاحنات. أتعرفينه؟ بشع في الليل؟ الحيوانات تصرخ؟ أتقصدين أن الماشية أيضا تشعر بشيء؟ لا، ليس ممكنا، الحيوانات لا تعرف شيئا، لا يمكنها معرفة اليوم الذي ستموت فيه. على كل حال، قالت لي الشرطة فيما بعد، قد بنى لنفسه في تلك الأنحاء نوعا من الملجأ، أعتقد أنه كان يذهب إلى هناك عندما يختفي لبضعة أيام. في الداخل عثروا على حذاءيه، وملفا به قصاصات من الصحف. لا، لم أهتم بأكثر من ذلك، كانت لديّ سيرينا، وكان لا بد أن أفكر فيها، كنت أمّا، أتفهمين؟ كانت هناك مشكلات عملية كثيرة يجب حلها، ثم الطفلة، على الرغم من أني قد قلت لها إن أباها قد رحل، كانت قد خمنت شيئا ما. كانت غريبة، في كل مرة كنت أراقبها بدقة -عندما تنام، أو عندما تؤدي واجباتها المدرسية- كنت أدرك أنها بدأت تشبه برونو أكثر، كأن جزءا من روحه قد استقر بداخلها، ولكن لم يكن ذلك الجزء النزيه والقوي، كان ذلك الجزء الضعيف والضائع للفترة الأخيرة. كانت تؤدي جيدا في المدرسة، وكان من الواضح أنها طفلة ذكية. ربما ما أفسدها كان هذا بالتحديد، الذكاء. يقولون إن الذكاء نعمة، ولكنني لا أعتقد ذلك. كان من الأفضل، من الأفضل جدّا، الحياة من دونه. كانت

أمورها تسير على ما يرام في المدرسة، إلا أنها لم يكن لديها أي صديق، كانت دائما بمفردها، لم تكن تهتم بشيء. كنت أحثها على الخروج، على قراءة الكتب، أنت تعرفين كيف تفعل الأمهات، أليس كذلك؟ كنت أخشى أن تغلَق على نفسها أكثر من المعتاد. لا بد ألا ننسى أن وراءها، خلفها، وبداخلها كانت توجد أمي. لم أكن متأكدة، ولكن كان هذا ممكنا...

أترين، على سبيل المثال، عن هذا الشيء، تلك الخطورة الوراثية، كنا أنا وبرونو قد نسيناها تماما. كنا، كما يقولون الآن، حذفناها؟ أجل، كنا قد حذفناها. إنها الطبيعة، كما شرحت لك. لتكسبي جولة لا بد أن تكون حركاتك حصيفة، وأن تتخطي كل شَيء.

وهكذا، عندما مكثت بمفردي مع سيرينا، تذكرت هذا، وأصبح نوعا من الأفكار الاستحواذية، ربما كنت أتبعها أكثر من المفروض، وأنظر إلى كل تصرف لها. كنت أتساءل: هل هذا طبيعي، غير طبيعي؟ كانت تبكي باستمرار. بدأت تبكي كثيرا حتى قبل السن التي يبكي فيها المرء عادة، سن المراهقة. كانت تجهش بالبكاء فجأة، ولم يكن هناك سبب قط. كنت أسألها: لماذا تبكين؟ وكانت هي تبكي أكثر، وتصيح: «لا أعرف!»، وتلقي بنفسها فوقي. في تلك الفترة لم تكن هناك قصص الطب النفسي والتحليل النفسي، لم يكن يذهب للطبيب النفسي سوى المجانين، وبالنسبة إلى أي شيء آخر، كان المرء يستخدم حدسه، والحدس فقط، هكذا كنت أواسيها، وآخذها بين ذراعي، ولكن في مرات أخرى كنت أشعر بالضجر، وأتركها هناك تبكي بالساعات. بالتأكيد لم أُشعرها قط، ولكنني كنت خائفة جدّا، كنت أشعر أن الأشياء تخرج عن سيطرتي مرة أخرى، وسيرينا كانت الشيء الوحيد الباقي لي.

أتعرفين، في أوقات العصر التي فيها أجلس بمفردي على المقعد في مرات عديدة أدير التلفاز، أنظر هنا وهناك، ولا يعجبني شيء إلا أنه في كل مرة أعثر على برنامج علمي، أحد تلك البرامج التي تشرح كيف تسير الأمور بداخلك، كنت أطفئها، ربما يكون شيئ مهمّا، ولكن أنا لم أعد أرغب في معرفة شيء. قصة الكروموزومات والجينات لا أتحملها. لا، لا أحتمل رؤية كل شيء بالرسومات الملونة والمُكبرة بواسطة الميكروسكوب، ذلك الفأر حدث له هذا لأن أمه كانت كذلك، وهكذا... شيء لا يمكن تحمله، بشع.

كان عمرها خمسة عشر عاما عندما حاولت الانتحار، وجدتها على الأريكة، كانت هناك منبطحة، كانت ما زالت تتنفس.

بينما كانت في المستشفى فهمت أنها لن تفلت قط: الهروب هو مجرد وهم. إن الأعوام التي قضاها برونو في ألمانيا ما زالت كلها هناك بالداخل، مطبوعة، مسحوقة في جيناتها. سيقول العلماء لا، ليس حقيقيا ما أقوله، ولكنني أقول أجل، كانت هناك ذكرى ما. وكأنها كانت هي أيضا هناك، كانت تتألم كما تألم أبوها، ولم تكن تعلم لماذا تتألم. كان شيء يمزقها من كل جهة، لم تكن قوية لم تكن محمية وحتى الرياح كانت تخيفها. كان الخطأ خطئي لأنني أنجبتها.

اليهود درسوا تأثير معسكرات الإبادة على الأجيال الأصغر؛ أرأيت أنني على حق، هذا حقيقي: فالرعب يذوب في الأنسجة ويُنقل إلى الأبناء، والأبناء ينقلونه إلى الأحفاد... ويُنقَل من جيل إلى آخر، يتحرك إلى الأمام بضعف بالتأكيد، وفي النهاية يُطفأ. يُطفأ في اللحظة نفسها التي يكون فيها رعب آخر مستعد، طازج وحي يقف هناك في الانتظار، و... لقد فقدت الخيط... هل تسمعين

أنـت أيضـا هـذا الأزيـز؟ مـاذا يمكـن أن يكـون؟ الثلاجـة؟

عَـما كنـا نتكلـم؟ يبـدو لي... أجـل، هـذا بالضبـط. أنـا لا أصـدق قصـة الإنسـان الصالـح، إذا كان يوجـد في مـكان مـا لا بـد أن نـراه. أنـا لا أراه. ولا أنـا أيضـا صالحـة، لسـت كاذبـة للحـد الـذي فيـه أخـدع نفـسي، فأنـا لسـت صالحـة عـلى الإطـلاق، لا يوجـد أي صـلاح لأن كل هـذا الـشر، لأن ذلـك الـشيء الـذي يحيـط بنـا ويدخـل بداخلنـا والـذي يجعلنـا نقـوم بأشـياء لـن تقـوم بهـا الوحـوش قـط... فالوحـوش تـأكل فقـط مـا هـو مخصـص ليـؤكل، لا تلتهـم بـلا تمييـز، هكـذا فقـط لمتعـة التـذوق... مـن أيـن تـأتي متعـة التـذوق؟ مـن الإنسـان، مـن قلبـه: مـن وضعـه بداخـل قلبـه؟ هـل وضعـه بداخلـه شـخص مـا؟

ذهبنـا إلى الجبـل، كنـا ننـام في الغرفـة نفسـها، في الفـراش نفسـه. كانــت المـرة الأولى التــي يحــدث فيهـا هــذا منــذ صغرهــا. في ليلــة اسـتيقظتُ عـلى صراخهـا -أيـن كنـت لم أكـن أعـرف، وللحظـة فكـرت أنـه برونـو- ثـم أضـأت المصبـاح، وأدركـت أنهـا كانـت هـي، طفلتـي. كانـت تـصرخ وعيناهـا مغلقتـان، وكانـت ذراعاهـا وقدماهـا تتحـرك. عندئـذ جلسـت عـلى طـرف الفـراش. كنـت أجلـس هنـاك ثابتـة، ومـرة أخـرى لم أكـن أعـرف مـاذا أفعـل. كـم يمـر الوقـت ليـلا، ينبسـط ويتمـدد. فجـأة تذكـرت ذلـك العهـد، النـذر الـذي نويتـه منـذ سـنوات مضـت. كنـت أفكـر، طلبـت الهـدوء في مقابـل شيء لم أمنحـه قـط... الآن ربمـا كان اللـه يعاقبنـي. كان يمكـن لحيـاتي أن تكـون مختلفـة، ولكنـه خطئـي إذا كانـت قـد اتخـذت هـذا المنحنـى. لقـد انحرفـت، تدهـورت، تقدمـت للأمـام، تجمعـت ثـم بُسـطت كلهـا هنـاك، في الألم.

كان يمكننـي أن أنـزع نفـسي مـن هـذه اللعبـة، أليـس كذلـك؟ كان بإمـكاني أن أنتحـر، أن أتـصرف بجنـون، كان طريـق التحـرر الوحيـد

الـذي أمامـي، ولكننـي لم أفعـل ذلـك. أكـذب إذا قلـت إننـي فكـرت في سـيرينا أو أي شيء مـن هـذا القبيـل. كانـت هـي تقـف هنـاك بالفعـل منـذ فـترة ممسـكة بقشـتها في يدهـا... لقـد رأيـت تلـك القشـة، وكنـت أعـرف أنـه ليـس بإمـكاني شيء. لم يكـن بسـببها، أو بسـبب أي شـخص آخـر أننـي لم أمـت، لم يكـن سـوى جبنـي فقـط.

فتحـت السـتائر، كان لا بـد أن يدخـل ضـوء الشـمس إلى الحجـرة. كان يوجـد كثـير مـن أشـجار الصنوبـر هنـاك في الخـارج، وفوقهـا كان هنـاك عصفـور معلـق في الهـواء، كان تقريبـا ثابتـا، ربمـا كان نـسرا، فتحـت سـيرينا المذيـاع، كانـت هنـاك أغنيـة، مـا زلـت أتذكـر قرارهـا، يقـول: تلـك الفـوضى الشـديدة للحيـاة...

خـلال الأسـبوع أجلـس هنـا عـلى المقعـد وأنتظـر حضـورك. أعتقـد أننـي لـن أقـول لـك المزيـد، سـأتحدث عـن الطقـس، وعـن ذلـك القليل الـذي أعرفـه عـن الحكومـة. كـم أردت أن أخيـط فمـي، فلقـد خطـت بالفعـل مـا بداخـلي، أنـا متأكـدة، ولكـن عندمـا أراك لا أعـرف مـاذا يحـدث، يُفتـح، ويبـدأ بمفـرده.... تلـك الأغنيـة أتذكرينهـا؟ هنـاك لحظة يصبـح فيهـا كل شيء مجـرد ضرب مـن العبـث.

ماتــت حفيــدة إحــدى صديقــاتي القريبــات. كانــت قــد بــدأت تسـير لتوهـا وتتعلـم الـكلام. فجـأة بـدأ نظرهـا يضعـف، وبداخلهـا وُلـد شـكل جديـد مـن الحيـاة؛ سرطـان هنـا، وسرطـان هنـاك، طبيعـة قاسـية وشرسـة التهمـت مخهـا وكل شيء آخـر. في الجنـازة كنـت أقـف بجوارهـا ولكننـي كنـت أشـعر برغبـة في الضحـك.

الـبراءة المتألمـة، مـن يمـوت مـاذا يكـون؟ كنـت أرغـب في أن أطلـب مـن كل الراكعـين عـلى ركبهـم أن يجيبـوني هـم.

لا بـد أن هـذا حـدث لـكِ أيضـا، أليـس كذلك؟ أمـام الأشـياء الحزينة

بدلا من أن نبكي نبدأ في الضحك، نضحك ونضحك ولا يمكن لشيء بعد أن يوقفنا. نعلم أن هذا ليس جيدا، ولكننا نضحك رغم ذلك، فالألم يتسبب في الضحك. الألم القليل يتسبب في البكاء، كثرة الألم تُضحك. نضحك كما يحدث في القصص المصورة فبدلا من أن يُكسر شيء واحد يتحطم كل شيء. كل شيء يسقط، البطل أيضا يسقط، ونستمتع بذلك. هكذا كانت حياتي، أحكي شيئا وراء الآخر، لمدة نصدق أنه في لحظة ما سيحدث شيء ما، نفكر في أن ما يحدث أكثر مما نحتمل، ونشعر برغبة في الضحك؟ السبب الذي لم أكن قط أتحدث مع أحد -عن كل شيء أقصد- هو تلك الضحكات الحتمية. أنت لم تضحكي بعد، لا يبدو أنك تضحكين ولكنني أعرف ما يحدث بداَخلك؟ ربما أنت فقط مهذبَة.

أنا مصابة بهذا الداء، مراقَبة حيوات الآخرين. كنت أنظر إليها وأقول، إنها مثل فاكهة السوق -تلك الفاكهة الحالية، أتعرفينها، كلها مستديرة متشابهة، لها جميعا اللون نفسه- في التلفاز قالوا إنهم يصنعونها بالهرمونات، إنها تلك التي في النهاية تتسبب في السرطان، أو على الأقل تشجعه، ولكن المهم حاليا أن تلك الفاكهة تامة الصنع. حتى الزهور، قالوا لي إنهم يستنسخونها، لا أعرف ماذا تعني تلك الكلمة، تجعلني أفكر في كلمة غير مناسبة. والورود المستنسخة هي كل الورود الحمراء إلى أقصى درجة، لا يمكن أن تكون أكثر حمرة من ذلك، فقط ينقصها شيء واحد، ليس بها أي عطر.

يكتب لي أبي من حين لآخر من هناك، كان يعمل في الحظائر، كان يقول إن الوسائل أصبحت بالفعل حديثة جدّا، لم يكن هناك مكان يولد فيه كل تلك العجول، عجول كالفاكهة، كالعجل الموجود في كتب المدرسة، كلها يشبه بعضها البعض، لا عيب فيها. ولكن

يحـدث أحيانـا أنـه مـن بـين مئـة يولـد عجـل برأسـين، أو ثلاثـة أرجـل. هـل تفهمـين، يحـدث نـوع مـن التمـرد، يحـدث نـادرا، ولكنـه يحـدث. كمثرتـان تتشـكلان ملتصقتـين معـا، السـاق واحـدة، والقلـب، البـذور، ولكـن هـما اثنتـان، وتذهـب إلى المتاحـف، وعـلى صفحـات الكتـب، وإلى النفايـة. إذا أنظـر إلى حيـوات الآخريـن وأسـتنتج أنهـا يغلبهـا الهـدوء، وتحـدث أشـياء صغـيرة جـدّا. فالأشـخاص الذيـن يعيشـون هادئـين ويموتـون وهـم مـا زالـوا في هدوئهـم. يكفـي أن تراقبـي مـن حولـك، سـترين ذلـك أنـتِ أيضـا، سـترين أن الحيـاة العاديـة تتدفـق، وتجـري، ولكـن أحيانـا مـَن حـين لآخـر يحـدث أن يتعرقـل شيء مـا. عنـد أي مرحلـة يتعرقـل، لا أعـرف، وتكـون هنـاك حيـوات مختلفـة يذهـب إليهـا كل الألم، مثـل بـودرة الحديـد عـلى المغناطيـس، يتجمـع هنـاك، يتمركـز، ويُطبـع. نولـد في قلـق، ونمـوت أكـثر قلقـا مـما وُلدنـا. ليـس خطـأ التقنيـة، ولا الإنسـان السـابق، ولا الأشـياء السـابقة، إنه شيء أعـلى أو ربمـا أسـفل، خطـأ مَـن إذا؟ هـل نُختـار؟ أم نختـار؟ قـال لي قـس يومـا: «إن حيـاة مثـل حياتـك هـي عطيـة». ولكننـي أقـول عطيـة مـاذا؟ نتقـدم للأمـام، نقـاوم، ونحـاول، لمـاذا؟

لم يقـل لنـا العلـماء ذلـك قـط، لم يفعلـوا هـذا ولكـن لا بـد أن يفعلـوه. لا بـد أن يفهمـوا لمـاذا يتمركـز الألم في أماكـن قليلـة، فقـط لـدى هـؤلاء، فقـط هـم أنفسـهم. وراء ذلـك أعتقـد أن هنـاك قانونـا شـبيها بقانـون كيميـائي، بـأن المكونـات تتجـاذب وتتنافـر. لهـذا أقـول لـك، لا بـد لهـم مـن البحـث في ذلـك، اكتشـافه، والعثـور عـلى تريـاق مـاَ.

لم أعـد أسـتطيع النـوم، آخـذ الحبـوب ولكننـي أظـل يقظـة، يدخـل الحـر مـن النافـذة والـتراب، مـا زالـت شـجرة الجارونيـا واقفـة هنـاك،

لا تحيا ولا تموت. سمعت أن هناك غطاسين يغطسون في المجاري، يعطونهم مليونَي ليرة في الساعة، لم يعطني أحد شيئا قط، أدور وألف طوال الليل، أنا أيضا أسفل المياه، فالأغطية هي مغارة أسفل المياه. في الظلام أذهب إلى الأمام والخلف، أستدير، أرغب في الخروج، ولكنني لا أعرف أين يوجد السطح، وإذا كانت هناك سماء، أين هي؟

التاسعة فعلا؟ لا بد أن تذهبي؟ احضنيني أولا.

انظري كم من الخطابات التي ما زلت أتلقاها، شيء لا يُصدق، أليس كذلك؟ لقد مر حوالي خمسة عشر عاما، إلا أنهم ما زالوا يرسلونها لي. يبدو النموذج نفسه المطبوع مسبقا، فوقه كُتب: «توجد لدينا في مخازننا الأشياء التالية...» ثم قائمة بكل الأشياء التي تركتها ابنتي هناك. في إحدى المرات، منذ فترة طويلة أجبتهم، كتبت لهم «أشكركم، يمكنكم الاحتفاظ بها»، إلا أنني لا أعرف، ربما لم تصل قط إلى المُرسل إليه، أو ربما لم يفهموا خطي، مع مرور السنوات الخط أيضا يتغير، يصبح مثل نبش الدجاج.

الجو حار اليوم، أليس كذلك؟ سرعان ما ستأتي فترة الإجازات، أين ستذهبين؟ لا، أنا سأمكث هنا، أين تريدين أن أذهب؟ سأغلق النوافذ، لديّ مروحة صغيرة، سأضعها هناك على المائدة حيث يوجد الإبريق الآن، سأشاهد التلفاز، أو سأتركه فقط مفتوحا. القراءة لا، لا تهمني. يقرأ المرء عندما يكون فضوليا، وأنا لم أعد كذلك، منذ أن ماتت سيرينا لم أنه كتابا قط. هي أجل، كانت تلتهمها، هل رأيت الحجرات هناك؟ إنَ الكتب التي تغطي الجدران هي كتبها، بدأتَ تجمعها منذ صباها. وفي لحظة ما أتتها تلك الفكرة، أن تصبح مؤلفة. كانت شغوفة بالقصص البوليسية. كانت تقص من الجرائد

كل مقالات الحوادث الغامضة، وكانت تضعها في ملف -حوادث الاغتصاب في الملف الأصفر، وجرائم القتل في ذلك الأحمر- وكانت تنظمها باستمرار، بحماس شديد. كان القتل شيئا بداخلها، كانت تتنفسه في رئتيها، كنت أراه في عينيها، وكانت هي تبحث عنه في كل مكان، كانت تكتب قصصا، تزداد تركيبا مع الوقت، أحيانا كانت تصبح مركبة إلى حد أنه لا يمكن حتى فهم من الميت، على الأقل، لم أكن أفهم أنا، ولكن هي كانت تقول إنها بسيطة جدّا. تلك القصة لم تعجبني منذ البداية، ليست القصة التي كتبتها، ولكن واقع أنها كانت تهتم بتلك الأشياء، بأنها تمكث بين الجثث كأنها بين الزهور. بعد بضعة أعوام بدأت تنشر، بدأت تثبت نفسها، عندئذ قلت لنفسي ربما هذا حقيقي، ربما تكون تلك هي موهبتها، إنها مهنة مثلها مثل غيرها، كان يمكن أن تصبح طبيبة أو محامية، كتابة القصص البوليسية شي جيد أيضا. إلا أنني لم أكن قط مستريحة، ربما إذا كنت رأيتها مستريحة لكنت استرحت أنا أيضا، ولكن كانت هي قلقة طوال الوقت. الوصول إلى النجاح وكتابة تلك الأشياء المرعبة لم يرحها على الإطلاق. لم تكن مجرد مُتنفس، أتفهمين؟ شيء يمكن أنَ يهدأ مع مرور الوقت، لا، كان تحريضا، كانت غالبا ما تستبدل حياتها مع كتبها، كانت تشعر بأن شخصا ما يتبعها في الطريق، كانت تشعر بالخوف عند فتح الخزانات. في الأعوام الأخيرة كانت تقول إن هناك شيئا أكبر بكثير في داخلها، إن في داخلها أعظم قصة بوليسية، ولكنها لا تستطيع أن تعبر عنها، كانت تسافر في رحلة ثم أخرى، ولكن كانت حالتها تزداد سوءا. لم أكن أنصحها، لا، كنت صامتة، ماذا تريدين أن أقول لها؟ تزوجي وأنجبي لكِ طفلا؟ عندما قالت لي إنها ستذهب إلى

أمريكا -كانت ستذهب إلى نيويورك باحثة عن الإلهام، لأن هناك الجرائم كثيرة جدّا- قلت لها، تفعلين الصواب، أنتِ على حق.

بعد شهر، عثر عليها أحد عمال النظافة في المصعد. لم يعرف أحد قط من خنقها.

كتبت الصحف أنها ماتت كما يحدث في رواياتها. أجرت الشرطة بعض التحريات. لماذا كانت في المصعد؟ ماذا فعلت ذلك المساء؟ لم يغلقوا الملف قط. لا يهمني أي شيء من هذا، هل تعرفين بماذا شعرت عندما وصلني الخبر؟ شيء بشع، أخجل من أن أقوله، شعرت بالفرح، أقصد أنني فرحت من أجلها، ليس من أجلي. هل أنا وحش؟ يصبح المرء كذلك. الحياة تسير هكذا، نزرع، نراقب الزرع ينمو، ونتوقع أنه سيتم اقتلاعه. منذ أن بقيت وحدي أتساءل إذا كانت قصة الهنود تلك حقيقية، بأن الأرواح تتحرك، تذهب من مكان إلى آخر، تدفع هنا ثمن ما ارتكبته هناك، وإذا كانوا عندما يدفعون يشعرون بالسعادة... إذا كان الأمر كذلك، ماذا تعتقدين الذي فعلته في الحياة الأخرى؟ أفكر في هذا كثيرا وأخاف من الرد. أفكر أنني ربما كنت تمساحا أمريكيا، أو نمرة شرهة، وأنني في الحياة الأخرى سفكت كثيرا من الدماء، بعثرتها في تلك المرة، والآن تبعثرت حولي. ماذا كان الدرس الذي عليّ تعلمه؟ إن هناك وقتا للقتل وهناك وقتا للشفاء، وهناك وقتا للهدم وهناك وقتا للبناء. لقد قتلت كل شيء، وهدمت كل شيء، ما الذي بنيته؟ أفكار قليلة تتجول، الأفكار المهينة للغبي. لماذا ما زلت أذهب، أتحرك، وألتفت، وألتفت مرة أخرى، ولا أفهم شيئا؟ إذا كان هناك درس ما، ماذا كان؟ أصيح هنا وهناك ولا أحد يسمعني، هكذا أتساءل كيف يمكن للمرء أن يستسلم، أن يشعر بالثقة؟ الثقة في

ماذا؟ كثيرا ما أشعر بالندم، الندم على أنني لم أكن عظيمة على الأقل في شيء. لم أفعل الشر قط في أحد، لم تكن لدي قط تلك الرغبة، ولكن الشر أغرقني كالأمطار الغزيرة. عندئذ أسأل نفسي، إذا كان الشر قد فعلته أنا من قبل، فهل في الحياة السابقة كنت أكثر سعادة؟ ماذا عن بعد؟ ومن يستطيع أن يقول أي شيء عما بعد؟ لا أرى، لا أؤمن، لا يهمني شيء من التوازنات، والحسابات: إن اللعبة كلها هنا، تلك التي نعرفها، ليست في مكان آخر. عندما ماتت سيرينا، لفترة كانت لديّ تلك الفكرة، كنت أفكر أنها كانت التجربة الأخيرة، لا بد أن شيئا ما سينزل من السماء، عند تلك اللحظة لا بد أن ينزل شيء عظيم، إلا أن شيئا لم ينزل، جلست هنا على مقعدي بأفكاري الضئيلة جدّا، كالفئران التي تفرك في النفق. ولكن ربما يكون هذا أيضا، أن تكون الضآلة هي سبب دماري. لم أجرؤ قط على شيء. نظرتي؟ إنها نظرة الحملان قبل الفصح، كنت هناك بعينين مغلقتين وتلك الفؤوس فوقي، أيضا دون أن أراها كنت أشعر دائما فوق رقبتي بصقيع النصل، تلك الرياح الباردة والمعلقة. لو كانت لدي أي مواهب لما استخدمتها، فقط تقدمت إلى الأمام مخدرة. كانت هناك موجة تدفعني، وكنت أنا في وسطها كحذاء قديم، كوعاء، كل أيام حياتي كنت أذهب للأمام وللخلف بين الزبد دون أن أصل إلى أي مكان. لم أفعل الشر قط، ولم أفعل الخير أيضا، لم أفعل أي شيء.

اليوم، قبل أن تأتي، فتحت مجلة قديمة. كان هناك حوار طويل مع فيلسوف مسن، فهم يجرون الحوارات دائما مع الفلاسفة وهم على وشك الموت. كان يتحدث عن الشيخوخة. يقول إن الطبيعة خيّرة ومعطاءة، لأنها في لحظة ما تخفي كل شيء، لا يشعر المرء

بعـد بانفعـالات قويـة، تبتعـد المشـاعر، يضعـف شـعور المـرء وتضيـق رؤيتـه، يصبـح كل شيء انتظـارا في شرنقـة، يبحـر المـرء في بحـر هـادئ، يـرى الشـاطئ يبتعـد، يبهـت لونـه مـن سـاعة لأخـرى... ليختفـي في النهايـة.

عندمـا انتهيـت مـن القـراءة، هـل تعرفـين مـاذا كنـت أرغـب في أن أفعـل؟ كنـت أريـد أن أكتـب لـه خطابـا، ثـم قـرأت تاريـخ المجلـة، ولم أكتبـه، فقـد كانـت منـذ عـدة أعـوام، مـات بالتأكيـد. عـلى كل حـال، لـو كنـت كتبـت لـه، كنـت سـأكتب أنـه مخطـئ جـدّا؛ ليـس حقيقيـا أن كل شيء يبتعـد هـو الأفضـل، هـذا حقيقـي جزئيـا، يشـعر المـرء أقل، يـرى أقـل، يتحـرك أقـل، ولكـن هـذا بـدلا مـن أن يسـاعد، يجعـل كل شيء أكـثر صعوبـة. تتبخـر الأشـياء المحيطـة، وتتـلاشى المُلهيـات عندئـذ تـبرز شـعلة نـار بـكل مؤثراتهـا، وتمكـث هنـاك وتشـتعل، تمـس كل العنـاصر، وتحطمـك. إنهـا كذبـة تلـك التـي تقـول إنـه ليـس للمسـنين انفعـالات، للمسـنين انفعـالات رهيبـة، إن النـدم هـو الـذي يغذيهـا، ويحركهـا ويقويهـا. لا تحتـاج أن يكـون لديـك مـا تنـدم عليـه، فهـذا لا بـد أن تعرفـه مـن البدايـة، فهـم سـيغنون هـذا لـك وأنـت في المهـد كأنهـا أغنيـة مـا قبـل النـوم، ولكـن إذا لم يكـن هنـاك مـن يغنيهـا فكيـف سـيمكنك معرفـة هـذا؟ عندمـا يعـرف المـرء هـذه الحقيقـة يكـون الوقـت قـد تأخـر. أتريـن؟ نعـود دائمـا إلى نقطـة الانطـلاق، لا يوجد مهرب.

عندئـذ تصبـح القدمـان ضعيفتـين، والنظـرة معتمـة، والأصـوات التـي نسـمعها تصبـح منخفضـة أكـثر، فجـأة تولـد بداخلـك تلـك الرغبـة، رغبـة ليسـت سـوى مزحـة. تريـد أن تتحـرك، أن ترحـل، أن تذهـب في رحـلات طويلـة، تريـد أن تـرى أماكـن جديـدة، أن تـرى مـن

جديد تلك التي رأيتها من قبل. هكذا يحدث لك عندما تستعد لترك الدنيا.

لقد سافرت قليلا جدّا، فينتسيا، فلورنسا، المناطق المعتادة. فقط مرة واحدة قمت برحلة أطول -كانت سيرينا في الثانية عشرة- ذهبت إلى فلسطين لأزور أبي. كان هو قد شاخ، كنت أريدها أن تتعرف على الجد الوحيد الباقي على قيد الحياة.

في تلك الفترة كانت صعبة المراس، كانت لديها فكرة تستحوذ عليها وكانت ترددها باستمرار. أحدهم، في المدرسة على ما أعتقد، قال لها إن هيتلر لم يمت، وإنه كان هناك جسد موجود في الخندق، ولكن لا أحد يمكنه تأكيد أن هذا كان جسده. كانت موهبة الروايات البوليسية موجودة بالفعل في داخلها، وهكذا كانت تقضي وقتها في إيجاد فرضيات، وتلك التي تتمسك بكونها حقيقية هي الأكثر بشاعة. قبل النهاية بقليل، كان هو هناك بأسفل، وقتل رجلا كان يشبهه تماما. ربما كان قد ركّب ذلك الرجل في المعمل، قام باستنساخه، تماما كما يستنسخون الزهور، قتله، ثم من هناك، دون أن يخرج إلى السطح، هرب. وليهرب استخدم أنفاقا، تلك الأنفاق كانت مُعدة منذ أن تولى الحكم، بناها أفضل مهندسو النظام، كانت تمر كالأوردة أسفل كل جزء في العالم، كانت تقود إلى أستراليا، والهند الصينية، غرينلاند وشيلي. كانت هناك أبواب سرية في كل مكان، يمكنه الخروج منها.

بطبيعة الحال، هناك بالداخل كان يوجد طعام وشراب، وكل ما هو ضروري للبقاء على قيد الحياة. كانت هناك إمدادات لآلاف من الأشخاص، لأنه لم يكن بمفرده بالتأكيد، كانت معه تلك الآلة ليستنسخ بها. أحاط نفسه بكلاب صيد، أفضل أنواع كلاب الصيد،

وهناك في أسفل كانت توجد عشرات وعشرات الآلاف منها، لم يعد هناك تقريبا أي مكان في الأنفاق، كانت تجري للأمام وللخلف دون أن تتعب، تشتمّ الهواء بشراهة، وتلتهم كل رائحة في الهواء، كانت تلهث وتتسبب في ضوضاء رهيبة. عندما كانت تشتمّ الرائحة المطلوبة كانت تشحذ أسنانها، كانت كالثعالب مفتوحة الفكوك، جاهزة للهجوم. منذ عشرين عاما كانت تعيش هناك في أسفل، هناك في أسفل تضاعف عددها، وكانت تتحرك في قطعان، كانت تنتظر فقط صفارة، إشارة، شيئا يقول لها إن الوقت قد حان لمحو كل ما هو غير نقي في العالم.

هل تفهمين؟ كانت سيرينا تعيش وذلك الوهم في داخلها. بالنسبة إليها لم يكن مجرد وهم، بل كان يقينا. كانت تقضي وقتها في الاغتسال، كانت تدعك جسمها بقوة شديدة حتى كانت تنزع عنه جلده. لم تكن تسير قط فوق فتحات البالوعات، فتحات التهوية. في المساء كانت تضع حجرا من الرخام على قاعدة المرحاض. أخْذُها إلى هناك بدا لي فكرة جيدة، أفضل فكرة. كان يمكن لها أن تتعرف على جدها وأن تعرف أن هناك مكانا يمكنها فيه أن تشعر بالأمان. قلت لها، حتى وإن كانت الذئاب يمكنها أن تخرج من كل مكان، هناك لا يمكنها الخروج، حيث يوجد جيش ضخم مستعد لأن يحارب فقط من أجل هذا. قلت لها أيضا إنه إذا أرادت وإذا شعرت بأنها أكثر ارتياحا يمكننا أن نستقر هناك. لم يعد هناك شيء يربطنا بالمدينة التي نسكن فيها وسيكون أمر سهلا.

في الواقع هناك هدأت بعض الشيء. كان يعجبها ذلك الجد المنفصل عن العالم، فهو لا يفكر سوى في الماشية، وعزف الكمان،

كانا يذهبان في جولات طويلة معا، في بساتين الموالح. كانت القصة بالنسبة إليه الآن ليست سوى ذكرى شاحبة، كان ينظر إلى النباتات وهي تنمو وإلى تطور العجول. كانت حياته كلها هناك، في الطبيعة. كان رجلا سعيدا واستطاع لفترة أن ينقل لها من سعادته. قضينا شهرا معا، غارقين في سلام المستوطنة.

أسبوع قبل العودة قررت أن أذهب في رحلة قصيرة إلى البلاد لمحيطة. كنت أريد أن يمكثا سويا أيضا لفترة، ربما أعان غيابي سيرينا على اتخاذ قرار ما. أخذت معي حقيبة خفيفة ووصلت إلى لأردن. في القدس أقمت في بنسيون قريب من باب حيفا، ولمدة ثلاثة أيام كنت أتجول في المدينة القديمة بلا أي هدف. منذ فترة إقامتي في الدير كانت هذه هي المرة الأولى التي فيها أجد نفسي حرة من أي قيود، وحيدة مع نفسي. من حين لآخر في وسط لحواري، كان يربكني صوت المؤذن وأصوات الأجراس، كنت أشعر بأن هذا غير حقيقي. كان المكان مليئا بالإيمان، إلى درجة أنني لم عد أستطيع التنفس. عندئذ كنت أجلس على أحد الأسوار، وأضع يدَيّ على قدمَيّ، وأضمهما بقوة. في اليوم قبل الأخير أخذت حافلة لأذهب إلى هناك، نحو البحر الميت.

وهذا ما لا تتوقعه عندما تخرج من القدس، لا تتوقع أنه بعد أشجار الزيتون توجد الصحراء، تلك الصحراء الرهيبة بكل لمنحدرات والاهتزازات، بمجرد أن بدأت الحافلة في النزول شعرت بالقلق. كنت أشعر بالخوف من أن أجد نفسي بمفردي في ذلك لحر الثقيل في مكان خال من كل شيء. ماذا كنت سأفعل طوال ليوم؟ كنت أريد أن أترجل، أن أعود للوراء، ولكن كان الأمر مستحيلا الآن.

نزلـت بالقـرب مـن وادي نشـيد الأنشـاد. وأنـت أيضـا ذهبـت إلى هنـاك، عـلى مـا أعتقـد. ومـن بعيـد كانـت قلعـةَ مسـعدة تـتَراءى كحصـن ضخـم. في الأمـام كانـت توجـد الميـاه الثابتـة، مثـل الزجـاج. لفـترة سرت بمحـاذاة الشـواطئ، نزعـت حـذائي، وجـواربي، وغمسـت قدمَـي بالداخـل. كان يمكننـي الدخـول كلي ولكننـي كنـت أخـشى أن تبتلـع تلـك الميـاه الميتـة قلبـي وعينـي وتحرقهـما.

سرت كثـيرا ونسـيت الوقـت. هنـاك، كـما تعرفـين، يحـل الظـلام مبكـرا، يهبـط سريعـا كأنـه مـصراع، فقـط عندمـا بـدأ يختلـط فجـأة مـا يحيـط بي مـن أشـياء، بـدأت أشـعر بالارتبـاك، وأدركـت أن الوقـت متأخـر، وأننـي يجـب أن أعـود إلى الطريـق وأنتظـر الحافلـة. وصلت إلى لافتـة المحطـة وبـدأت أنتظـر. انتظـرت لفـترة طويلـة. كانـت الشـمس قـد اختفـت ولم يكـن هنـاك أي أثـر للحافلـة. مأخـوذة بأفكاري نسـيت أن أراقـب المواعيـد. لم تعـد هنـاك حافـلات ولم تعـد تمـر سـيارات، وسرعـان مـا خفتـت أيضـا الأضـواء المضـاءة، ولم يكـن هنـاك أحـد في الجـوار. فجـأة أصبـح كل شيء بـلا حركـة ومزدوجـا مثـل السـبت، وكان السـبت بالفعـل.

هـل تشـعرين بالحـر؟ هـل تريديـن تشـغيل المروحـة؟ لا؟ إذا افتحـي النافـذة مـن فضلـك، دعـي بعـض الهـواء يدخـل، سـنختنق هنـا في الداخـل. ولكـن تحـركي قليـلا وإلا فسـتصابين بتيبـس في الرقبـة.

مـاذا كنـت أقـول؟ الصحـراء؟ أجـل، كنـت هنـاك، بمفـردي، لم يكـن لـديّ شيء في جيبـي. حتـى وإن كانـت معـي نقـود، لم يكـن هنـاك أي فنـدق. سرت نحـو المناطـق الداخليـة، كنـت أخـاف أن أنـام في الطريـق، تعرفـين، ذوو النوايـا السـيئة موجـودون في العـالم كلـه. كان الوقـت ليـلا ولكـن كانـت الرؤيـة واضحـة جـدّا؛ كان القمـر كامـلا في السـماء،

كان لونـه الأبيـض يمتـد عـلى كل شيء، عـلى الرمـال والصخـور، عـلى الأفـرع المتكلسـة لأشـجار السـنط. دخلـت إلى واد صغـير يقـودني ذلـك الضـوء، كان هنـاك نهـر يجـري أسـفل وحولـه نباتـات شـبيهة بتلـك الاسـتوائية. كان لا بـد أن أشـعر بالرعـب -لم أنـم قـط في الخـلاء في مـكان لا أعرفـه- كان لا بـد أن أخـاف، إلا أننـي كنـت سـعيدة، إلى حـد أننـي كنـت أغنـي، كنـت أغنـي أغنيـة أمـي للنحـل، كان يعجبنـي أن لا أحـد يعـرف أيـن كنـت، كان ذلـك يشـعرني بنشـوة غريبـة. فكـرت، يمكننـي أن أمـوت وأنـا فرحـة... سـتكون ميتـة سـعيدة. عندمـا وجـدت مـأوى اسـتلقيت. كانـت الرمـال مـا زالـت سـاخنة مـن شـمس النهـار، كانـت كالمـلاءة الدافئـة، وهنـاك النجـوم... كانـت هنـاك في المنتصـف، دائـرة بـين الدوامـات. رقـدت ورأسي إلى أعـلى. قبـل أن أنـام أخـذت أنظـر طويـلا إلى السـماء -حتـى هـذا لم أكـن قـد فعلتـه قـط- نظـرت إليهـا وندمـت لأننـي لا أعـرف أسـماء النجـوم. بالنسـبة إليّ، مثلـما الأمـر بالنسـبة إلى باقـي الآدميـين، كلهـا متسـاوية، ثانويـة. أجـل، فجـأة شـعرت بأننـي أريـد أن أناديهـا كأنهـا دعـوة: سـيريوس، أوريـون، سـينتوروس.. وخطـرت ببـالي فكـرة غريبـة، كنـت أفكـر إذا كانـت أمـي ومعهـا برونـو يجلسـان هنـاك فـوق، عـلى ظهـر إحـدى النجـوم. لـو أننـي عرفـت أسـماء النجـوم لكنـت سـأتمكن مـن اسـتدعائهما، والتحـدث معهـما طويـلا، كـما لم نفعـل قـط في أثنـاء وجودهـما عـلى قيـد الحيـاة... أتفهمـين، لقـد عـاد السـبت، كنـت أرى كل شيء مـن جديـد بعينـين مزدوجتـين، كانـت هنـاك الأشـياء كـما تبـدو، وكـما كانـت في الحقيقـة، كلهـا هنـاك منصهـرة في نظـرة واحـدة. كنـت أسـمع صوت الثعالـب حـولي، والحفيـف الخفيـف لليـل -إنهـا السـاعة التـي فيهـا تعيـش الصحـراء- كانـت هنـاك أصـوات مجهولـة، ولكننـي لم أكـن

أشعر بالخوف. قبل أن أنام فكرت في يونان، فيه هو، الثائر. إن الحوت الذي ابتلعه ابتلعني أنا أيضا. كنت هناك منذ ميلادي، تغمرني المياه، معلقة بين شرائط العوالق. بينما كان يذهب هو إلى الهاوية، كنت أنا أتأرجح في الداخل، كنت مجرد يرقة مضطربة وعمياء... كنت هناك ألعن وألوّح... كنت مأخوذة بشدة بهذا إلى حد أنني لم أدرك أن الوحش من حين لآخر كان يفتح فمه، كان يصعد إلى السطح ويفتحه على مصراعيه ليأكل الأسماك. كان يأكل الأسماك وكان هناك أيضا الهواء. عندئذ كان النور يدخل إلى الداخل كالسيف، ينير الحنجرة والترقوة، والمريء. كان يمكنه أن ينيرني أنا أيضا إذا كنت قد انتبهت، إذا كنت قد رأيته.

فكرت في هذا الشيء ورحت في النوم.

في الفجر ظهر الضوء ساطعا، كان يصعد إلى أعلى ببطء وهو يربت على كل شيء، فتحت عيني وقلت لنفسي -الضوء لا يصدم، لكنه يربت- كان الضوء يربت والريح تزداد. كانت رياحا استمرت لفترة قصيرة جدّا، بمجرد أن علت السماء اختفت. كنت أنا هناك في الوسط، مستلقية على الأرض بين ذلك الضوء وتلك الرياح، لم أعد يرقة بين الدوامات، ولكن كنت كالريح بين الريح، كنت نسمة، كنت نفخة، ثم كنت لا شيء. لم تكن لديّ أي رغبة في أن أنهض، أن أذهب. مكثت هناك بينما تتخذ الأشياء شكلا. وتماما وبينما أنا هناك ساكنة سمعت ذلك الشيء، كنت أنا ثابتة ولكن كانت الأرض أسفلي تتحرك، كانت تذهب إلى الأمام وإلى الخلف بطريقة منظمة وعذبة. لأول وهلة اعتقدت أن الأمر يتعلق بزلزال، ولكنها فكرة تبخرت بسرعة: لو كان كذلك لكانت الأشجار أيضا تحركت، لزادت الحركة أكثر حتى هزت كل شيء. عندئذ أصغيت

مـرة أخـرى، فـردت جسـمي كلـه لأسـمع بشـكل أفضـل، وبعـد فـترة فهمـت، فهمـت فقـط في تلـك اللحظـة، ثـم لم أفهـم قـط بعـد ذلـك. لا أعـرف إذا يمكننـي أن أقـول لـك ذلـك، أخـشى أنـك عندمـا تخرجـين مــن هنــا ســتضحكين، تذهبــين وتقولــين «عجــوز مَســكينة»، ولكــن لم يكن الأمر كذلك، حاولي أن تفهميني، فقد كان السبت.

إن للأرض أنفاسها، وأثناء وجودنا فوقها، تتنفّس تنفُّسَها الهادئ.

المترجمة في سطور

أماني فوزي حبشي

• حاصلة على الدكتوراه في الأدب الإيطالي عن أطروحة في مسرح كارلو جولدوني من كلية الألسن - جامعة عين شمس.

• حصلت على الجائزة الوطنية للترجمة من إيطاليا عام 2005.

• سبق أن ترجمت عدة أعمال منها: بندول فوكو لأومبرتو إيكو، ثلاثية أسلافنا (الفسكونت المشطور، البارون ساكن الأشجار، فارس بلا وجود) لإيتالو كالفينو، أصوات المساء لنتاليا جينزبورج، إيزابيلا وثلاثة مراكب ومحتال لداريو فو، بلا دماء لأليساندرو باريكو، اذهب حيث يقودك قلبك لسوزانا تامارو، المسرح الرقمي لأنطونيو بيتزو، وخطابات ضد الحرب لتيتسيانو ترتساني، من بين ترجمات أخرى صدرت من عدة مؤسسات ودور نشر منها أكاديمية الفنون، المشروع القومي للترجمة، مشروع كلمة للترجمة، سلسلة إبداعات عالمية، سلسلة الجوائز، دار الكرمة للنشر.

• شاركت بمقالات عن الثقافة الإيطالية في عدة صحف ومجلات منها القاهرة، أخبار الأدب والمصور.

المراجع في سطور

أيمن عبدالحميد حافظ الشيوي

• مصري من مواليد مقديشيو - الصومال.
• رئيس قسم التمثيل والإخراج بالمعهد العالي للفنون المسرحية - أكاديمية الفنون.
• اللغات: الإيطالية - الإنجليزية - العربية.
• دكتوراه في تاريخ ونظريات وتقنيات المسرح والعروض: تكنولوجيا الديجيتال الجديدة وتطبيقاتها من جامعة روما «لاسابينسا» إيطاليا.
• له العديد من الأبحاث العلمية: على سبيل المثال لا الحصر (المسرح يرتد إلى أصوله، جورج أبيض رائد المسرح المصري، مهرجان القاهرة الدولي للمسرح التجريبي، والمسرح الرقمي: مشكلة الإبداع والتكنولوجيا).
• له دراسة عن المخرج والمؤلف والممثل الإيطالي داريو فو - سلسلة المسرح العالمي - الكويت 2013.
• قام بمراجعة ترجمة نص «اذهب حيث يقودك قلبك» للمؤلفة الإيطالية «سوزانا تامارو» سلسلة إبداعات عالمية - الكويت 2014.
• من أعماله السابقة: عمل كمخرج بالقناة الثانية - البرامج الثقافية في التلفزيون المصري ثم بقطاع الإنتاج الدرامي باتحاد الإذاعة والتلفزيون. بالإضافة إلى العديد من المشاركات الدرامية والمسرحية والسينمائية والتصوير والإخراج في أكثر من 90 عملاً تلفزيونياً. ويعمل حاليا رئيس قسم التمثيل والإخراج من 2016.
• له العديد من الأنشطة: حيث إنه شغل منصب عضو في لجان التحكيم بالمهرجانات المسرحية في مصر، وكذلك قام بالكثير من ورش إعداد الممثل، بالإضافة إلى قيامه بالتدريس في كليات الدراسات العليا بجامعة القاهرة .

ما صدر من هذه السلسلة

314	حياة إنسان	تأليف : ليونيد أندرييف
315	دون كيشوت	تأليف : ميخائيل بولجاكوف
316	واحدة بعد أخرى تتفتح أزهار البرقوق	تأليف : كنيث ياسودا
317	ملحمة علي الكاشاني	تأليف : خلدون طائر
318	نون و القلم	تأليف : جلال آل أحمد
319	سيري سامبيجي	تأليف : تشاندرا سيخار كامبار
320	أيام بورمية	تأليف : جورج أورويل
321	ست وصايا للألفية القادمة	تأليف : ايتالو كالفينو
322	السكرتير الخصوصي	تأليف : ت. س. إليوت
323	قصص برازيلية	تأليف : مجموعة من القاصين البرازيليين
324	شذرات من خطاب في العشق	تأليف : رولان بارت
325	لون الماء	تأليف : جيمز ماكبرايد
326	وجهان لحواء	تأليف : أمريتا بريتام
327	المنزل ذو الشرفات السبع	تأليف : اليخاندرو كاسونا
328	من الأدب الباكستاني الحديث	تأليف مجموعة من القاصين الباكستانيين
329	مختارات من القصة التركية المعاصرة	تأليف : مجموعة من القاصين الأتراك
330	مسرحية محكمة العدل في بلخ	تأليف : بهرام بيضائي
331	مطبخ - خيالات ضوء القمر	تأليف : بنانا يوشيموتو
332	الطباخون الأشرار - الجرة المكسورة	تأليف : جونتر جراس
333	شمل تشابه ضائع	تأليف : هاينرش فون كلايست
334	حكايات الهنود الأمريكيين و أساطيرهم	تأليف : أندريه شديد
335	زهرة الصيف	تأليف : فلاديمير هلباتش
336	طام - طام زنجي	تأليف : مجموعة من القاصين اليابانيين
337	اليبروح	تأليف : ليوبولد سيدار سنغور
338	منزل النور	تأليف : نيكولو ماكيافللي
339	كثبان النمل في السافانا	تأليف : جوهر مراد
340	أناتول وجنون العظمة	تأليف : تشنوا أشيبي
341	غرام ميتيا	تأليف: أرتور شنيتسلر
342	آرنجندن والحارس الليلي	تأليف: إيفان بونين
343	ورقة في الرياح القارسة	تأليف: فيمي أوسوفيسان
344	مدرسة الدكتاتور	تأليف: تنغ - هسنغ يي
345	رسائل عيد الميلاد	تأليف: إيريش كستنر - تيد هيوز
346	حكايات وخرافات أفريقية (1) - الطفل الملك	تأليف: سليمان جيغو ديوب
347	مسرحية عذراء أورليان	تأليف: فريدريش شيللر

ما صدر من هذه السلسلة

348	حكايات وخرافات أفريقية (2) الأدغال والسهول العشبية تحكي	تأليف: سليمان جيغو ديوب
349	القصة القصيرة الإسبانو أمريكية في القرن العشرين	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالأسبانية
350	مسرحيتا: 1 - محنة الأخ جيرو 2 - تحوُّل الأخ جيرو	تأليف: وول سوينكا
351	روض الأدب (مختارات قصصية)	تأليف: أو. هنري
352	مسرحية «آنتيجون»	تأليف: ب. بريشت
353	أجمل حكايات الزن يتبعها فن الهايكو	تأليف: هنري برونل
354	مسرحية «المقهى»	تأليف: لاوشه
355	مسرحيتا: -1 صناعة تاريخ - 2 ترجمات	تأليف: برايان فرييل
356	رواية «الشباب»	تأليف: ج. م. كويتتزي
357	مختارات من الشعر المجري المعاصر (شعراء السبعينيات)	تأليف: مجموعة من الشعراء المجريين
358	مسرحيتا: -1 تلاميذ الخوف -2 الغزاة	تأليف: إيجون وولف
359	اسمي آرام (مجموعة قصصية)	تأليف: وليام ساروبان
360	حامل الإكليل (قصص مختارة)	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالألمانية
361	الصُّــــورة (مسرحية)	تأليف: سيلافومير مروجيك
362	الأيام الخمسة الأخيرة لرسول (رواية)	تأليف: تحسين يوجل
363	سبع مسرحيات ذات فصل واحد (من بولند)	تأليف: إيرينيوش إيريدينسكي أندچـي ماليشكا ستانيسلاف ليم (ستانيسواف) سوافومير مروچيك
364	سبع نساء... سبع قصص	تأليف: مجموعة من القاصات الفارسيات
365	زمن الضحك (ملهاة خفيفة من ثلاثة فصول)	تأليف: نويل كاورد
366	بالأبيض على الأسود (رواية)	تأليف: رُوبين دايڤيد غونساليس غاليغو
367	مسرحيتا: -1 سهرة في المقهى -2 موت ممثل مشهور	تأليف: تيان هان
368	إمرأة وحيدة «فروغ فرخزاد وأشعارها» سيرة حياة	تأليف: مايكل هلمان

ما صدر من هذه السلسلة

369	«الملاح» (مسرحية من الأدب البولندي)	تأليف: ييجى شانيافسكي
370	ليلة التنبؤ (رواية)	تأليف: بول أوستر
371	هذا الجيل المحظوظ (مسرحية)	تأليف: نويل كاورد
372	لا وجود لخصومات صغيرة	تأليف: أمادو همباطي با
373	الليلة التي أمضاها ثورو في السجن (مسرحية)	تأليف: جيروم لورنس وروبرت إي. لي
374	مختارات من الشعر الإيراني الحديث	تأليف: مجموعة من الشعراء الإيرانيين
375	العقرب وقصص أخرى (الجزء الأول)	تأليف: بول بولز
376	العقرب وقصص أخرى (الجزء الثاني)	تأليف: بول بولز
377	«الأسيرة» (مختارات من ديوان شعر)	تأليف: فُروغ فرخزاد
378	شارع بريك لين (الجزء الأول)	تأليف: مونيكا علي
379	شارع بريك لين (الجزء الثاني)	تأليف: مونيكا علي
380	الطريق (رواية)	تأليف: كورماك مكارثي
381	مختارات من القصص القصيرة الأوزبكية	تأليف: مجموعة من الأدباء الأوزبك
382	عشيق الصين الشمالية (رواية)	تأليف: مارغريت دوراس
383	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الأول)	تأليف: إرنست همنغواي
384	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثاني)	تأليف: إرنست همنغواي
385	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثالث)	تأليف: إرنست همنغواي
386	النمر الأبيض (رواية)	تأليف: آرافيند آديغا
387	موطن الألم (رواية)	تأليف: دوبرافكا أوجاريسك
388	فيلا أماليا (رواية)	تأليف: باسكال كينيارد
389	الإحساس بالنهاية (رواية)	تأليف: جوليان بارنز
390	ياسمينة (وقصص أخرى)	تأليف: إيزابيل إبرهاردت
391	المغامرة الغامضة (رواية)	تأليف: شيخ حامد كَان
392	الرجال الذين يحادثونني (رواية)	تأليف: أناندا ديفي
393	أنطولوجيا القصّة الإيرانية الحديثة	تأليف: مجموعة من الأدباء الإيرانيين
394	حكايات حكماء أفريقيا وأسطورة نجدو ديوال	تأليف: أمادو همباطي با
395	خرائط (رواية)	تأليف: نور الدين فرح
396	إله الصدفة (رواية)	تأليف: كريستن توروب
397	أزهار عباد الشمس العمياء (رواية)	تأليف: ألبرتو مينديس
398	الأبدية بعيدة جدا (وقصص أخرى)	تأليف: تيه نينغ
399	اذهب حيث يقودك قلبك (رواية)	تأليف: سوزانا تامارو
400	الحضارة أمي (رواية)	تأليف: إدريس الشرايبي

ما صدر من هذه السلسلة

401	فنان الاختفاء (ثلاث روايات قصيرة)	تأليف: أنيتا ديساي
402	عيناها (رواية)	تأليف: بزرگ علوي
403	السباحة إلى المنزل (رواية)	تأليف: ديبورا ليفي
404	الرِّقَّة (رواية)	تأليف: دافيد فونكينوس
405	على قيد الحياة (رواية)	تأليف: يو هوا
406	الأب (رواية)	تأليف: يورج أكلين
407	إِنِّيْ أَتَعَافَى (رواية)	تأليف: دافيد فوينْكِيْنوس
408	الوردة الزرقاء (رواية)	تأليف: بينلوبي فيتزجرالد
409	إبداعات نسائية (مجموعة قصصية)	تأليف: مجموعة من الكاتبات التركيات
410	الإيـــاب (ديوان شعر)	تأليف: هاينْرِيش هايْنهْ
411	سبع حكايا تعود من بعيد	تأليف: جان كريستوف روفان
412	المخادع الحقيقي (رواية)	تأليف: توف جانسون
413	اليـوم السابع (رواية صينية طويلة)	تأليف: يـــو هـــوا
414	الرجلُ الذي كان يَنظُر إلى الليل (رواية)	تأليف: جِلْبير سِيْنُويه
415	رَاوِي مَرَّاكش (رواية)	تأليف: جويديب روي ـــــ باتاجاريا
416	فَتَاةٌ في حَالَةِ حَرْب (رواية)	تأليف: سارة نوفيتش
417	آكلو اللوتس الجزء الأول (رواية)	تأليف: تاتيانا سولي
418	آكلو اللوتس الجزء الثاني (رواية)	تأليف: تاتيانا سولي
419	بستنة في المنطقة الاستوائية (ديوان شعر)	تأليف: أوليف سنيور
420	مختارات من القصة القصيرة الهندية الحديثة	تأليف: مجموعة من كتّاب شبه القارة الهندية
421	جمعية غيرنزي للأدب وفطيرة قشر البطاطا (رواية)	تأليف: ماري آن شيفر وآني باروز
422	كي يواجهوا الشمس المشرقة (رواية)	تأليف: جون ماكغرين


المجلس
الوطني
للثقافة
والفنون
والآداب



سوزانا تامارو

- ولدت سوزانا تامارو في تريستى في إيطاليا سنة 1957
- قامت بتأليف ونشر عدة روايات منها: «الرأس بين السحاب» 1989، «صوت وحيد» 1991، «اذهب حيث يقودك قلبك» 1994، «روح العالم» 1997، «اجبني» 2001، و«إلى الأبد» 2011، ونشرت أيضا بعض قصص الاطفال منها «القلب السمين».
- حازت رواية «اذهب حيث يقودك قلبك» على نجاح كبير وتُرجمت إلى عدة لغات ووزعت حوالي 15 مليون نسخة، بل وحولتها المخرجة كريستينا كومنشيني إلى فيلم عام 1996.
- حصلت سوزانا تامارو على عدة جوائز أدبية منها جائزة إيطالو كالفينو عام 1989، وإيلسا مورانتي 1990، جائزة شينتو عام 1995 وجائزة دانتى الذهبية من جامعة بوكوني عام 2013.



صوت مُنْفَرِد

«صوت منفرد» مجموعة قصصية تتناول الخوف والقسـوة والوحدة. نحن فيها أمام خمس شـخصيات ضعيفة، ليس لديها سـوى صوتها، ليس أمامها إلا أن تحكي لنا في مرثية حزينة عن قسـوة الحياة، فهي غير قادرة على التمرد وإبعاد الأذى عن نفسها، وليس أمامها سوى أن تئن.

تتنـاول المجموعة قصص نماذج العنف الواقـع على الأطفال في قالب واقعـي، فهو عنف نراه أحياناً حولنا، أو ربما يتوارى عنا فلا نلمحه، ولكنه موجـود، فنحن أمـام طفلة تتعرض للتحـرش من قبل والدهـا بالتبني: «يقولون إن الغيـلان لا وجود لها إلا في خيالنا، ولكن الحقيقة أن الغيلان موجودون بالفعل. فأبي في الصباح محام ولكنه يتحول إلى غول في الليل».

وأخرى غجرية تخلى عنها أبواها للتسًول، لم تشعر بالحب قط، يخدعها شخص باسم الحب.

وأمام صبي يقضي رفضُ والديه لوجوده، وجوعُه الشديد للحب، على حياته، فيتحول إلى قاتل.

وفي المجموعة قصتان لسـيدتين، تحكي كل منهما في نهاية حياتها كيف ظلمها المجتمع وظروف الحياة.

تـبرز المؤلفة أكثر المشـاعر إيلامـا في النفس البشرية مـن خلال لغة صريحة، صادقة ومباشرة، بل أعطت مسـاحة كبيرة للشـخصيات للتعبير عن تلك المشـاعر، وعما يعتمل عادة في الصدور من أشياء نخجل منها ولا نواجهها.

إنـه صوت منفـرد، يبحث عمّن ينصت إليه، ربما سـنحت لنا الفرصة لنمدّ يد المساعدة، يوما ما، لصاحبه.



ISBN: 978-99906-0-579-2

رابط بيع الإصدارات على الموقع الإلكتروني
https://www.nccal.gov.kw/publications